موريارتي

أنطوني هوروفيتز



شرلوك هولمز مات.
يعيش موريارتي!



نوفل

كلّا، لم يكن ذاكَ أنا. وسأقول لكم لماذا.

دعوني أوّلًا أقدّم لكم نفسي: إسمي فريديريك تشايس، محقّق في وكالة بينكرتون الأميركية. مهمّتي؟ أن أجد كلارنس ديفرو، وأجمّد نشاط ذلك العقل المدبّر في عالم الجريمة، الذي سرعان ما ملأ فراغًا تركه فيها غياب موريارتي، عدوّ شرلوك هولمز اللدود.

لتوقيف نابغة الشرّ ذاك، كان عليّ أن أرافق المحقّق أثيلني جونز، أحد أتباع شرلوك هولمز ومُريديه، إلى أظلم دهاليز المدينة.

إنّ المجرم الأخطر في إنكلترا ليس ذاك الذي نحسب أنّه هو.

أنطوني هوروفيتز – من أكثر مؤلفي قصص التشويق والإثارة شهرة وإنتاجًا. بيع من سلسلته حول الجاسوس المراهق «أليكس رايدر» أكثر من 20 مليون نسخة حول العالم.

هذا النجاح أكسبه الامتياز بأن كلّفته جمعية Conan Doyle Estate كتابة مغامرة شرلوك هولمز الجديدة «بيت الحرير» (نوفل، 2013) التي حصدت نجاحًا عالميًّا. في هذا الكتاب، يزور هوروفيتز مجدّدًا عوالم شرلوك هولمز والبروفسور موريارتي، بالإضافة إلى مجموعة من الشخصيات الأخرى المركّبة بمهارة، واضعًا حبكة مُحكمَة تقطع الأنفاس، ولا تكفّ عن إدهاش القارئ حتى الصفحة الأخيرة.

ISBN 978-614-438-475-6



نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان

موريارتي


mohamed khatab
mohamed khatab
mohamed khatab

موريارتي

أنطوني هوروفيتز

نقله من الإنكليزية أدونيس سالم



نوفل

صدرت عام 2016 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2016
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فوريست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Paul Gooney ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-475-6

Original title :
Moriarty

Published by arrangement with
The Orion Publishing Group Limited

مقتطف من جريدة التايمز اللندنيّة
بتاريخ 24 نيسان 1891

العثور على جثّة في هايغايت

لم تستطع الشرطة تقديم أيّ تفسير لجريمة قتل نادرة في وحشيّتها اكتُشفت في مكان قريب من مرتون لاين في منطقة هايغايت الجميلة والهادئة في العادة. وقد أصيب القتيل، وهو شابٌ في عقده الثالث، برصاصة في رأسه. لكنّ ما أثار اهتمام الشرطة هو أنّ يدَيْ الرجل قُيِّدتا قبل قتله. ويميل المفتّش ج. لسترايد المكلّف التحقيق في الجريمة، إلى الاعتقاد بأنّ هذا العمل المروّع هو أشبه بعمليّة إعدام، وقد يكون ذا صلة باضطرابات تشهدها شوارع لندن مؤخّرًا. وقد حدّد المحقّق هويّة القتيل فأوضح أنّه يُدعى جوناثان بيلغريم، وهو أميركيّ كان يقيم في نادٍ خاصّ في مايفير، وربّما قدِم إلى لندن في رحلة عمل. واتّصلت سكوتلانديارد بالبعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة، إلّا أنّه لم يُعثر على أيّ عنوان للقتيل، وقد تنقضي بضعة أسابيع قبل أن يظهر أيّ من أنسبائه. ولا يزال التحقيق في الجريمة جاريًا.

الفصل الأوّل

شلّالات رايشنباخ

هل يصدّق أحد حقًّا ما جرى في منطقة شلّالات رايشنباخ؟ شردَت حول ذلك روايات كثيرة جدًّا، لكن يبدو لي أنّها ظلّت كلّها تفتقر إلى أمر ما، وهو الحقيقة. لنأخذ مثلًا روايتَي «جورنال دو جنيف» و«رويترز». قرأتُهما من البداية وحتّى النهاية، ولم تكن تلك بالمهمّة السهلة لأنّ كلتيهما كُتبتا بالأسلوب الجافّ حتّى الألم الذي يميّز معظم المنشورات الأوروبيّة، وكأنّها تورد الأخبار لأنّها مضطّرة إلى ذلك، لا لأنّها تريد إطلاعك أيّها القارئ عليها. ما الذي أخبرتني إيّاه تحديدًا تلك المطبوعتان؟ أخبرتاني أنّ شرلوك هولمز وأبرز أخصامه أي البروفسور جايمس موريارتي، والذي لم يعرف الجمهور بوجوده إلّا الآن، قد التقيا وأنّ كليهما قد مات. والواقع أنّ درجة الحماسة التي كُتب بها النصّ الصحفيّ في روايتَي تينك المطبوعتين، لا تعدو تلك التي قد يُروى بها خبر حادث سيّارة. وحتّى العنوانان كانا باهتين.

لكنّ ما يحيّرني حقًّا هو رواية الدكتور واطسون. فالرجل سرد القصّة بكاملها في مجلّة «ستراند ماغازين»، منذ أن طُرق باب عيادته مساء 24 نيسان 1891، مرورًا بما جرى في أثناء رحلته إلى سويسرا. لا أحد يضاهيني إعجابًا بمؤرّخ مغامرات رجل التحرّي العظيم، ومآثره، ومذكّراته، وأرشيفه. فيما أنا جالس إلى آلتي الكاتبة «رمينغتون 2» في طرازها الأحدث (وهو اختراع أميركيّ، طبعًا)، وأهمّ بالشروع في هذا العمل الكبير، أعرف أنّ من المحتمل

أن أقصّر في المحافظة على معايير الدقّة والترفيه التي حافظ عليها الدكتور واطسون حتّى النهاية. لكنّ عليّ أن أسأل نفسي: كيف أمكنه أن يرتكب خطأً كهذا؟ كيف أمكنه ألّا يلاحظ تناقضات كانت لتبدو شديدة الوضوح حتّى لأكثر محقّقي الشرطة بلاهة؟ كان روبرت بينكرتون يقول إنّ الكذبة تشبه جيفة ذئب: إذا طال بقاؤها أرضًا، ازدادت رائحتها نتانة. وهو مَن كان ليكون أوّل القائلين إنّ كلّ ما في رواية شلّالات رايشنباخ تنبعث منه رائحة منتنة.

يجب أن تعذروني إذا بدوتُ مصرًّا على تقديم الإثباتات والبراهين بصورة مبالغ بها قليلًا، لكنّ روايتي – أي هذه الرواية – تبدأ برايشنباخ، وكلّ ما يلي لا معنى له بدون تفحّص دقيق للوقائع.

مَن أنا؟ من أجل أن تعرفوا بصحبة مَن أنتم، دعوني أخبركم أنّ اسمي فريدريك تشايس، وأنّني محقّق أعلى لدى وكالة بينكرتون للتحرّيات في نيويورك وأنّني كنت في أوروبا للمرّة الأولى – ومن المحتمل جدًّا أن تكون الأخيرة – في حياتي. ومظهري الخارجيّ؟ ليس من السهل أبدًا على أيّ رجل أن يصف نفسه، لكنّني سأكون صادقًا: لا أستطيع أن أعتبر نفسي وسيمًا. كان شعري أسود، وكانت عيناي بنّيتين بدرجة باهتة جدًّا. كنت نحيفًا آنذاك، وبرغم أنّني لم أتجاوز العقد الخامس من عمري، فقد استنزفتني تحديات الحياة حتى ذلك الحين. كنت غير متزوّج، وأقلق أحيانًا من أن يظهر ذلك في ملابسي، التي ربّما ارتديتها طويلًا جدًّا. وفي غرفة تضمّ عشرة رجال، أنا دائمًا آخر المتكلّمين. تلك كانت طبيعتي.

وصلت إلى رايشنباخ بعد خمسة أيّام من المواجهة التي دعاها العالم «المشكلة النهائيّة»، لكنّها لم تحمل نهاية لشيء، حسبما بتنا نعرف، فبقيت لنا المشكلة، كما أظنّ.

حسنًا. لنبدأ من البداية.

شرلوك هولمز، أعظم رجل تحرٍّ خاصّ عاش على الإطلاق، هرب من إنكلترا خوفًا على حياته. والدكتور واطسون، الذي يعرف الرجل على نحو أفضل من أيّ شخص آخر، ولا يقبل بسماع أيّة كلمة سوء تُقال عنه، مضطرّ إلى الاعتراف بأنّ هولمز لم يكن آنذاك في أفضل أحواله، وأنّ الإنهاك الشديد

نال منه بفعل الورطة التي وجد نفسه فيها، ولم يستطيع السيطرة عليها. هل يمكننا لومه على ذلك؟ لقد تعرّض للهجوم ما لا يقلّ عن ثلاث مرّات في صبيحة واحدة فقط، حيث كادت شاحنة يجرّها حصانان تدهسه، حين مرّت مندفعة بسرعة كبيرة على مسافة بوصة واحدة منه في شارع ويلبك. وكاد حجر سقط – أو رُمي – عن سطح منزل في شارع فير يصرعه. وعند باب منزل واطسون الأماميّ، هاجمه رجل كان واقفًا بانتظاره وبيده هراوة. هل كان يملك خيارًا سوى الفرار؟

حسنًا، نعم. فقد توفّرت له خيارات كثيرة أخرى لدرجة أنّ عليّ أن أتساءل عمّا كان يدور حقًّا في ذهن السيّد هولمز. لا أعني أنّه كان شخصًا يميل إلى الإفصاح عن خطواته. فقد قرأتُ كلّ روايات واطسون، ولم أستطع أن أحزر نهاية أيٍّ منها قطّ.

في البداية، ما الذي يحمل هولمز على الاعتقاد بأنّه سيكون أكثر أمانًا في البرّ الأوروبيّ، ممّا هو عليه في دياره؟ فلندن مدينة كثيفة السكّان ومكتظّة، ويعرفها معرفة تامّة، وله فيها حسبما اعترف ذات مرّة، منازل كثيرة («خمسة مخابئ صغيرة»، كما يقول واطسون) موزّعة في أرجائها، ولا يعرفها سواه.

كان بوسعه أن يتنكّر، والواقع أنّ ذلك ما فعله. ففي اليوم التالي، وبعدما وصل واطسون إلى محطّة فكتوريا، لمح كاهنًا إيطاليًا عجوزًا يناقش حمّالًا، حتّى أنّه عرض عليه المساعدة. لاحقًا دخل الكاهن عربته وجلس الاثنان متقابلين دقائق عدّة، قبل أن يتعرّف واطسون إلى صديقه. لقد امتلك هولمز براعة كبيرة جدًا في التنكّر لدرجة أنّه كان بوسعه قضاء ثلاثة أعوام بصفته كاهنًا كاثوليكيًا من دون أن يشكّ أحد بشيء. وكان بوسعه دخول دير إيطاليّ. **الأب شرلوك**... كان هذا ليُبعد أعداءه من طريقه. ولعلّهم كانوا سيدعونه يتابع بعضًا من اهتماماته الأخرى، كتربية النحل مثلًا.

بدلًا من ذلك، يمضي هولمز كالتائه في رحلة من مكان إلى مكان، لا برنامج لها، ويسأل واطسون مرافقته فيها. لماذا؟ فالمجرم الأقلّ كفاءة سيدرك بلا شكّ أنّه وحيثما يذهب هولمز، فقد يتبعه واطسون. ولا ننسينّ أنّنا نتكلّم هنا عن مجرم لا مثيل له، ومعلّم في حرفة الإجرام، ورجل يشعر

حياله هولمز نفسه بمزيج من الخشية والإعجاب. لا أعتقد أبدًا أنّ هولمز قلّل من تقدير موريارتي. ولذلك فالحسّ السليم يقول لي إنّه، من دون شكّ، كان يلعب لعبة أخرى.

سافر شرلوك هولمز إلى كانتربري، ونيوهايفن، وبروكسل، وستراسبورغ. وكان متبوعًا في كلّ خطوة يخطوها. في ستراسبورغ، تلقّى برقيّة من شرطة لندن تبلغه بأنّ كلّ أفراد عصابة موريارتي قد ألقي القبض عليهم. وهو أمرٌ سيتبيّن لاحقًا أنّه عارٍ تمامًا عن الصحّة. فقد نجا أحد الأشخاص الأساسيّين من بين ثقوب الشباك، برغم أنّ استخدام هذا التعبير غير ملائم نظرًا إلى أنّ السمكة الضخمة الحجم، أي الكولونيل سيباستيان موران، لم تقترب الشباك منها قطّ.

للمناسبة، كان الكولونيل موران، وهو أمهر قنّاص في أوروبا، معروفًا جيّدًا لدى وكالة بينكرتون. الواقع أنّه بات في نهاية مسيرته المهنيّة، معروفًا لدى كلّ أجهزة الشرطة في العالم. وقد اشتهر في مرحلةٍ ما بأنّه أردى في أسبوع واحد أحد عشر نمرًا في راجاستان، وهو ما أثار ذهول أقرانه الصيّادين، وفي الوقت عينه سخط واستهجان أعضاء الجمعيّة الملكيّة للجغرافيا. كان هولمز ينعته بثاني أخطر الرجال في لندن، خصوصًا وأنّ المال دافعه الوحيد. فجريمة قتل السيدة أبيغايل ستوارت مثلًا، وهي أرملة على قدر كبير من الاحترام قُتلت برصاصة في رأسها وهي تلعب البريدج في لودر، لم يقترفها موران إلّا ليتمكّن من تسديد ديون القمار التي تورّط بها في نادي «باغاتيل كارد». من الغريب التفكير في أنّه، وبينما جلس هولمز يقرأ البرقيّة، كان موران يبعد عنه مسافة تقلّ عن مئة باردة، ويحتسي شرابًا ساخنًا على شرفة فندق. كان ذانك الرجلان على وشك أن يلتقيا.

ومن ستراسبورغ، واصل هولمز رحلته إلى جنيف، وأمضى أسبوعًا يستكشف الهضاب المكلّلة بالثلوج والقرى الجميلة في وادي الرون. وصف هولمز هذه الفترة الفاصلة بـ«الرائعة»، لكنّني ما كنت لأستخدم الكلمة عينها في ظلّ ظروف كتلك. لكنّني أفترض أنّه لا يسعنا سوى الإعجاب بقدرة ذينك الرجلين، الصديقين المتقاربين، على أن يستمتعا بصحبة أحدهما الآخر في ظروف كتلك.

ظلّ شعور هولمز بالخوف على حياته مسيطرًا عليه. وقد وقع حادث آخر. ففيما كان يسير على درب قريب من بحيرة الدوبنسي ذات المياه الرماديّة كلون الفولاذ، كادت صخرة تسحقه، حين تدحرجت على سفح الجبل فوقه تمامًا. أكّد له دليله وهو من أبناء المنطقة، أنّ حدوث أمر كهذا ليس نـادرًا، وأنا أميل إلى تصديقه. نظرتُ إلى الخرائط واحتسبت المسافات. وبحسب تقديري، فإن عدوّ هولمز قد سبقه شوطًا بعيدًا ومكث ينتظر وصوله. ومع ذلك، كان هولمز مقتنعًا بأنّه تعرّض لاعتداء جديد، وقضى بقيّة يومه ذاك في حالة من القلق الشديد.

أخيرًا، بلغ قرية مايرنغن على نهر آر، حيث نزل وواطسون في «إنغليشر هوف» وهو نزل يديره نادل عمل سابقًا في فندق «غروسفنور» في لندن. وهذا الرجل، واسمه بيتر ستايلر، هو مَن اقترح على هولمز زيارة شلّالات رايشنباخ. وقد شكّت الشرطة السويسريّة لبعض الوقت بأنّه يعمل لحساب موريارتي. وهذا يشرح لكم بصورة وافية تقنيّات التحقيق لدى الشرطة السويسريّة. برأيي أنّ أفراد الشرطة أولئك كانوا ليلقوا صعوبة في العثور على ندفة ثلج فوق مجلدة في جبال الألب. أنا أيضًا نزلت في النزل عينه واستجوبت ستايلر. وهو لم يكن بريئًا فقط، بل كان رجلًا بسيطًا يكاد لا يرفع عينيه عن قدور مطبخه ومقاليه (في الواقع، كانت زوجته هي من تدير النزل). وقبل أن يأتي العالم كلّه قارعًا بابه، كان ستايلر يجهل هويّة نزيله الشهير. أمّا ردّة فعله الأولى بعدما سمع خبر موت هولمز، فكانت أن أطلق اسمه على أحد أطباق الجبن المذوّب.

لقد أوصى ستايلر هولمز طبعًا بزيارة شلّالات رايشنباخ، وكانت الشكوك لتساورني لو لم يفعل. فهي منطقة مقصودة جدًّا من قِبل السيّاح وعشّاق الرومانسيّة. وقد يجد المرء في أشهُر الصيف عددًا من الرسّامين متوزّعين على الدرب المكسوّة بالطحالب، يحاولون أن يخلّدوا على لوحاتهم شلّال المياه الذائبة من مجلدة روزنلوي وهي تهوي تسعين مترًا في الوادي. يحاولون لكن يخفقون، لأنّ في ذلك المكان القاسي شيئًا يكاد يكون خارقًا للطبيعة يتحدّى ألوان أعظم الرسّامين. شاهدتُ أعمال تشارلز بارسونز وإيمانويل لويتز في

نيويورك، وأظنّهما وحدهما القادرين على رسم هذا المكان. فهنا، يبدو العالم وكأنّه يبلغ نهايته، في مشهد رؤيويّ لا ينتهي من المياه الهادرة والرذاذ المتصاعد كالبخار، يجفّل العصافير ويحجب نور الشمس. وعن جانبَي هذا الفيضان المصطخب جدران صخريّة وعرة ووحشيّة.

غالبًا ما أظهر شرلوك هولمز ميلًا إلى الميلودراما، لكنّه لم يفعل ذلك قطّ كما فعله هنا. فهذا المكان كان مسرحًا لا يضاهى لتأدية مشهد خاتمة درامي ضخم يتردّد صداه، كالشلّال عينه، لقرون كثيرة مقبلة.

تلك هي المرحلة التي بدأ عندها صفو الأمور بالتعكّر قليلًا.

وقف هولمز وواطسون معًا لبعض الوقت، ثمّ همّا بمواصلة طريقهما حين فوجئا بوصول فتى في الرابعة عشرة من عمره، أشقر الشعر وممتلئ الجسم قليلًا. وكان لمفاجأتهما ما يبرّرها. فالفتى كان أنيقًا جدًّا بزيّه السويسريّ التقليديّ، أي بسروال ضيّق يبلغ الركبتين، وجوربين عاليين، وقميص أبيض، وفوقه صُدرة حمراء مفتوحة بلا كمّين. بدا لي الأمر مريبًا بعض الشيء. فنحن في سويسرا، لا في مسرحيّة على خشبة مسرح بالاس. شعرت بأنّ هذا الفتى يبالغ.

في كلّ حال، زعم الفتى أنّه أتى من نزل «إنغليشر هوف». وقال إنّ امرأة مرضت لكنّها ترفض لأسباب مجهولة أن تدع طبيبًا سويسريًّا يعاينها. ما كنتم لتفعلوا لو أنكم محلّ الدكتور واطسون؟ هل ترفضون تصديق هذه الرواية الغريبة وتبقون حيث أنتم، أم تتركون صديقكم في أسوأ الأوقات، وفي ذلك المكان الجهنّميّ حقًّا؟ كان ذلك كلّ ما سمعناه حول الصبيّ السويسريّ، برغم أنّنا، أنتم وأنا، لن نلبث أن نعود للقائه. أشار هولمز إلى أنّه ربّما كان يعمل لدى موريارتي، لكنّه لم يعد إلى ذكر ذلك. أمّا واطسون، الكريم النفس والعنيد أشدّ العناد، فقد استأذن صديقه وأسرع إلى مريضة غير موجودة.

علينا الآن أن ننتظر ثلاث سنوات عودة هولمز إلى الظهور. ومن المهمّ أن نتذكّر أنّه اعتُبر طوال فصول هذه الرواية في عداد الأموات. وهو لم يقدّم أيّ تبرير إلّا بعد فترة طويلة (يروي واطسون ذلك كلّه في «المنزل الفارغ»). وبرغم أنّني قرأتُ في مهنتي تقارير كثيرة، فإنّ عددًا قليلًا منها فقط استطاع

جمع هذا القدر من الأمور المستبعَدة. على أيّة حال، هذه روايته وأفترض أنّ علينا أن نأخذ بها كما هي.

وفقًا لهولمز، ما إن انصرف واطسون حتّى ظهر البروفسور جايمس موريارتي، يسير على الدرب الضيّقة التي تتعرّج بموازاة منتصف ارتفاع الشلّالات. وتلك الدرب تنتهي فجأة، لذا فمن غير الوارد أن يحاول هولمز الهرب، وهو أمر ما كان ليخطر بباله أصلًا. والحق يُقال، هولمز رجل لطالما جابه مخاوفه، سواء أكانت أفعى مستنقعات قاتلة، أو سمًّا فتّاكًا قد يسبّب الجنون، أو زمرة من الكلاب المسعورة. ورغم الكثير من الأمور المحيّرة التي قام بها، لكنّه لم يهرب قطّ.

تبادل الرجلان بعض الكلمات. وطلب هولمز إذنًا بكتابة رسالة لرفيقه القديم، فوافق البروفسور موريارتي. وهذا أمر يمكن التحقّق منه، لأنّ تلك الأوراق الثلاث من بين أثمن موجودات قاعة القراءة في المكتبة العامّة البريطانيّة في لندن، حيث رأيتها معروضة. بعد الانتهاء من تبادل اللياقات، هاجم كلّ من الرجلين خصمه في ما بدا أقرب إلى الانتحار منه إلى العراك، حيث كان كلّ منهما مصمّمًا على قذف الآخر في شلّال الماء الهادر. وهذا ما كاد يحدث، لولا أنّ هولمز كان يخفي مفاجأة، فهو تعلّم البارتيستو. لم يسبق لي أن سمعت بتلك الكلمة قطّ، لكن يبدو أنّها تعني فنًّا قتاليًّا ابتكره مهندس بريطانيّ، وهو يجمع بين الملاكمة والجودو. وقد أجاد هولمز استخدامه.

بوغت موريارتي، وقُذف عن الحافّة، ليسقط في الهاوية مطلقًا صرخة رهيبة. شاهده هولمز يرتطم بصخرة قبل أن يتوارى في المياه، فيما بقي هو سالمًا... عفوًا، لكن أليس في تلك المواجهة أمر لا يحمل على الرضا الكامل؟ يجب أن تتساءلوا لماذا يعرّض موريارتي نفسه لهذا النوع من التحدّي. البطولات على طريقة الأزمنة القديمة أمر رائع، برغم أنّني لم ألتقِ قطّ مجرمًا يلجأ إليها. لكن، أيّ هدف يحقّقه من تعريض نفسه للخطر؟ بكلمات أكثر وضوحًا: لماذا لم يأخذ مسدّسًا بكلّ بساطة ويقتل خصمه من مسافة قريبة؟

إذا كان ما فعله موريارتي غريبًا، فإنّ سلوك هولمز يبدو من بعده غير قابل كليًّا للتفسير. فقد قرّر في اللحظة التالية استغلال ما حدث ليتظاهر بأنّه

مات. تسلّق الصخرة خلف الدرب ومكث مختبئًا في انتظار عودة واطسون، متفاديًا بذلك طبعًا ظهور سلسلة ثانية من آثار الأقدام تشي بأنّه قد نجا. ما الهدف من ذلك؟ فالبروفسور موريارتي قد مات، والشرطة البريطانيّة أعلنت القبض على أفراد العصابة. فلماذا لا يزال يعتقد أنّه في خطر؟ أيّ مكسب سيجنيه من ذلك؟ لو أنّي مكانه، لأسرعتُ عائدًا إلى «إنغليشر هوف» لأحتفل بشريحة لذيذة من لحم البقر المغمّس بالكعك وكأس خمر «نيوشاتيل».

في ذلك الوقت أسرع الدكتور واطسون عائدًا إلى المكان، بعدما أيقن أنّه خُدع. وهناك كشفت له عصا جبال متروكة وسلسلة من آثار الأقدام حقيقة ما جرى. فذهب يطلب المساعدة، ثمّ قام بتفحّص الموقع مع عدّة رجال من الفندق وشرطيّ محليّ يدعى غيسنر. كان هولمز يراهم لكنّه ظلّ مختبئًا، برغم إدراكه حجم الأسى الذي سيسبّبه ذلك لرفيقه الأقرب إليه. وجد الرجال الرسالة، وقرأوها، ثمّ انصرفوا جميعًا مدركين أنّه لم يعد بوسعهم فعل شيء. خرج هولمز من مخبأه، وهنا تسلك الرواية منعطفًا آخر غير قابل للتفسير بتاتًا، حيث يبدو أنّ البروفسور موريارتي لم يأتِ إلى شلّالات رايشنباخ وحيدًا. ففيما بدأ هولمز نزوله، وهو ليس بالأمر السهل، ظهر فجأة رجل وأخذ يقذفه بالحجارة محاولًا إسقاطه. لم يكن ذاك الرجل سوى الكولونيل سيباستيان موران.

ما الذي كان يفعله هناك؟ هل شاهد عراك هولمز وموريارتي؟ وإذا شاهده، لمَ لم يحاول المساعدة؟ أين سلاحه؟ هل نسي أعظم قنّاص في العالم، ولسوء الحظّ، سلاحه، على متن القطار؟ لا هولمز، ولا واطسون، ولا أحد آخر استطاعوا أن يقدّموا أجوبة معقولة عن تلك الأسئلة التي يبدو لي، حتّى وأنا أجلس هنا أمام آلتي الكاتبة، أن لا مفرّ منها، والتي، حالما أبدأ بطرحها، لا أستطيع أن أتوقّف. إذ أشعر وكأنّني في عربة تنهب أرض الجادّة الخامسة مسرعة، ولا تستطيع التوقّف عند أضواء المرور.

هذا تقريبًا كلّ ما نعرفه عن شلّالات رايشنباخ. والقصّة التي عليّ أن أرويها الآن تبدأ بعد خمسة أيّام، حين اجتمع ثلاثة رجال في سرداب كنيسة القدّيس ميخائيل في مايرنغن. أحدهم مفتّش تَحَرٍّ من سكوتلانديارد، وهو مقرّ القيادة الشهير للشرطة البريطانيّة، واسمه أثيلني جونز. الثاني أنا.

والثالث طويل ونحيل، ذو جبهة ناتئة وعينين غارقتين كانتا لتنظرا إلى العالم بحقد ومكر، لو أنّ فيهما أيّ أثر للحياة. لكنّهما كانتا آنذاك كالزجاج وفارغتين. وقد انتُشلت جثّة هذا الرجل المرتدي ملابس رسميّة، هي كناية عن سترة طويلة وقميص ذي ياقة مكسورة، من نهر رايشنباخ، في مكان بعيد قليلًا عن الشلّالات. كانت ساقه اليسرى مكسورة وفي كتفه ووجهه إصابات بالغة أخرى. لكنّ الغرق هو سبب الوفاة بلا شكّ. وقد علّقت الشرطة المحلّية بطاقة بمعصم يده التي طُويت فوق صدره، وكُتب عليها اسمه: جايمس موريارتي.

هو مَن كان سبب قدومي إلى سويسرا. لكن يبدو أنّني وصلتُ متأخّرًا.

الفصل الثاني

المفتّش أثيلني جونز

– هل أنت متأكّد من أنّه هو؟

– أنا متأكّد بالقدر الذي يبدو ممكنًا يا سيّد تشايس. لكن لندع جانبًا قناعاتنا الشخصيّة، ولننظر إلى الأدلّة. فمظهره وظروف وجوده هنا تتطابق تمامًا وكلّ الوقائع التي نملكها. وإن لم يكن هذا هو موريارتي، فنحن مضطرّون إلى أن نتساءل عمّن هو حقًّا، وكيف قُتل، وطبعًا عمّا حلّ بموريارتي نفسه.

– لم تُنتشل سوى جثّة واحدة.

– هذا ما فهمته. مسكين السيّد هولمز... أن يُحرم عزاء جنازة مسيحيّة، وهو ما يستحقّه كلّ إنسان. لكنّ بوسعنا أن نتأكّد من أمر واحد، وهو أنّ اسمه سيبقى حيًّا، وفي ذلك بعض الراحة.

جرى ذلك الحديث في قبو الكنيسة الرطب والكالح، الذي لم يصله دفء ذلك اليوم الربيعيّ وعطره. وقف المفتّش جونز بجانبي مائلًا فوق جثّة الغريق ويداه مشدودتان بإحكام خلفه، وكأنّه يخشى أن يتلوّث. راقبتُ عينيه الرماديّتين القاتمتين تتفحّصان الجثّة بطولها، لتصلا إلى القدمين، وإحداهما بلا حذاء. من الواضح أنّ موريارتي كان مولعًا بالجوارب الحريريّة المطرّزة.

سبق لنا أن التقينا قبل فترة قصيرة في مركز الشرطة في مايرنغن. وقد أدهشني حقًّا أن تكون قرية صغيرة في وسط الجبال السويسريّة، وتحيط بها المعز والأعشاب ذوات الزهر الأصفر بحاجة إلى مركز شرطة. لكنّ مايرنغن كانت

وكما ذكرتُ من قبل مقصدًا سياحيًا مشهورًا، ومع وصول السكّة الحديديّة إليها مؤخّرًا، باتت تشهد بلا شكّ مرور أعداد متزايدة من المسافرين. كان في المركز شرطيّان، يرتديان لباسًا أزرق داكنًا ويقفان خلف الحاجز الخشبيّ الذي يمتدّ بعرض الغرفة الأماميّة. أحدهما كان الرقيب غيسنر السيّئ الحظّ، الذي استُدعي إلى الشلّالات. وبدا واضحًا لي أنّه يفضّل الاهتمام بشؤون جوازات السفر المفقودة، وتذاكر القطارات، واتّجاهات الشوارع... على موضوع خطير كجريمة قتل.

كان ورفيقه لا يعرفان من لغتي إلّا القليل القليل، فاضطررتُ إلى تفسير ما أقوله مستخدمًا صورًا وعناوين في جريدة إنكليزيّة، أحضرتُها معي لتلك الغاية. علمتُ أنّ جثّة انتُشلت من الماء عند مستوى أدنى من شلّالات رايشنباخ، وطلبتُ رؤيتها. لكنّ رجلَي الشرطة السويسريّين كانا شديدي العناد شأن الكثيرين من أفراد الشرطة الذين يملكون قدرًا محدودًا من السلطة. وأوضحا لي، وهما يتكلّمان معًا مستعينين بكثير من حركات اليدين، أنّهما ينتظران وصول شرطيّ رفيع الرتبة أتى من إنكلترا، وأنّ القرار سيكون له وحده. أوضحت لهما أنّني سافرتُ مسافة أكبر، وأنّ شأني في القضيّة كبير جدًّا أيضًا، لكنّهما لم يباليا. آسف، «Mein Herr»[1]. لم يكن في وسعهما تقديم أيّة مساعدة.

أخرجت ساعتي وألقيت نظرة خاطفة عليها. كانت تشير إلى الحادية عشرة، أي أنّ نصف الصباح انقضى هدرًا، وخشيت أن يكون هذا مصير ما تبقّى من النهار. في تلك اللحظة فُتح الباب الأمامي، وأحسست بالنسيم على مؤخّرة عنقي، فاستدرتُ لأرى طيف رجل يحجب بجسمه ضوء النهار. لم يقل شيئًا، لكنّني لاحظت مع دخوله أنّه بسنّي تقريبًا، أو لعلّه أصغر قليلًا، وأنّ له شعرًا داكن اللون ينسدل فوق جبينه، وعينين رماديّتين رقيقتين تتفحّصان كلّ شيء. كان يوحي بالجدّيّة، وحين يدخل غرفة ما، لا يستطيع المرء إلّا أن يلاحظ دخوله. إرتدى الرجل بذلة بنّية، وفوقها واقٍ من البرد فاتح اللون، غير مزرّر، يتدلّى بحريّة فوق كتفيه. كان واضحًا أنّه عانى المرض مؤخّرًا وفقد من

[1] بالألمانية: يا سيّدي.

وزنه. ظهر ذلك جليًا لي في ملابسه التي بدت فضفاضة عليه، وفي وجهه الشاحب والمشدود الملامح. وكان يحمل عصا مصنوعة من خشب الورد لها مقبض فضّيّ غريب ومزخرف، اتّكأ عليها حين اقترب من الطاولة ليستريح.

سألني: «Konnen Sie mir helfen»[2]. (كان يتكلّم الألمانيّة بصورة طبيعيّة تمامًا من دون أن يحاول تقليد اللكنة، وكأنّه درس الكلمات، لكنّه لم يسمعها من قبل.) وأضاف:

– Ich bin Inspector Athelney Jones von Scotland Yard[3].

كان قد ألقى نحوي نظرة فاحصة وجيزة، مسجّلًا في ذهنه وجودي، ومؤجّلًا البحث فيه إلى وقت لاحق، ثمّ تجاهلني. إلّا أنّ اسمه كان له وقع فوريّ على الشرطيّين.

قالا مكرّرين: «جونز. المفتّش جونز». وحين ناولهما رسالة التعريف به، أخذاها بكثير من الانحناء والابتسام. ثمّ طلبا منه الانتظار قليلًا ريثما يُدخلان التفاصيل في سجلّ الشرطة، وذهبا إلى مكتب داخليّ، تاركَين إيّانا، أنا وهو، وحدنا.

كان مستحيلًا أن يتجاهل واحدنا الآخر. فبادر هو إلى كسر الصمت، مترجمًا لي ما قاله من قبل:

– إسمي أثيلني جونز.

– هل سمعتُك تقول إنّك من سكوتلانديارد؟

– صحيح.

– أنا فريدريك تشايس.

تصافحنا، وكانت يده مرتخية بشكل غريب، وكأنّها تكاد تنفصل عن معصمه. وتابع يقول:

– هذه بقعة جميلة. لم تتسنّ لي قطّ متعة السفر إلى سويسرا. والواقع أنّ هذه هي المرّة الثالثة التي أسافر فيها إلى خارج الوطن.

2 بالألمانية: هل يمكنني مساعدتك؟

3 بالألمانيّة: أنا المفتّش أثيلني جونز من سكوتلانديارد.

ثمّ حوّل انتباهه قليلًا إلى صندوق أمتعتي الذي اضطررتُ إلى إحضاره معي، لأنّني لم أكن قد وجدتُ بعد مكانًا أقيم به. وسألني:

– هل وصلتَ منذ قليل؟

– منذ ساعة. لا بدّ من أنّنا كنّا على متن القطار نفسه، كما أقدّر.

– وعملك هو...؟

تردّدتُ في الإجابة. كانت مساعدة شرطيّ بريطانيّ أساسيّة جدًّا في المهمّة التي جئت إلى مايرنغن من أجلها. لكنّني في الوقت عينه لم أرد أن أبدو وقحًا جدًّا. ففي أميركا، غالبًا ما كانت نزاعات مصالح تقع بين وكالة بينكرتون والأجهزة الحكوميّة الرسميّة. لمَ قد يختلف الأمر هنا؟ بدأت بقول:

– أنا هنا في مسألة خاصّة...

فابتسم لقولي هذا، برغم أنّني في الوقت نفسه رأيت طيفًا من شيء ما في عينيه، لعلّه الألم، وقال معقّبًا:

– إذًا قد تسمح لي أن أجيب بالنيابة عنك، يا سيّد تشايس.

ثمّ فكّر لبعض الوقت وأضاف:

– أنت عميل لوكالة بينكرتون من نيويورك، وقد سافرت الأسبوع الماضي إلى إنكلترا، أملًا بالعثور على البروفسور موريارتي. فقد جرى معه نوع من التواصل، تعتبره أنت مهمًّا، وأملت أن تعثر على مضمونه معه. لكنّك صُدمت بسماع خبر موته، وأتيت توًّا إلى هنا. وبالمناسبة، أرى أنّك لا تقدّر الشرطة السويسريّة كثيرًا...

– مهلًا! هتفتُ رافعًا يدي. هل كنت تتجسّس عليّ، حضرة المفتّش جونز؟ هل اتّصلتَ بمكتبي؟ لا أستسيغ أبدًا أن تتحرّى الشرطة البريطانيّة أمري سرًّا وتقحم نفسها في شؤوني.

– لا داعي للقلق. أجابني جونز، بتلك الابتسامة الغريبة عينها. كلّ ما قلته لك قد استنتجته من مراقبتي إيّاك هنا، في هذه الغرفة. ويمكنني أن أضيف المزيد إذا شئت.

– ولمَ لا؟

– أنت تعيش في مبنى قديم الطراز، وشقتك في طابق مرتفع منها. تظنّ أنّ شركتك لا تعتني بك كما يجدر بها أن تفعل، خصوصًا وأنّك من أنجح محقّقيها. لستَ متزوّجًا. ويؤسفني أن أرى أنّ رحلتك بالبحر لم تكن ممتعة، وذلك ليس فقط بسبب الطقس الذي كان سيّئًا جدًّا في اليوم الثاني أو ربّما الثالث لإبحارك. فأنت تظنّ أن الرحلة كلّها ليست إلّا سعيًا خلف سراب. وأرجو من أجلك ألّا تكون كذلك.

صمت جونز. فحملقتُ فيه كأنّني أراه للمرّة الأولى، ثمّ قلت له بصوت مضطرب:

– أنت محقّ في كلّ شيء قلتَه تقريبًا. لكنّني أجهل تمامًا كيف نجحت في استنتاج ما استنتجته. هلّا تفسّر لي؟

– كان ذلك كلّه في غاية الوضوح، أجاب، ثمّ أضاف: وأكاد أقول إنّه كان بسيطًا. قال ذلك مختارًا كلمته الأخيرة بعناية، وكأنّ لها معنى خاصًّا.

– كم أنّ قول ذلك سهل!

ألقيتُ نظرة إلى الباب الذي يفصلنا عن الشرطيّين السويسريّين. بدا أنّ الرقيب غيسنر يتكلّم بالهاتف، فقد سمعت بربرته في الجانب الآخر. وكان الحاجز الخشبيّ الفارغ يفصل بيننا وبينهما.

– رجاءً، حضرة المفتّش جونز، هلّا تخبرني كيف توصّلت إلى تلك الاستنتاجات؟

– حسنًا، لكنّ عليّ تحذيرك من أنّ ذلك سيبدو كحقيقة بديهيّة مؤلمة بعدما أشرح لك.

ثمّ مال بوزنه فوق عصاه، محاولًا أن يجد وضعيّة وقوف مريحة، وأضاف:

– حسنًا، إنّ كونك أميركيًّا جليّ من لكنتك وملابسك. فصُدرتك تحديدًا، المقلّمة وذات الجيوب الأربعة، من الصعب جدًّا العثور عليها في لندن. كما أنّني لاحظتُ مفرداتك. فمنذ قليل قلتَ «كما أقدّر»، حيث كنّا نحن لنقول «كما أظنّ». معرفتي في هذا المجال محدودة، لكنّ لكنتك تشير إلى الساحل الشرقيّ للولايات المتّحدة.

– الواقع أنّ مسقط رأسي هو بوسطن، لكنّني الآن أعيش وأعمل في نيويورك. أرجوك أن تتابع!

– حين دخلتُ إلى هنا كنتَ تنظر إلى ساعتك، وبرغم أنّ أصابعك كانت تغطّيها جزئيًّا، رأيتُ بوضوح الشعار المنقوش على غطائها، أي العين وتحتها كلمات «لا ننام أبدًا». هذا طبعًا هو شعار وكالة بينكرتون للتحرّي التي يقع مقرّها الرئيسيّ، كما أتذكّر، في نيويورك. ومجيئك بحرًا من هناك أمر واضح بسبب وجود ختم الجمارك على صندوق أمتعتك.

ثمّ رمى نظرة خاطفة ثانية نحو صندوقي، الذي وضعته تحت صورة فوتوغرافية لرجل شاحب الوجه، لعلّه شخص تافه من أبناء البلدة. وأضاف يقول:

– أمّا بالنسبة إلى ازدرائك للشرطة السويسريّة، فلماذا تختار النظر إلى ساعتك الخاصّة، وعلى الجدار هنا ساعة تعمل بشكل ممتاز؟ أرى أنّ هذين الشرطيّين كانا بلا فائدة.

– أنت على حقّ تمامًا، سيّدي. لكن ما أدراك بعلاقتي بالبروفسور موريارتي؟

– أيّ سبب معقول آخر قد يأتي بك إلى مايرنغن؟ أنا مستعدّ للمراهنة على أنّك، ولولا ما حدث الأسبوع الماضي، ما كنت لتسمع بهذه البلدة المغمورة أبدًا.

– لعلّ عملي كان يتعلّق بشرلوك هولمز.

– في تلك الحال، كنت قطعًا لتبقى في لندن وتبدأ تحقيقاتك في شارع بايكر. فلا شيء هنا سوى جثّة رجل، وأيًّا كان، فهو ليس شرلوك هولمز. لا. أنت أتيتَ من نيويورك إلى وجهة هي على الأرجح ساوثهامبتون، وهذا ما تؤكّده جريدة «هامبشاير إيكو» المطويّة، والتي تبرز من جيب سترتك الأيمن. أرى أنّ تاريخها هو الخميس في السابع من أيّار، وهذا ما يشير إلى أنّك اشتريتها في المرفأ، واضطُررتَ فورًا إلى السفر إلى البرّ الأوروبيّ. وما هو الخبر الذي جاء بك إلى هنا؟ كان ثمّة تقرير واحد مهمّ يومذاك: وبالتأكيد كان يتعلّق بموريارتي. إبتسم جونز ثمّ أضاف: يفاجئني أنّني لم أرَك من قبل. فكما قلتَ، لا شكّ بأنّنا سافرنا على متن القطار عينه.

– تحدّثتَ عن تواصلٍ جرى مع موريارتي.

– موريارتي لن يفيدك بشيء. فهو ميت. ومن غير المحتمل أن تستطيع التعرّف إليه. قليلون جدًّا مَن رأوه وجهًا لوجه. لذلك فلا بدّ من أنّ ما يهمّك هو شيء يملكه، وكنت تأمل العثور عليه معه. لعلّها رسالة أو طرد مُرسل من أميركا. أفترض أنّ هذا ما كنت تناقش الشرطة بشأنه حين وصلتُ.

– كنت أطلب منهما أن يدعاني أعاين الجثّة.

– لم يعد لديّ ما أضيفه.

– والرحلة بالبحر؟

– إضطُررتَ إلى تشاطر حجرة مع...

– ما أدراك؟ هتفتُ.

– أظافرك وأسنانك توحي إليّ بأنّك لا تدخّن، لكنّني مع ذلك أشمّ رائحة تبغ قويّة تنبعث منك. هذا ينبئني بأنّ أرباب عملك، وبالرغم من أنّهم اختاروا أفضل رجالهم للقيام بهذه المهمّة، أيًّا تكن – في النهاية، هم أرسلوك في رحلة تجتاز فيها نصف العالم – لم يكونوا مستعدّين لدفع أجرة حجرة لشخص واحد. لا شكّ بأنّ مشاطرة مدخّنِ الحجرة لم تكن ممتعة جدًّا بالنسبة إليك.

– صحيح تمامًا.

– كما أنّ الطقس زاد من سوء الرحلة. (ورفع يده ليقطع عليّ سؤالي قبل أن أطرحه.) هذا الجرح على جانب عنقك بشع. لم تكن الحلاقة في البحر بالأمر السهل، وخصوصًا مع هبوب عاصفة.

قهقهتُ ضاحكًا، وقلتُ له:

– حضرة المفتّش جونز، أنا رجل بسيط. وحقّقتُ ما حقّقته بالجهد والعمل الدؤوب والشاقّ. لم أَخْبَر تقنيّات كهذه قطّ، ولم أكن أعلم أنّ مفتّشي الشرطة البريطانيّين مدرّبون على استخدامها.

– لم نتدرّب كلّنا على ذلك، أجاب جونز بهدوء. لكنّ بوسعك القول إنّني تلقّيت تدريبًا خاصًّا... وقد تعلّمتُ من الأفضل.

– هناك أمر أخير. لم تشرح لي بعد كيف عرفت بأنّني عازب، وأين أقيم في نيويورك.

– أنت لا تضع خاتم زواج، وهذا في ذاته ليس بالدليل القاطع. لكن – واعذر قولي هذا – لا زوجة تسمح لزوجها بالسفر بقميصٍ وعلى كمّيه بقع كهذه، أو بحذاءين بحاجة ماسّة إلى نعلين جديدين. أمّا بالنسبة إلى الشقّة، فالمسألة هي أيضًا مسألة ملاحظة واستنتاج. لاحظتُ أنّ قماش كمّ سترتك الأيمن رثٌّ تمامًا. كيف يمكن حدوث هذا ما لم تكن معتادًا صعود سلالم طوابق عدّة، وكمّ سترتك يحتكّ بحاجز حديديّ؟ الأرجح أنّ لمكتبك مصعدًا، على عكس مبنى قديم الطراز قد يكون محلّ سكنك.

توقّف جونز، وبدا لي أنّ هذه المحادثة أتعبته لأنّه استلقى بتثاقل أكبر على عصاه. أمّا أنا فقد أخذت أرمقه بإعجاب لم أحاول إخفاءه، وكنت مستعدًّا لأقف هناك لفترة أطول لو لم يُفتح الباب فجأة ويعود الشرطيّان للظهور. كانا يتكلّمان بالألمانيّة بسرعة، وبرغم أنّني لم أفهم ما يقولان، فقد بدت نبرة صوتهما وديّة بالقدر الكافي، وفهمت أنّهما مستعدّان لمواكبة مبعوث سكوتلانديارد إلى حيث الجثّة. وهذا ما كان. إنتصب جونز واقفًا وبدأ يسير نحو الباب.

– هل أستطيع مكالمتك؟ سألتُه، وأضفتُ: ربّما لديك تعليماتك، حضرة المفتّش جونز. لكن قد يتبيّن أنّ بوسعي مساعدتك. كلّ ما قلته لي، وهذا الشرح الرائع الذي قدّمته، كان صحيحًا تمامًا. تبعتُ موريارتي إلى هنا بسبب تواصل جرى معه منذ ثلاثة أسابيع، وقد تترتّب عليه نتائج مهمّة لك ولي. صحيح أنّني لا أستطيع التعرّف إليه، لكنّه أمر في بالغ الأهمّية أن يُسمح لي على الأقلّ برؤية الجثّة.

تريّث رجل سكوتلانديارد لبعض الوقت، ويده مشدودة على عصاه، ثمّ قال:

– أنت تفهم يا سيدي أنّني أتبع أوامر رؤسائي.

– أعدك بأنّني لن أتدخّل أبدًا.

كان الشرطيّان السويسريّان ينتظراننا. ثمّ اتّخذ جونز قرارًا وأومأ برأسه قائلًا:

– Er kommt mit uns.[4]

[4] بالألمانيّة: سيأتي معنا.

ثم استدار نحوي وقال:

– بإمكانك الانضمام إلينا.

– أنا شديد الامتنان لك، قلت له. وأتعهّد لك بأنّك لن تندم.

تركنا أمتعتي في مركز الشرطة واجتزنا القرية سيرًا على الطريق الرئيسيّ، مارّين ببعض المنازل المبعثرة. طوال الوقت، لم يكفّ جونز وغيسنر عن التحادث بالألمانيّة بصوت منخفض. وصلنا في النهاية إلى كنيسة القدّيس ميخائيل، وهي كناية عن مبنى صغير غريب الشكل ذي سقف أحمر متوهّج وبرج جرس مائل القمّة. فتح لنا الشرطيّان الباب وابتعدا ليسمحا لنا بالدخول. أحنيت رأسي أمام المذبح، ولاحظت أنّ المفتّش جونز لم يحذُ حذوي. وصلنا إلى درج يؤدّي إلى السرداب، وأشار إلى أنّه يودّ النزول معي وحدي. لم يكن غيسنر بحاجة إلى الكثير من الإقناع، فقد بدأت رائحة الموت بالانبعاث حتّى في برودة الكنيسة بجدرانها الحجريّة السميكة.

كانت الجثّة مثلما وصفتُها من قبل. هذا الرجل الممدّد أمامنا كان في خلال حياته طويلًا على نحو غير مألوف، وذا كتفين متقوّستين. قد يتخيّله المرء أمين مكتبة أو محاضرًا في جامعة، وهو ما كان عليه جايمس موريارتي بالفعل في الماضي. إلتصقت به ملابسه السوداء والقديمة الطراز كالطحالب البحريّة – افترضت أنّها لا تزال مبلّلة. تعدّدت أسباب الموت، لكنّ قلّة منها تخلّف على جسد الإنسان أثرًا أسوأ ممّا يخلّفه الغرق. كان لحمه منتفخًا وكريه الرائحة، ولونه أبشع من أن يوصف.

قلتُ:

– لا يمكننا التأكّد من أنّه موريارتي. كنتَ على حقّ تمامًا حين قلت إنّني لا أستطيع التعرّف إليه. لكن هل تستطيع أنت أن تفعل؟

هزّ جونز رأسه، وأجاب:

– لا أنا ولا أيّ من زملائي رآه قطّ. لقد أمضى موريارتي معظم حياته في الظلام، جاعلًا منه شعاره. قد نجد في أثناء بحثنا شخصًا عمل معه حين كان أستاذًا للرياضيّات. تأكّد من أنّني سأحقّق في الأمر حالما أعود. أمّا في الوقت الراهن، فسأكتفي بقول ما أرى: الرجل الذي أمامنا في مثل سنّ موريارتي،

والملابس التي يرتديها إنكليزيّة بلا شكّ. هل ترى ساعة الجيب؟ لها غطاء فضّي، وتحمل بوضوح نقش «جون مايرز من لندن». لم يأتِ إلى هنا ليستمتع بجمال الريف. ولقي وشرلوك هولمز حتفهما في وقت واحد. لذا، أسألك من جديد: مَن قد يكون سوى موريارتي؟

– هل تمّ تفتيش الجثّة؟

– نعم، الشرطة السويسريّة فتّشت الجيوب.

– ألم يجدوا شيئًا؟

– بعض النقود المعدنيّة، ومنديلًا. لا شيء سوى ذلك. ما الذي كنت ترجو العثور عليه؟

كنت أنتظر السؤال، فلم أتردّد. أدركتُ أنّ كلّ شيء، وخصوصًا مستقبلي الفوريّ، رهن بإجابتي. لا أزال حتّى الآن أتخيّلنا نحن الاثنين، واقفين وحدنا في الظلام، والجثّة ممدّدة أمامنا. قلتُ لجونز شارحًا:

– تلقّى موريارتي رسالة في الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين من نيسان، كتبها مجرم تعرفه وكالة بينكرتون جيّدًا، وهو رجل لا يقلّ شرًّا وخطورة عن موريارتي نفسه، يدعوه فيها إلى اجتماع. وحتّى ولو بدا أنّ موريارتي مات، كنت أرجو أن أجد الرسالة على جثّته، أو في محلّ إقامته.

– هل ذاك الرجل، وليس موريارتي، هو مَن يهمّك؟

– هو سبب قدومي إلى هنا.

هزّ جونز رأسه، وأردف:

– شرح لي الرقيب غيسنر أنّ الشرطة أجرت تحقيقًا لكنّها عجزت عن اكتشاف أين أقام موريارتي. لعلّه اتّخذ له مقرًّا في قرية قريبة، وفي تلك الحال لا شكّ بأنّه استخدم اسمًا مزيّفًا. لا يمكننا البحث في أيّ مكان. ما الذي يجعلك تظنّ أنّه ربّما يحمل تلك الرسالة؟

– لعلّي أتعلّق بأيّ خيط واهٍ، أجبته. لا، سأقرّ بالأمر: أنا فعلًا أتعلّق بأيّ خيط واهٍ. لكنّ أسلوب عمل هذا النوع من الأشخاص... إنّهم يستخدمون أحيانًا علامات ورموزًا للتعارف. قد تصبح الرسالة عينها نوعًا من إثبات الهوية. وفي تلك الحال، لا شكّ بأنّ موريارتي سيبقيها قريبة منه.

– يمكننا تفحّص الجثّة مرّة جديدة، إذا أردتَ.

– أظنّ أنّ علينا أن نفعل ذلك.

كانت تلك مهمّة شنيعة. فملمس الجثّة الباردة والممتلئة ماءً فقد كلّ صفة بشريّة بين أيدينا ونحن نقلّبها. وكدنا نشعر باللحم ينسلخ عن العظام. كانت الملابس لزجة. مددت يدي داخل السترة لأجد أنّ القميص انثنى إلى الوراء، ومسّت يدي البشرة البيضاء والميتة. برغم عدم اتّفاقنا مسبقًا على الأمر، فقد ركّزتُ أنا على الجزء الأعلى من الجثّة، فيما انهمك جونز بتفتيش الجزء الأسفل. لم يكن حظّنا بأفضل من حظّ الشرطة، إذ لم نعثر على شيء. كانت الجيوب خالية، وحتى لو أنّها كانت تحوي أشياء أخرى غير التي ذكرها جونز، فلا شكّ بأنّ مياه شلّالات رايشنباخ الهائجة قد انتزعتها. رحنا نعمل بصمت. أخيرًا تراجعتُ، وأنا على وشك أن أتقيأ، وقلت:

– كنتَ على حق. لا يوجد شيء. هذه مضيعة للوقت.

– مهلًا.

رأى جونز شيئًا. ثمّ مدّ يده، وأمسك بسترة الميت، متفحّصًا الحاشية حول جيب الصدر.

– نظرتُ هنا، ولم أجد شيئًا، قلت له.

– ليس في الجيب، قال جونز. أنظر إلى هذا الدرز. لا يجب أن يكون هنا، أظنّه أضيف لاحقًا. ثمّ فرك القماش بين أصابعه، وقال: لعلّ بداخل البطانة شيئًا ما.

انحنيتُ ووجدتُ أنّه على حق. كان ثمّة درز يمتدّ تحت الجيب بسنتيمترات قليلة. قلتُ: «معي سكّين». ثمّ أخرجت مدية الجيب التي أحملها معي دائمًا، وأعطيتها إلى صديقي الجديد.

أدخل جونز طرف المدية في الدرز، وبدأ يقطعه برفق. نظرت إلى الخيط ينقطع ليظهر القماش. كان في سترة الميت جيب سرّيّ. وبالفعل، كان بداخل ذلك الجيب شيء ما. أخرج جونز ورقة مطويّة طيّتين، وكانت رطبة وعلى وشك أن تتفتّت لو لم يتعامل معها بتأنٍّ لا متناهٍ. واستخدم الجهة

العريضة من نصل المدية ليضعها على الطاولة الحجريّة بقرب الجثّة. وبعناية فتح الورقة لتظهر صفحة واحدة تغطّيها كتابة هي أشبه بخطوط الأطفال.

نظرنا إلى الورقة معًا، وهذا ما قرأناه:

لم يكن هولمز بالطبع من الرجال الذين يصعب العيش معهم. فقد كان ذا طبيعة هادئة وعادات طبيعية. ومن النادر أن يبقى خارج سريره بعد الساعة العاشرة في المساء كما حرص بانتظام على أن يتناول فطوره ويغادر المنزل قبل أن أستيقظ في الصباح. في بعض الأحيان كان يمضي نهاره كله في مختبر الكيمياء، وفي أحيان أخرى يمضيه في قاعات التشريح ومن وقت إلى آخر قد يمضي نهاره وهو يسير في نزهات طويلة بدا أنها تؤدي به إلى بعض الأجزاء السفلية من المدينة. أما في الحقيقة فما من شيء كان يضاهي طاقته حين ينكب على العمل الجاد.

إذا كان جونز أصيب بخيبة أمل، فهو لم يُظهرها. لكنّ هذه ليست الرسالة التي وصفتُها. كما أنّها لم تبدُ على علاقة بموضوع التحقيق بأيّة حال من الأحوال.

– ماذا تستنتج منها؟ سألني.

– لا... لا أعرف ما أقول. قرأتُ الكلمات مرة ثانية، وتابعتُ: أعرف هذا النصّ. طبعًا أعرفه. هذا جزء من القصّة التي كتبها الدكتور واطسون. وهي منشورة في مجلّة «ليبينكوت»!

– في الواقع، أظنّها نُشرت في مجلّة «بيتون كريسماس أنيووال»، قال لي جونز مصحّحًا. وهذا النصّ مقتطف من الفصل الثالث من رواية «دراسة باللون الأحمر». لكنّ هذا لا يقلّل من غموض الأمر. وأعتقد أنّه ليس ما توقّعتَه.

– كان هذا آخر ما توقّعتُه.

– إنّه لأمر محيّر جدًّا بالتأكيد. لكنّني أمضيتُ وقتًا طويلًا هنا.أقترح أن نغادر هذا المكان المشؤوم، ونعيد الروح إلينا بكأس من النبيذ.

ألقيتُ نظرة أخيرة على الجثّة الممدّدة فوق طاولة التشريح الحجريّة، ثمّ استدرتُ لنصعد الدرج معًا، وجونز يعرج بشدة.

الفصل الثالث

دوريّة منتصف الليل

حجز أثيلني جونز غرفة في نزل «إنغليشر هوف»، واقترح أن أحذو حذوه. مضينا إلى هناك معًا بعدما افترقنا عن الشرطيّين السويسريّين، سائرين عبر القرية والشمس تسطع في سماء بلا غيوم. كان الصمت مخيّمًا لا يشوبه سوى وقع خطواتنا، وبين الحين والآخر يُسمع قرع نواقيس الأغنام أو المعز التى ترعى في التلال القريبة. كان جونز مستغرقًا يفكّر في الوثيقة التي وجدناها في جيب الرجل الميت. ماذا كان موريارتي يفعل في سويسرا بمقتطف من قصّة شرلوك هولمز، يخفيه في ملابسه؟ ألعلّه كان يحاول سبر خفايا عقل غريمه قبل أن يلتقيا في شلّالات رايشنباخ؟ أم كانت تلك الرسالة هي مضمون التواصل الذي تحدّثتُ عنه، والسبب الذي جعلني أقوم بهذه الرحلة الطويلة إلى سويسرا؟ ألعلّ للرسالة معنى سرّيًا خفي عن كلينا؟ لم يطرح جونز عليّ تلك الأسئلة، لكنّ من الواضح أنّها كانت تشغل باله.

كان الفندق صغيرًا وساحرًا، وله نوافذ تحمل مصاريعها الخشبيّة نقوشًا جميلة، وتتدلّى منها الأزهار. وهو الصورة المثاليّة للنزل السويسريّ الذي قد يحلم كلّ مسافر بالعثور عليه. لحسن الحظّ أنّني وجدتُ فيه غرفة لي، فأرسلوا فتى إلى مركز الشرطة لإحضار أمتعتي. إفترقت عن جونز عند الدرج، وكان يحمل الورقة في يده.

– من بعد إذنك، أودّ الاحتفاظ بها لبعض الوقت.

– أتظنّ أنّ بوسعك أن تعرف منها شيئًا؟

– بوسعي على الأقلّ أن أعيرها اهتمامي الكامل... مَن يدري؟

بدا متعبًا. لم تكن المسافة من مركز الشرطة طويلة، لكنّها، والارتفاع الجبليّ قد أنهكا قواه تمامًا.

– طبعًا، قلتُ له. هل نلتقي مجدّدًا هذا المساء؟

– يمكننا أن نتناول العشاء معًا. لنقُل عند الثامنة؟

– هذا يناسبني تمامًا، حضرة المفتّش جونز. وقبل كلّ شيء آخر، يمنحني الوقت للسير إلى شلّالات رايشنباخ المشهورة. لم أظنّني قطّ سآتي إلى سويسرا. وهذه القرية جميلة حقًّا، وكأنّها تخرج من قصص الجنّيات اللطيفات.

– ربّما في وسعك السؤال عن موريارتي. إن لم ينزل في فندق أو في نزل عائليّ، فلعلّه استأجر غرفة في منزل خاصّ، ولعلّ أحدًا رآه قبل أن يلتقي هولمز.

– ظننتُ أنّ الشرطة السويسريّة قامت بهذه التحقيقات.

– الشرطيّ غيسنر؟ إنّه رجل رائع يقوم بأفضل ما في وسعه. لكن لا ضير في أن تسأل مجدّدًا.

– حسنًا. سأرى ما أستطيع عمله.

فعلتُ ما طُلب إليّ فعله. تنزّهت عبر القرية، متحدّثًا إلى أبنائها ممّن يجيدون لغتي، ولم يكن عددهم بالكثير. ومع ذلك فإنّ ثمّة كلمتين فهمهما الجميع: شرلوك هولمز. فعند ذكر اسمه، كانت تغلب عليهم الجدّية والحيوية. أن يكون رجل كهذا قد زار مايرنغن هو أمر استثنائي، أمّا أن يكون مات هناك فذلك أمر يفوق التصديق. كانوا يرغبون في المساعدة. لكنّ المُحزن أنّ أحدًا منهم لم يرَ موريارتي. ولم يستأجر أيّ غريب غرفة في قريتهم. لم يكن لديهم ما يقدّمونه إليّ غير لغة إنكليزيّة مكسّرة وبعض التعاطف. في النهاية عدتُ إلى غرفتي، فبعد التفكير فقدتُ الرغبة في السير إلى الشلّالات، البعيدة مسافة ساعتين على الأقلّ. والحقيقة أنّني لم أستطع حتّى التفكير فيها بدون أن أرتجف، كما أنّ زيارتها ما كانت لتطلعني على ما لا أعرفه.

تناولتُ وأثيلني جونز العشاء في ساعة متأخّرة من ذلك المساء، وسررتُ برؤيته وقد استعاد قواه. جلسنا معًا في مطعم الفندق المريح،

حيث مُدّت الطاولات في صفوف متقاربة، وعُلّقت على الجدران رؤوس حيوانات، واشتعلت نار موقد هادرة لا تتناسب أبدًا وحجم الصالة، إلّا أنّها كانت ضروريّة، لأنّ ريحًا شديدة البرودة هبّت مع الظلام بين شعاب الجبال وعصفت بالقرية. في النهاية، لا نزال في شهر أيّار فقط، وفي منطقة ارتفاعها نحو سبعمئة متر. كان مرتادو المطعم حولنا قليلين، واخترنا طاولة قريبة من زاوية الموقد ليتسنّى لنا الحديث بلا إزعاج.

رحّبت بنا امرأة صغيرة القامة، متقوّسة الكتفين، ترتدي فستان مطبخ واقيًا ذا كمّين منفوخين وتضع وشاحًا. أحضرت لنا سلّة من الخبز وإبريقًا من النبيذ الأحمر. وبعدما وضعتهما على الطاولة عرّفت عن نفسها قائلة إنّ اسمها غريتا ستايلر، الزوجة السويسريّة للإنكليزيّ صاحب النزل. وقالت لنا شارحة: «ليس لدينا سوى الحساء ولحم البقر المحمّر هذا المساء». كانت تجيد الإنكليزيّة بطلاقة، فرجوتُ أن يكون طعامها مثل كلامها. وأردفتْ تقول: «لا أحد يساعد زوجي في المطبخ اليوم، ومن حظّكما أنّ عدد الزبائن قليل. وإلّا، لا أعرف كيف كنّا لنتدبّر أمرنا».

– ماذا حلّ بطاهيكم؟ سألها جونز.

– ذهب لزيارة والدته في روزنلوي لأنّها كانت مريضة. وكان يُفترَض به العودة منذ نحو أسبوع، لكنّنا لم نسمع منه خبرًا. هو يعمل معنا منذ خمس سنوات! وكلّ هذا يقع وسط بلبلة ما جرى في الشلّالات، والأسئلة التي يطرحها علينا رجال الشرطة والتحرّي. أتشوّق لعودة مايرنغن إلى ما كانت عليه. نحن لا نريد كلّ هذه الجلبة.

إنصرفتْ المرأة بخطوات منهمكة، فصببتُ لنفسي بعض النبيذ، لكنّ جونز رفض مفضّلًا شرب الماء. ثمّ قلت: «الورقة...» كنتُ أتحرّق منذ أن جلسنا لأسأله عمّا فعل بها.

قد أستطيع إلقاء بعض الضوء على المسألة، أجاب جونز. في البداية، تلك الورقة هي على الأرجح مضمون التواصل الذي تحدّثت عنه. ومن المؤكّد أنّ كاتبها أميركيّ.

– أنّى لك أن تعرف؟

– تفحّصتُ الورقة عن كثب ووجدت أنّها من لبّ الخشب المطليّ بالصلصال، ومن المحتمل جدًّا أن تكون أميركيّة الأصل.

– والمحتوى؟

– سنصل إلى ذلك بعد قليل. لكن أوّلًا دعنا نعقد اتّفاقًا. رفع جونز كأسه، وأداره فرأيت انعكاس النار في مائه. وأضاف: أنا هنا أمثّل الشرطة البريطانيّة. حالما سمعنا خبر موت شرلوك هولمز شعرنا أنّ على أحدنا أن يأتي إلى المكان، ولو من باب اللياقة. أنت تدرك بلا شكّ بأنّه قدّم لنا يد العون في عدد من المناسبات. ومن الطبيعيّ أنّ كلّ ما يتعلّق بنشاطات البروفسور جايمس موريارتي يثير اهتمامنا. ما حدث في شلّالات رايشنباخ يبدو بسيطًا نسبيًّا، ومع ذلك فثمّة أمر يُحاك، كما كان السيّد هولمز ليقول. وجودك هنا وإشارتك إلى أنّ موريارتي كان على اتّصال بعضو من عالم الجريمة السريّ في أميركا...

– ليس مجرّد عضو، إنّه سيّدهم.

– ربّما كانت لدينا مصالح مشتركة وعلينا أن نعمل معًا، برغم أنّ عليّ تحذيرك من أنّ سكوتلانديارد تتردّد بعض الشيء في التعامل مع وكالات تحرٍّ أجنبيّة، لا سيّما الخاصّة منها. قد لا يكون هذا أمرًا مفيدًا، لكنّه الواقع. وإذا كان عليّ أن أرفع مسألة تعاونك إلى رؤسائي، فأنا بحاجة إلى معرفة المزيد. باختصار، عليك أن تخبرني كلّ شيء عنك وعن الأحداث التي جاءت بك إلى هنا. يمكنك أن تفعل ذلك بمنتهى الثقة. لكنّ أهمّية ما ستقوله لي هي وحدها التي ستؤثّر في قراري.

– أنا مستعدّ لأن أخبرك كلّ شيء، حضرة المفتّش جونز، قلت له. ولا أخفي أنّني بأمسّ الحاجة إلى أيّة مساعدة يمكنك أنت والشرطة البريطانيّة تقديمها.

توقفت عن الكلام حين عادت السيدة ستايلر إلى الطاولة حاملة قصعتين من حساء الشباتزل يتصاعد منهما البخار، وهي الكلمة التي استخدمتها لوصف العجائن الصغيرة الطافية في سائل بنّي اللون كالوحل، رائحته أفضل من مظهره. ومع تصاعد الرائحة العطرة للدجاج المسلوق بالأعشاب إلى أنفي، بدأت أسرد قصّتي.

– وُلدتُ، كما أخبرتُك من قبل، في بوسطن، حيث كان أبي يملك مكتبًا مرموقًا للمحاماة في ساحة كورت سكوير. ذكريات طفولتي تدور في حضن عائلة مستقيمة في كلّ شيء، يعمل لديها عدّة خدّام ومربّية سوداء – تالي – التي كنت أحبّها كثيرًا.

– هل كنت ولدًا وحيدًا؟

– لا يا سيدي، بل الأصغر بين صبيّين. شقيقي آرثر يكبرني ببضع سنوات، ولم نكن متقاربين قطّ. كان والدي عضوًا في الحزب الجمهوريّ في بوسطن، ويمضي الكثير من وقته محاطًا بسادة يشاطرونه آراءه ويتباهون بالقيم التي حملوها معهم من إنكلترا، ويشعرون بأنّها تجعل منهم نخبة تتميّز عن عامّة الناس. كانوا أعضاء في نادي سومرست ونادي مايوبيا، ونوادٍ كثيرة أخرى. أمّا والدتي، فكانت صحّتها واهية وللأسف، وأمضت وقتًا طويلًا في السرير. في النتيجة، لم أرَ أيًّا من والديّ سوى القليل القليل، ما قد يفسّر لماذا أصبحت في مراهقتي ذا طبع متمرّد، حتّى غادرت أخيرًا المنزل العائليّ في ظروف لا أزال حتّى اليوم نادمًا عليها.

كان شقيقي قد التحق آنذاك بمؤسّسة العائلة، وكان يُتوقّع منّي أن أحذو حذوه. سوى أنّني لم أمتلك القدرة على دراسة القانون. فقد وجدت الكتب جافّة وملأى برموز تكاد لا تُفَكّ. إضافة إلى ذلك، برزت لديّ طموحات أخرى. لا أتذكّر ما كان أوّل ما أثار اهتمامي بعالم الجريمة... لعلّها قصص نُشرت في «ميريز ميوزيوم» وهي مجلّة يقرأها كلّ أطفال حيّنا. لكنّ ثمّة حادثة أخرى أتذكّرها بوضوح تامّ. كنّا أعضاء في رعيّة الكنيسة المعمدانيّة في جادّة وارن. ولم نتخلّف عن حضور أيّ قدّاس، وكان ذلك المكان الوحيد الذي نجتمع فيه كعائلة. وفي نحو عامي العشرين، اكتشفنا أنّ قندلفت الكنيسة، واسمه توماس بايبر، ارتكب سلسلة من الجرائم المروّعة...

– بايبر؟ قال جونز، وقد ضاقت عيناه. أتذكّر اسمه. ضحيّته الأولى كانت فتاة صغيرة...

– صحيح. وقد أثارت القصّة ضجّة واسعة خارج أميركا. أمّا أنا، وفيما سيطرت مشاعر السخط على منطقتي بكاملها، أعترف بأنّني شعرت بالانبهار

أمام قدرة ذلك الرجل على التخفّي بيننا. فغالبًا ما رأيته في ردائه الأسود الطويل، باسمًا ومعطاء على الدوام. إذا كان فعلًا مذنبًا بتلك الجرائم، فهل في مجتمعنا مَن يستطيع حقًّا الزعم بأنّه فوق الشبهات؟

آنذاك عرفت دعوتي في الحياة. عالم المحامين الجافّ لم يكن لي وأردت أن أكون رجل تَحَرٍّ. وكنت قد سمعتُ بوكالة بينكرتون، فقد نالوا شهرة أسطوريّة في أنحاء أميركا كلّها. هكذا، بعد أيّام قليلة من انكشاف تلك الفضيحة، قلت لأبي إنّني أريد السفر إلى نيويورك للالتحاق بهم.

ثمّ صمتُّ. كان جونز يراقبني بقوّة سأكتشفها جيّدًا فيما بعد، وعلمتُ أنّه يزن كلّ كلمة أقولها. كان جزء منّي لا يرغب في أن أفتح له كتاب حياتي بهذا الشكل، لكنّني في الوقت عينه علمتُ بأنّه لن يقبل بأقلّ من ذلك. وتابعتُ:

– كان أبي رجلًا هادئًا ومثقّفًا جدًّا. ولم يسبق له قطّ أن رفع صوته بوجهي، لكنّه فعل ذلك يومئذ. فبالنسبة إلى رجل مرهَف مثله، كان عمل الشرطيّ ورجل التحرّي (ولم يكن يرى فرقًا بين الاثنين)، عملًا منحطًّا ومثيرًا للقرف. توسّل إليّ لأغيّر رأيي، لكنّني رفضت. فتشاجرنا، وفي النهاية رحلت وليس في جيبي أكثر من دولارات قليلة، وليس في نفسي سوى الشعور المتعاظم، بمقدار ابتعادي عن منزلي، بأنّني أرتكب خطأ فادحًا.

إستقلّيتُ القطار إلى نيويورك، ويصعب عليّ أن أنقل إليك انطباعاتي الأولى، وأنا أغادر محطّة غراند سنترال. فقد وجدتُ نفسي في مدينة من الثراء الفاحش والفقر المدقع، من اللياقة المذهلة والنذالة الحقيرة. كانت كلتا الناحيتين تتعايشان متقاربتين جدًّا لدرجة أنّه يكفي أن أدير نظري لأنتقل من واحدة إلى الأخرى. نجحتُ في أن أشقّ طريقي إلى الجهة الشرقيّة السفلى للمدينة، وهي الناحية التي ذكّرتني ببرج بابل، ففيها يعيش البولونيّون، والإيطاليّون، واليهود، والغجر، وكلّ طائفة منهم تتحدّث بلغتها الخاصّة وتحافظ على عاداتها الخاصّة. حتّى روائح الشوارع كانت جديدة بالنسبة إليّ. بعد طفولتي الطويلة والمحميّة، كنت وكأنّني أرى العالم للمرّة الأولى.

لم أجد صعوبة في العثور على غرفة أبيت فيها، فكلّ الأبواب كانت تحمل إعلان «غرف للإيجار». أمضيت ليلتي الأولى في مكان مظلم لا يصله

الهواء، ولا أثاث فيه سوى موقد صغير ومصباح يعمل بالنفط. وأعترف أنّني سررتُ جدًّا بأن أفتح عينيّ وأرى ضوء الفجر الأوّل.

كنت قد فكّرت في تقديم طلب انتساب إلى شرطة نيويورك أوّلًا، ظنًّا منّي أنّ العمل في حفظ القانون سيكسبني بعض الخبرة قبل أن أتقدّم لوظيفة في وكالة بينكرتون. لكنّني سرعان ما اكتشفتُ أنّ تحقيق ذلك مستحيل، فأنا لم أحمل معي أيّة رسائل توصية. كما لا صلات نفوذ لديّ، ومن دون أيّ جهة تدعمني، كان صعبًا بالنسبة إليّ حتّى أن أخطو عبر باب الشرطة. كانت مواردهم ضعيفة، والفساد منتشرًا بينهم. هل قد تفكّر وكالة تحرٍّ شهيرة، مثل «العين التي لا تنام أبدًا»، في توظيف شابّ مغامر ولا خبرة له؟ كانت ثمّة طريقة واحدة لمعرفة الإجابة. مضيتُ توًّا إلى مكتبهم وتقدّمت بطلب الوظيفة.

حالفني الحظّ. فقد كان آلان بينكرتون، أشهر رجل تحرٍّ في أميركا ومؤسّس الشركة، وولداه روبرت ووليام، يبحثون عن متطوّعين للعمل لديهم. قد يفاجئك أن تعرف أنّ الخبرة لدى الشرطة لم تكن من شروط التقدّم للوظيفة. والواقع أنّ العكس كان الصحيح، فكثير من كبار ضبّاط الشرطة في أميركا تعلّموا مهنتهم لدى بينكرتون. النزاهة، الاستقامة، الموثوقيّة... تلك كانت الصفات المهمّة المطلوبة، ووجدتُني أدعى إلى مقابلة عمل، إلى جانب صانعي أحذية ومدرّسين وتجّار نبيذ سابقين، يأملون جميعًا بتحسين أحوالهم من خلال انضمامهم للوكالة. كما أنّ حداثة عمري لم تُعِقني، فقد كنت أجيد تقديم نفسي، ولي إلمام بالقانون. في نهاية اليوم تمّ توظيفي بصفة محقّق خاصّ، للعمل مؤقّتًا لقاء دولارين ونصف في اليوم مع بدل إقامة وطعام. كانت ساعات العمل طويلة، كما قيل لي بوضوح إنّني قد أُصرَف من العمل في أيّ وقت إذا ما كان عملي دون المستوى. لكنّني صمّمتُ على ألّا يحدث هذا.

حرّكتُ حسائي بالملعقة قليلًا. فجأة علت قهقهة رجل يجلس إلى مائدة بعيدة، أظنّه ضحك لدعابة ألقاها هو نفسه. فكّرت أنّه ضحك بطريقة جرمانيّة جدًّا، لكنّ الفكرة كانت سخيفة. تابعت قصّتي:

– سأسرع أكثر في سردي، سيّد جونز، لأنّ قصّة حياتي الخاصّة لن تكون مهمّة بالنسبة إليك.

– على العكس من ذلك، كلّي آذان صاغية.

– لقد وجدوا عملي أكثر من مُرضٍ، وأخذتُ على مرّ السنوات أرتقي في الشركة. كما عدت إلى بوسطن، والتقيت أبي، برغم أنّه لم يسامحني بشكل كامل قطّ. وقد مات منذ سنوات قليلة، تاركًا مكتبه لشقيقي ومبلغًا صغيرًا لي. وقد أثبت ذاك المبلغ فائدته لأنّني، وبرغم أنّني لا أتذمّر، لم أتقاضَ أجرًا كبيرًا قطّ.

– لا أحد ممّن يعملون في تطبيق القانون، في أيّ بلد كان، يكافأ بأجر جيّد حسبما أعلم، قال جونز. بالإمكان القول حتى إنّ الجريمة أجزى مردودًا. بأيّة حال، أعذرني على مقاطعتي إيّاك.

– حقّقتُ في شتّى أنواع الجرائم: النصب، والقتل، والتزوير، والسطو على المصارف واختفاء الأشخاص. وكلّها شائعة في نيويورك. لا يمكنني القول إنّني استخدمتُ الطرق عينها، والذكاء الخارق عينه التي بيّنتَ عنها أمامي صباح اليوم. أنا عنيد في طريقة عملي، وصارم في التدقيق. قد أقرأ مئة إفادة لمئة شاهد قبل أن أجد ملاحظتين متناقضتين تقودانني إلى الحقيقة. وهذا ما أوصلني، أكثر من أيّ شيء آخر، إلى النجاح مرارًا ولفت أنظار رؤسائي إليّ. لكن دعني أخبرك عن تحقيق أوكلتُ به في ربيع العام 1889. كنت أجهل الأمر آنذاك، لكنّ ذلك التحقيق كان السبب الرئيسيّ الذي أوصلني في النهاية إلى هنا.

كان لدينا زبون اسمه وليام أورتون، وهو رئيس «وسترن يونيون». أتى إلينا لأنّ خطوط التلغراف الخاصّة بشركته تمّ اعتراضها، ووُجّهت إلى سوق الأسهم في نيويورك سلسلة من البرقيّات المغلوطة تمامًا والمضرّة، ما أدّى إلى نتائج كارثيّة. فقد وصلت شركات كبرى كثيرة إلى حافّة الإفلاس، ومُني مستثمرون بخسائر بلغت الملايين. كما أنّ رئيس شركة للتنقيب عن المعادن في كولورادو، وبعد تلقّيه إحدى تلك البرقيّات، ذهب إلى غرفة نومه وانتحر بإطلاق النار على نفسه. ظنّ أورتون أنّ ما يجري هو عمل هاوي مقالب شرّير وخالٍ من المشاعر. إقتضى منّي الأمر ثلاثة أشهر وعددًا لا يحصى من المقابلات لأكتشف الحقيقة. الواقع أنّ ما جرى كان نوعًا لافتًا ومبتكرًا

تمامًا من أنواع الاختلاس. فقد أخذت مجموعة من سماسرة البورصة تعمل من خارج وال ستريت، بشراء أسهم الشركات التي تطالها الشائعات، وذلك طبعًا بأسعار متدنّية جدًّا، محقّقين بذلك الثراء. كانت العمليّة تتطلّب برودة أعصاب، وخيالًا، ومكرًا، وتضافرًا لعدد كبيرًا من العقول الإجراميّة. أدركنا توًّا في بينكرتون أنّنا لم نواجه أمرًا كذلك قطّ. في النهاية توصّلنا إلى اعتقال أفراد العصابة. لكنّ رئيسها، وهو العقل المخطِّط للعمليّة كلّها نجح في الفرار من بين أيدينا. كان اسمه كلارنس ديفرو.

يجب أن تدرك أنّ أميركا بلد حديث، ولهذا لا تزال غير متحضّرة في نواحٍ عدّة. في الواقع، لقد صُدمت لدى وصولي إلى نيويورك بعدم احترام القانون، برغم أنّه كان عليّ توقّع ذلك. أنّى لشركة مثل وكالة بينكرتون للتحرّي أن تلقى هذا النجاح الكبير لولا الحاجة إليها؟ كانت الشقّة حيث استأجرتُ غرفة محاطة بالمواخير، ونوادي القمار والحانات حيث يتجمّع المجرمون ويتباهون علنًا بأعمالهم. إلى جانب النصّابين والمزوّرين وسارقي المصارف الذين سبق أن ذكرتُهم لك، يمكنني أن أضيف الأعداد التي لا تُحصى من قطّاع الطرق، الذين يجعلون الخروج ليلًا ضربًا من المخاطرة، والنشّالين الذين يرتكبون جرائمهم بجرأة في وضح النهار.

في كلّ مكان مجرمون: ألف سارق، وألفا عاهرة. لكنّ أمرًا واحدًا كان ينجّينا، وهو أنّهم متفرّقون وغير منظّمين، ويعملون منفردين بشكل عامّ. طبعًا، كانت ثمّة استثناءات. فقد رئس جيم دنلاب وبوب سكوت عصابة عُرفت بـ«الحلقة»، سرقت مبالغ خياليّة وصلت إلى ثلاثة ملايين دولار، عبر السطو على عدّة مصارف في كلّ أنحاء أميركا. كما أنّ عصابات أخرى مثل «الأرانب الميتة» و«فتيان بويري» كانت تتشكّل ثمّ ينفرط عقدها. وفي بالتيمور ظهرت عصابة «الأشقياء البشعون». قرأت الملفّات كلّها. لكنّ كلارنس ديفرو كان أوّل رجل يرى حسنات تأسيس شبكة إجراميّة ممتدّة لها قواعد سلوكها الخاصّة بها وسلسلة قيادة متمرّسة تمامًا. سمعنا باسمه للمرة الأولى في قضيّة «وسترن يونيون»، لكنّه آنذاك كان قد رسّخ لنفسه شهرة بأنّه ألمع مجرمي عصره وأثراهم.

– وذاك الرجل هو سبب قدومك إلى هنا؟ سألني جونز. أهو كاتب الرسالة الموجّهة إلى البروفسور موريارتي الراحل؟

– أعتقد ذلك، نعم.

– أرجو أن تتابع روايتك.

لم أكن قد ذقت حسائي حتى، ورأيتُ جونز لا يزال يراقبني باهتمام شديد. كانت تلك وجبة طعام غريبة، رجلان أجنبيّان في مطعم سويسريّ، ولا أحد منهما يأكل شيئًا. تساءلت كم من الوقت مرّ منذ بدأتُ بسرد روايتي. في الخارج، بدا الليل شديد الحلكة، وكانت ألسنة اللهب تفرقع في الموقد. تابعتُ أقول:

– آنذاك، كنت قد رُقّيت إلى منصب محقّق أعلى. وكلّفني روبرت بينكرتون شخصيًّا مهمّة اعتقال ديفرو. عُهد إليّ بفريق خاصّ يتألّف من ثلاثة محقّقين وأمين صندوق، وسكرتيرة، وكاتبتَي اختزال، وساعٍ. وبات هذا الفريق يسمّى «دوريّة منتصف الليل»، نظرًا إلى ساعات العمل الطويلة التي كنّا نقوم بها. إمتلأ مكتبنا الذي كان في قبو المبنى بالرسائل، كما تغطّت جدراننا الأربعة تمامًا بصور المجرمين. كانت التقارير تُرسل إلينا من شيكاغو، وواشنطن، وفيلادلفيا. ورحنا شيئًا شيئًا، وبشكل ممنهج، نتفحّص مئات الصفحات. كانت تلك مهمّة مضنية، إلّا أنّ وجهًا بدأ يتّخذ شكلًا مع بداية هذا العام... حسنًا، ليس وجهًا، بل هو حضور.

– كلارنس ديفرو.

– لا يمكنني الجزم حتّى بأنّ هذا هو اسمه الحقيقيّ. فهو لم يُرَ قطّ. لا رسم له ولا صورة فوتوغرافية. يُقال إنّ له من العمر نحو أربعين عامًا، وإنّه قدم إلى أميركا من أوروبا، من عائلة ميسورة، وإنّه فاتن وذو ثقافة عالية ومحبّ للناس. نعم، أرى أنّك أجفلت. لكنّني أعلم أنّه قدّم مبالغ ماليّة طائلة لمأوى خاصّ بالأطفال اللقطاء في نيويورك، ولمأوى آخر للمشرّدين. كما وهب جامعة هارفرد منحة دراسيّة، وكان أحد المتبرّعين المؤسّسين في أوبرا متروبوليتان.

ومع ذلك، ليس في أميركا كلّها رجل يفوقه شرًّا. كلارنس ديفرو مجرم ليس كالمجرمين الآخرين، فهو عديم الرحمة تمامًا، يزرع الخشية في الأوغاد

الذين يعملون بإمرته كما في ضحاياه الذين دمّر حياتهم. لا نذالة أحطّ من نذالته ولا رذيلة أسوأ من رذيلته. والواقع أنّه يستمتع كثيرًا بتنظيم خططه المتنوّعة وتنفيذها، لدرجة أنّنا حُملنا على الاعتقاد بأنّ هدفه من ارتكاب جرائمه هو التسلية بقدر ما هو جني الأرباح. فهو في النهاية بلغ الثراء، وبات رجلًا استعراضيًا، و سيّدًا لحلبة، يُنزل البؤس بكلّ مَن يلمسه، ويترك بصماته الدامية حيثما ذهب.

لقد درستُه، ولاحقتُه. هو يمثّل كلّ ما أشمئزّ منه وأستفظعه، ووضع حدّ لنشاطه سيكون تتويجًا لسيرتي المهنيّة. مع ذلك فهو أبعد من أن أطاله. أشعر أحيانًا بأنّه يعرف كلّ خطوة أخطوها، وأنّه يتلاعب بي. كلارنس ديفرو حذر جدًّا في أسلوبه، ويتخفّى بهويّته المزوّرة. وهو لا يكشف نفسه أو يعرّضها إلى الخطر أبدًا. وحين يخطّط لارتكاب جريمة، كالسطو على مصرف، أو السرقة، أو القتل، يدرس تفاصيلها جيّدًا، ويجنّد لها الفاعلين، ويأخذ غنائمها، غير أنّه لا يقترب منها أبدًا، ويبقى خفيًّا. لكنّ له سمة قد تساعدني في أحد الأيّام على التعرّف إليه. يُقال إنّه يعاني حالة نفسيّة غريبة تدعى رهاب الساحات، أي الخوف المرضيّ من الأماكن المفتوحة والعامّة. لذلك فهو لا يخرج أبدًا من الحجرات المغلقة، ولا يسافر إلّا بعربات مغطّاة.

وهناك أمر آخر. خلال عملنا، استطعنا اقتفاء أثر ثلاثة رجال عرفوا هويّته الحقيقيّة ومن شبه المؤكّد أنّهم عملوا لحسابه. وهم مساعدوه وحرّاسه الأقرب إليه، الذين لم يبتعدوا عن فلكه. وهم أي الثلاثة، من عُتاة المجرمين. إثنان منهم شقيقان، إدغار وليلاند مورتلايك. والثالث بدأ حياته نشّالًا صغيرًا، لكنّه سرعان ما ارتقى إلى فتح الخزنات والسرقات الكبرى. واسمه سكوتشي لافيل.

– ألا تستطيعون القبض عليهم؟

– قبضنا عليهم مرّات كثيرة. وكلّهم خرّيجو سجنَي «سينغ سينغ» و«المقبرة»، لكنّهم حرصوا في السنوات الأخيرة على إبقاء أيديهم نظيفة. ويدّعون أنّهم باتوا رجال أعمال محترمين، ولا نملك أدلّة لإثبات العكس. القبض عليهم من جديد لن يكون مفيدًا في شيء. لقد استجوبتهم الشرطة

مرّات عدّة، لكنّ شيئًا في العالم لا يستطيع حملهم على الكلام. إنّهم يمثّلون السلالة الجديدة من رجال العصابات، أي أكثر ما نخشاه في وكالة بينكرتون. فهم لم يعودوا يخافون القانون، بل يظنّون أنفسهم فوقه.

– هل التقيتَهم؟

– راقبتُهم كلّهم من بعيد، عبر شبكة من الشريط المعدنيّ. ظننتُ دائمًا أنّ علينا أن نبقى غير معروفين. إذا استطاع ديفرو أن يخفي وجهه عنّي، فمن المنصف أن أبادله بالمثل.

مرّت بنا السيدة ستايلر ووضعت حطبة أخرى في الموقد برغم أنّ حرارة المطعم أصبحت خانقة. إنتظرت أن تغادرنا، حتّى أكمل روايتي:

– أمضينا عامين في تقصّي كلارنس ديفرو، من غير أن ندرك نجاحًا كبيرًا. لكنّنا ومنذ أشهر قليلة حقّقنا اختراقًا. كان أحد المحقّقين العاملين في فريقي شابًّا يدعى جوناثان بيلغريم.

– أعرف هذا الاسم أيضًا، تمتم جونز.

– كان فقط في العشرينيّات من عمره حين التقيته، وذكّرتني حماسته ولياقته بنفسي حين كنت بمثل سنّه. كان رجلًا مميّزًا أتى إلينا من الغرب، وعازف تشيلو ممتازًا، ولاعب بايسبول أيضًا. رأيتُه مرّة يلعب في حديقة بلومنغدايل. في عامه التاسع عشر، رافق قطيعًا من الجياد مسافة تزيد عن ألف وخمسمئة كيلومتر عبر سهول تكساس، كما أنّه خبِر مزارع الخيول والمناجم. وعمل حتّى لبعض الوقت على متن المراكب النهرية. إنضمّ إلى فريقنا في نيويورك، ونجح منفردًا في التقرّب من ليلاند مورتلايك. لنقُل فقط إنّ كبير الشقيقين يستمتع دائمًا بصحبة الفتيان الوسيمين. ولقد كان ج. ب.[1] بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وسيمًا جدًّا. فأصبح سكرتير مورتلايك ورفيقه في السفر. وكانا يتناولان العشاء معًا، ويرتادان المسرح والأوبرا ويقضيان الوقت في الحانات. وفي شهر كانون الثاني، أعلن مورتلايك أنّه ينوي الانتقال للسكن في لندن، ودعا ج. ب. إلى مرافقته.

[1] جوناثان بيلغريم.

كانت تلك فرصة رائعة. فلدينا عميل بداخل العصابة، وبرغم أنّ جوناثان لم يلتقِ ديفرو وجهًا لوجه قطّ – وكم كانت مهمّتنا لتسهل لو حدث ذلك – فقد كان يستطيع الوصول إلى الكثير من مراسلات مورتلايك. ومع أنّ ذلك يعرّضه إلى خطر شخصيّ كبير، فقد كان يسترق السمع إلى المحادثات، ويراقب كلّ مَن يأتي ويذهب، ويسجّل الكثير من الملاحظات حول أعمال العصابة. إعتدتُ لقاءه سرًّا في الأحد الثالث من كلّ شهر في «هايماركت»، وهي قاعة للرقص في الشارع الثلاثين، فيفيدني بكلّ ما يعلمه.

عرفتُ منه أنّ كلارنس ديفرو، وبرغم سلطته المطلقة تقريبًا على عالم الجريمة الأميركيّ، ظلّ يشعر بأنّ ذلك غير كافٍ بالنسبة إليه. فحوّل اهتمامه إلى إنكلترا، واتّصل ببروفسور يدعى جايمس موريارتي مستكشفًا إمكانيّة إنشاء ما يمكن تسميته بتحالفٍ عبر الأطلسيّ. أيمكنك أن تتخيّل ذلك، حضرة المفتّش جونز؟ رابطة إجراميّة تمتدّ مجسّاتها من الساحل الغربيّ لكاليفورنيا إلى قلب أوروبّا! إتّحاد عالميّ. إجتماع اثنين من العباقرة الأشرار.

– هل كنت على علم بأمر موريارتي؟

– بالاسم والشهرة، بالتأكيد. برغم أنّ سكوتلانديارد غير متعاونة دائمًا في علاقتها بوكالة بينكرتون للأسف، إلّا أنّ لدينا صلاتنا في أوساط شرطة نيويورك، كما مع الدرك البلجيكيّ والأمن العامّ الفرنسيّ. كنّا دائمي الخشية من أن يتّجه موريارتي غربًا في أحد الأيّام، لكن يبدو أنّ نقيض ذلك تمامًا هو ما حدث.

مع بداية العام الجديد، كان سكوتشي لافيل وليلاند مورتلايك وإدغار مورتلايك قد استقرّوا في لندن. سافر جوناثان معهم، وبعد أسابيع قليلة أرسل إلينا برقيّة تقول إنّ كلارنس ديفرو انضمّ إليهم. ذلك تحديدًا هو ما كنّا نتوقّعه. فليس في لندن أثرياء أميركيّون كثيرون لهم من العمر أربعون عامًا. كما أنّ الرهاب الذي يعانيه، إذا ما كان حقيقيًا، قد يساعدنا على التعرّف إليه. في الحال، استحصلت «دوريّة منتصف الليل» على لوائح بأسماء ركّاب كلّ البواخر التي أبحرت من أميركا إلى إنكلترا في الشهر الفائت. وبرغم جسامة المهمّة – كانت الأسماء بالمئات – اعتقدنا أنّ بوسعنا حصر الاحتمالات. فما

لم يجد ديفرو طريقة للطيران، فلا بدّ من أن يكون بين أولئك الركّاب، وعملنا ليل نهار من أجل العثور عليه.

في أثناء ذلك، تلقّينا برقيّة ثانية من جوناثان بيلغريم تعلمنا بأنّه قام شخصيًا بتسليم رسالة إلى موريارتي لترتيب لقاء بينه وبين ديفرو. نعم! لقد التقى عميلنا موريارتي. لكن في اليوم التالي، وقبل أن يستطيع إخبارنا تفاصيل ما حدث، حلّت المأساة. لا بدّ من أنّ العصابة اكتشفت أمر جوناثان، ولعلّ برقيّته الأخيرة هي التي فضحته. بأيّة حال، فقد قُتل جوناثان بطريقة وحشيّة.

– لقد قُيِّد وأُطلقت عليه النار. أتذكّر التقرير.

– نعم، حضرة المفتّش. كان ذلك أقرب إلى الإعدام منه إلى القتل. تلك عادة عصابات نيويورك في التعامل مع الوُشاة.

– وبرغم ذلك، تبعتَه عبر المحيط الأطلسيّ.

– إعتقدت أنّ العثور على ديفرو في لندن أسهل منه في نيويورك، كما خطر لي أنّني إذا تمكّنت من معرفة زمان ومكان الاجتماع بين ديفرو وموريارتي، فسأصيب عصفورين بحجر واحد. أعني بذلك اعتقال اثنين من أكبر مجرمي العالم بضربة واحدة.

يمكنك أن تتخيّل خيبة أملي حين نزلت من السفينة، ووطئت للمرّة الأولى أرضًا إنكليزيّة لأقرأ عناوين الجرائد... «موت موريارتي احتمال مرجّح جدًّا». كان ذلك في السابع من أيّار. في الحال فكّرت في المجيء إلى مايرنغن، وهي قرية لم أسمع باسمها قطّ، في بلد لم أزره قطّ. لماذا؟ بسبب الرسالة. إن كان موريارتي يحتفظ بها، فقد تقودني إلى ديفرو. لقد خطر ببالي حتّى أنّ ديفرو قد يكون هنا، وأنّ لحضوره صلة ما بما حدث في شلّالات رايشنباخ. بأيّة حال، لم يكن البقاء في ساوثهامبتون مجديًا. فسافرت في أوّل قطار يتّجه إلى باريس، وبعد ذلك إلى سويسرا. وهذا الصباح، كنت أحاول نيل بعض التعاون من الشرطة السويسريّة – من دون كبير نجاح – حين التقيتُك.

ثمّ صمتُّ. كان الأوان قد فات لأتناول حسائي الذي برد في خلال سردي الطويل. بدلًا منه، احتسيتُ جرعة نبيذ كان مذاقها حلوًا وثقيلًا على شفتيّ. أصغى المفتّش جونز إلى قصّتي الطويلة وكأنّنا وحدنا في ذلك المطعم.

وعلمتُ أنّه استوعب كلّ تفصيل، من غير أن يفوته شيء، وأنّه قادر على أن يستعيد كلّ ما قلته إذا ما طُلب إليه ذلك. ومع ذلك لم يخلُ الأمر من جهد يبذله. فقد سبق أن رأيتُ فيه رَجلًا يُلزم نفسه بمعايير التفوّق، لكنّه لا يبلغها إلّا بالمثابرة والشجاعة، وكأنّه في حرب مع ذاته.

– هل تعرف أين كان مخبرك بيلغريم يقيم؟

– إستأجر جناحًا في نادي «بوسطنيان». أعتقد أنّه في ناحية من لندن تُدعى مايفير. نقطة ضعفه الوحيدة كعميل هي أنّه كان مستقلًا في تفكيره. وهو لم يخبرنا إلّا القليل القليل، ولا شكّ عندي بأنّه لم يخلّف وراءه شيئًا.

– ماذا عن الآخرين؟ الشقيقان مورتلايك وسكوتشي لافيل؟

– بحسب علمي، لا يزالون في لندن.

– أنت تعرفهم، وتعرف مظهرهم. ألا يمكنك الإفادة منهم للوصول إلى ديفرو؟

– إنّهم شديدو الحذر. وإذا ما التقوا، ففي مكان سرّيّ وخلف أبواب مغلقة. ولا يتواصلون إلّا بالبرقيّات وبواسطة رموز سريّة.

فكّر جونز في ما قلته له. أمّا أنا فنظرتُ إلى ألسنة النيران تلتهم الحطب في الموقد، بانتظار أن يتكلّم مجددًا. في النهاية قال:

– قصّتك مهمّة جدًّا. ولا أرى سببًا يحول دون أن أقدّم لك يد المساعدة. لكنّني أعتقد أنّ الأوان فات.

– لماذا؟

– بعد موت موريارتي، لماذا قد يرغب كلارنس ديفرو في البقاء في لندن؟

– لأنّها قد تكون فرصة له. كان ديفرو يقترح على موريارتي نوعًا من الشركة. وبموت الأخير، قد يؤول كلّ شيء إلى ديفرو وحده. يمكنه أن يرث عصابة موريارتي بكاملها.

ظهرت على وجه جونز تكشيرة، وقال ملاحظًا:

– لقد اعتقلنا كلّ أفراد العصابة تقريبًا قبل وصول البروفسور موريارتي إلى مايرنغن. كما أنّ شرلوك هولمز نفسه ترك ظرفًا يحتوي هويّات كثيرين من

شركائه وعناوينهم. لعلّ كلارنس ديفرو أتى إلى إنكلترا بحثًا عن شريك عمل، لكنّه لن يلبث أن يكتشف أنّ رحلته كانت بلا جدوى. وأخشى أنّ الأمر عينه يصحّ بالنسبة إليك.

– أنت قلت إنّ الرسالة التي وجدناها في جيب موريارتي قد تلقي بعض الضوء على القضيّة.

– صحيح.

– هل حللت لغزها؟

– نعم.

– إذًا بربّك أخبرني! لعلّ موريارتي مات، لكنّ من المؤكّد أنّ كلارنس ديفرو لم يمت. وإذا كان هناك ما نستطيع، أنا أو أنت، عمله لتخليص العالم من هذا المخلوق الشرّير، فعلينا ألّا نتردّد.

أنهى جونز حساءه، وأزاح القصعة جانبًا مفسحًا مكانًا على المائدة. ثمّ أخرج الورقة وفتحها ومدّها أمامي. بدا لي أنّ المطعم أصبح أكثر هدوءًا فجأة. كانت الشموع تلقي ظلالًا قاتمة ومرتعشة على الموائد، وامتدّت رؤوس الحيوانات نحونا وكأنّها تحاول أن تنصت.

مرّة جديدة، قرأت الفقرة المكتوبة بخليط عجيب من الحروف الكبيرة والصغيرة. وسألني جونز:

– ألا تبدو لك منطقيّة؟

– لا، على الإطلاق.

– إذًا دعني أشرح لك.

الفصل الرابع

الرسالة

لم يكن هولمز بالطبع من الرجال الذين يصعب العيش معهم. فقد كان ذا طبيعة هادئة وعادات طبيعية. ومن النادر أن يبقى خارج سريره بعد الساعة العاشرة في المساء كما حرص بانتظام على أن يتناول فطوره ويغادر المنزل قبل أن أستيقظ في الصباح. في بعض الأحيان كان يمضي نهاره كله في مختبر الكيمياء، وفي أحيان أخرى يمضيه في قاعات التشريح ومن وقت إلى آخر قد يمضي نهاره وهو يسير في نزهات طويلة بدا أنها تؤدي به إلى بعض الأجزاء السفلية من المدينة. أما في الحقيقة فما من شيء كان يضاهي طاقته حين ينكب على العمل الجاد.

سألتُه:

– أتعتقد حقًّا أنّ في هذه الورقة نوعًا من الرسائل السريّة؟

– أنا لا أعتقد ذلك فقط، بل أنا متأكّد كلّ التأكيد.

أخذتُ الورقة وحملتها أمام الضوء. وسألت:

– ألعلّها مكتوبة بحبر سريّ؟

إبتسم جونز، واستعاد الورقة ووضعها بيننا على شرشف المائدة الأبيض. عند تلك المرحلة، كنّا قد نسينا عشاءنا تمامًا. وقال:

– لعلّك تدرك أنّ السيّد شرلوك هولمز كتب بحثًا حول الرموز والكتابات السريّة.

– لا علم لي بذلك، قلتُ.

– قرأتُه، مثلما قرأت كلّ ما سمح، وبسخاء منه، باطّلاع الجمهور عليه. يتناول ذلك البحث ما لا يقلّ عن مئة وستّين نوعًا من الاتّصالات المرمّزة، وخصوصًا، الطرق التي استطاع بواسطتها فكّ رموزها.

– أعذرني، حضرة المفتّش، قاطعته. مهما كانت أهميّة هذه الرسالة، لا يمكنها أن تكون مكتوبة بالرموز. كلانا تعرّف إلى مضمونها، وأنت قلت ذلك. جون واطسون هو مَن كتب كلّ حرف منها.

– هذا صحيح، لكنّ لها ما يميّزها طبعًا. لماذا برأيك نُسخت بهذا الشكل؟ لماذا تكبّد كاتبها هذا العناء كلّه في كتابته النصّ؟

– أظنّ الأمر واضحًا. لإخفاء خطّ يده.

– لا أظنّ ذلك. ففي النهاية، كان موريارتي يعرف ممّن تأتي الرسالة. لذا لم يكن من داعٍ للتخفّي. لا. أعتقد أنّ الحروف الكبيرة والحروف الصغيرة هي في قلب اللغز، وأنّ ترتيبها على هذا النحو ليس صدفة. وفي الحال أدركتُ أنّ النصّ كُتب بطريقة متأنّية ومنهجيّة. يمكنك أن ترى أثر القلم العميق في الورقة. إنّه أكثر من تمرين في الخطّ. إنّها محاولة متعمّدة لإيصال شيء إلى موريارتي يجب أن يبقى سرًّا بحال وقع في أيدٍ غير مناسبة.

– أي أنّها تحمل رموزًا.

– صحيح تمامًا.

– وأنت استطعت فكّها!

– بعد محاولات وإخفاقات عدّة، نعم، قال جونز موافقًا. لكنّني لا أنسب إلى نفسي فضلًا، فأنا فقط اتّبعت المبادئ التي وضعها هولمز.

– إذًا، ماذا تقول الرسالة؟ ألقيت نظرة أخرى على الورقة، وسألته: ماذا يمكنها أن تقول؟

– سأشرح لك يا تشايس. أعذرني على مخاطبتك بدون لقب، لكنّني بدأتُ أظنّنا اتّحدنا، أنت وأنا، في مسعى مشترك.

– أرجو ذلك من كل قلبي.

– ممتاز. كما قلتَ، الحروف وحدها لا يمكنها أن تعني شيئًا لأنّها استعادة حرفيّة للنصّ الذي كتبه الدكتور واطسون. هكذا، يبقى لنا ما يبدو أنّها مجموعة من الحروف الكبيرة والصغيرة، المبعثرة عشوائيًا. لكن، فلنفترض أنّ توزيعها ليس عشوائيًا. في الصفحة ثلاثمئة وتسعون حرفًا. وهذا بحدّ ذاته عدد مهمّ جدًّا لأنّه قابل للقسمة على خمسة. لذا فلنبدأ بتقسيم الحروف على مجموعات من خمسة أحرف...

– مهلًا. العدد قابل أيضًا للقسمة على ستّة.

– القسمة على ستّة تعطينا مجموعات أكثر بكثير ممّا هو مطلوب، قال عابسًا. بأيّة حال، جرّبتُ القسمة على ستّة ولم أنجح. جرّبتُ وفشلتُ. لستُ شرلوك هولمز، ومن الضروريّ أحيانًا سلوك الطريق الأطول. أخذ ورقة ثانية، ووضعها بجانب الأولى، وتابع يقول: علينا أن نتجاهل مسافات الفصل بين الكلمات. علينا أن نتجاهل كلّ ما سوى مسألة كون الحرف كبيرًا أو صغيرًا. وبتلك الحال، سيبدو النصّ على هذا النحو:

ك.ص.ك.ص.ك ك.ك.ص.ك.ك ص.ك.ص.ك.ص ك.ك.ك.ك.ك
ص.ك.ك.ك.ك ك.ص.ك.ص.ص ك.ص.ك.ص.ص ص.ك.ص.ك.ص
ك.ك.ص.ك.ك ص.ص.ك.ص.ك ص.ك.ص.ك.ص ك.ك.ص.ك.ك
ك.ك.ص.ص.ص ص.ص.ص.ص.ص ك.ك.ص.ك.ك
ص.ك.ص.ك.ك ك.ص.ص.ص.ك ص.ص.ك.ص.ك
ص.ك.ك.ك.ك ص.ك.ك.ك.ك ص.ك.ص.ك.ك ص.ص.ك.ص.ك
ص.ك.ك.ك.ك ص.ص.ص.ص.ص ص.ك.ص.ك.ك
ص.ك.ص.ك.ك ك.ك.ك.ص.ص ص.ك.ك.ك.ك ص.ص.ص.ك.ك
ص.ص.ص.ص.ص ك.ك.ك.ك.ك ص.ك.ك.ك.ك ك.ك.ص.ك.ك
ص.ك.ص.ك.ص ك.ص.ص.ص.ك ص.ص.ص.ص.ص
ك.ك.ك.ص.ك ك.ك.ك.ص.ك ص.ك.ص.ك.ص ك.ك.ص.ك.ص
ص.ص.ك.ك.ك ص.ك.ص.ك.ص ك.ك.ص.ك.ص
ص.ك.ص.ك.ص ك.ك.ص.ك.ص ص.ك.ك.ك.ك
ص.ك.ص.ك.ص ص.ص.ص.ك.ك ك.ك.ك.ص.ك

ص.ك.ص.ك.ص ص.ص.ص.ك.ك ص.ص.ص.ك.ص
ص.ص.ك.ص.ك ص.ص.ص.ص.ص ك.ص.ص.ص.ك
ص.ك.ص.ك.ك ك.ك.ك.ص.ص ص.ك.ك.ك.ك ص.ك.ص.ك.ك
ك.ص.ك.ك.ص ص.ك.ك.ك.ك ك.ك.ك.ص.ك ك.ك.ك.ك.ك
ص.ك.ص.ك.ك ك.ك.ك.ص.ص ك.ص.ك.ك.ص ص.ك.ك.ك.ك
ص.ص.ص.ص.ص ك.ك.ص.ك.ك ص.ص.ص.ص.ص
ك.ك.ص.ك.ك ص.ك.ك.ك.ك ص.ص.ك.ك.ك ص.ك.ص.ك.ك
ص.ك.ك.ص.ك ك.ك.ك.ص.ك ك.ك.ص.ص.ص ك.ص.ك.ص.ك

كان جونز قد كتب مجموعات الأحرف بعناية على الصفحة. نظرتُ إليها ثمّ هتفتُ:

– هذا نظام التلغراف الكهربائيّ!

– إنّه شيء شبيه جدًّا به، قال المحقّق موافقًا. وأضاف: كنظام مورس، وكلّ مجموعة تمثّل حرفًا واحدًا! وسترى يا تشايس أنّ بعض المجموعات تتكرّر. فمثلًا، «ص.ك.ك.ك.ك» تظهر إحدى عشرة مرّة.

– أهي تدلّ إلى حرف علّة؟

– بشكل شبه مؤكّد، كما أنّ «ص.ص.ص.ص.ص» قد تكون حرف علّة آخر، فهي تظهر سبع مرّات. لكنّ عرض المجموعات على هذا النحو يجعلها غير مفهومة. لذا كانت خطوتي التالية تخصيص رقم لكلٍّ منها، وهو ما يسهّل علينا أن نرى ما أمام أعيننا. وقد ساعدنا أنّ تسعة عشر حرفًا فقط من الأبجديّة قد استُعملت في الرسالة.

ثمّ أخذ ورقة ثالثة، وكتب عليها:

8 7 3 2 8 13 12 6 8 11 8 7 10 4 8 3 7 9 2 8 7 2 3 6 2 3 5 4 3 2 1
6 2 18 15 7 10 8 17 11 8 7 4 9 14 16 8 3 11 8 14 10 15 10 13 10 11 11
8 8 2 6 16 17 11 3 9 9 2 13 19 11 6 16 8 3 2 8 7 8 10

وقال لي شارحًا:

– كلّ رقم يشير إلى مجموعة. وهكذا فإنّ 1 يشير إلى «ك.ص.ك.ص.ك»، و2 يشير إلى «ك.ك.ص.ك.ك»، وهلمّ جرًّا...

– أرى هذا، نعم.

– وماذا تستنتج؟

لقد اختلف أثيلني جونز كثيرًا عن الرجل الذي رأيتُه من قبل، مرهقًا بالسير من الكنيسة. الآن، كان مستحيلًا ألّا يلاحظ المرء الطاقة المنبعثة منه والإثارة المتوهّجة في عينيه.

– كل رقم يمثّل حرفًا واحدًا، قلتُ له. لكنّ عدد الأرقام كبير، تسعة عشر رقمًا، كما قلتَ. كما أنّ غياب مسافات الفصل بين الكلمات لا يساعدنا. ولا يمكننا أن نعرف أين تنتهي كلمة وأين تبدأ الأخرى.

– هذا صحيح، قال جونز موافقًا. لكنّنا على الأقلّ نستطيع أن نرى أيّة أرقام – 3، 2، 8، مثلًا – يتكرّر ظهورها. لا بدّ من أنّها أحرف العلّة، أو ربّما الحروف الأخرى الأكثر استعمالًا كالتاء أو الراء، أو النون مثلًا. لسوء الحظّ، أنت محقّ حين تقول إننا ومن دون مسافات الفصل، لا يمكننا رؤية أشكال الكلمات الشائعة مثل «إلى» أو «في». وهذا أمر يعيقنا كثيرًا.

– كيف استطعتَ أن تكمل؟

– بمزيج من الدأب والحظّ الحسن. بدأتُ بالتساؤل عمّا إذا كانت في الرسالة كلمة واحدة أستطيع التعرّف إليها من شكلها. وفكّرتُ في كلمات عدّة، مثل شرلوك هولمز وبينكرتون. لكنّ رأيي استقرّ في النهاية على موريارتي. إذا كان هو مَن أُرسِلت هذه الرسالة إليه، فمن المنطقيّ افتراض احتمال ظهور اسمه. لذلك فتّشتُ عن سلسلة من ثمانية أرقام يتكرّر فيها رقم واحد فقط في الموقعين الثالث والسادس، كما يتكرّر حرف الراء في موريارتي[1]. مثلًا، في بداية الرسالة، نقع على مجموعة 6 6 3 2 7 3 2 8، وقد يشير الرقم 3 إلى الراء. لكنّ الكلمة لا يمكنها أن تكون موريارتي بسبب تتالي 6 مرّتين، وتكرار 2. وفي مكان لاحق من النصّ نجد 10 14 8 11 3 8 16 14 حيث الرقم 8 قد يدلّ إلى الراء. ولكنّ تكرار الرقم 14 يظهر أنّنا على خطأ.

[1] ملاحظة المترجم: منعًا للالتباس: تُكتب موريارتي بالإنكليزية على هذا النحو: MORIARTY، أي أنّ الياء تشير في المرّة الأولى إلى I، وفي الثانية إلى Y، فلا يجوز اعتبارها هنا حرفًا واحدًا.

والواقع أنّ الصيغة الصحيحة لا تظهر في الرسالة كلّها إلّا مرّة واحدة فقط، بالقرب من بداية السطر الأوّل، حيث لدينا 6 3 2 7 8 2 9 7. وفي هذه الحال، يشير الرقم 2 إلى الراء ولا يتكرّر أيّ حرف آخر[2]، كما في اسم الرجل. وإذا افترضنا أنّ هذا التسلسل يشير إلى **موريارتي**، يحدث أمر مثير جدًّا للاهتمام. فإذا ما تفحّصنا الأحرف التي تظهر قبله، هذا ما نقرأه:

1 ر و 4 5 و ر

– قد تكون هذه أكثر من كلمة واحدة، قلت له.

– لكنّني لا أظنّها أكثر من كلمة، أجابني. وأضاف: انظر إلى تكرار الراء وتكرار الواو. بالنسبة إليّ، لا توجد سوى كلمة واحدة لها هذا الشكل. فكّر أيضًا في السياق. إنّه لقب لمخاطبة مَن أُرسِلت هذه الرسالة إليه.

– «بروفسور!» هتفتُ.

– تمامًا. بروفسور موريارتي. إنّهما الكلمتان الأولى والثانية من الرسالة. وانطلاقًا من هذه المعلومة، يظهر عدد أكبر من الأحرف التي تتضمّنها هذه الرسالة المرمّزة.

بروفسور موريارتي، و ا ف 10 ي إ 11 ى م 12 13 ى ر و ي ا 11 11 10 13 ن، 15 10 14 ا 11 و ا 16 14 ة ف ي ا 11 17 ا 10 ي 15 18 ر م 10 أ ي ا ر و ا 16 م 11 19 13 ر ة ت و 11 ي ب 16 م ر ا ء

– بروفسور موريارتي، وافِ... بدأتُ بالقراءة، ثمّ تعثّر صوتي. وأضفتُ: لا يوجد الكثير بعد ذلك.

– لا أوافقك الرأي. «وافِ» تتبعها 10 ثمّ الياء، وبعد ذلك حرفا ألف يتوسّطهما الرقم 11. أيّ عبارة هذه سوى «وافِني إلى»؟ ثمّ ميم يليها رقما 12 و13 وألف، فكلمة حروفها الأولى ر، و، ي، ا... وهي لا يمكن أن تشير إلّا إلى مكان واحد.

– رويال؟

– تمامًا، وافني إلى... فكلمة تسبق كلمة رويال.

[2] العودة إلى الملاحظة السابقة لاستبعاد تكرار الياء (2) من هذه المجموعة.

– ما هي؟

– لا يمكنها أن تعني سوى مقهى رويال! قال لي جونز. وأمام شحوب لوني، تابع شرحه: إنّه مطعم مشهور في قلب لندن. لعلّ كلارنس ديفرو، مثلك، لم يسمع به، لكنّ العثور عليه لن يكون أمرًا صعبًا.

– وما هي الكلمة التي تليه؟ سألتُه.

– هذا ليس بالأمر الصعب. اتّضح لنا حرف اللام. وهكذا فإنّ اللام تليها النون، ثمّ 14 فالنون مرّة ثانية.

– لندن، قلتُ. مقهى رويال لندن. لا يمكن أن يكون سوى هذا.

– أوافقك الرأي. هذا هو مكان اللقاء. لنرَ الآن ما بقيّة النصّ.

15 ن د ا ل و ا 16 د ة ف ي ا ل 17 ا ن 15 18 ر م ن أ ي ا ر

– هذا واضح تمامًا! صحتُ، عند الواحدة، في الثاني عشر من أيار! أي بعد ثلاثة أيّام من الآن. أترى كيف تتكشّف الرموز بسهولة؟ لكن فلنتابع حتّى النهاية.

و ا ح م ل 19 هـ ر ة ت و ل ي ب ح م ر ا ء

– «واحمل...». وتوقّفتُ مرتبكًا.

– حسبما أخبرتَني، من شبه المؤكّد أنّ موريارتي وكلارنس ديفرو لم يلتقيا قطّ. وكلاهما يتباهيان بأنّ أحدًا لا يعرف مظهرهما. لذلك طُلب إلى موريارتي أن يحمل شيئًا يعرَف به. وهذا الشيء توضحه العبارة الأخيرة.

– لم أقل شيئًا. وبابتسامة أنهى جونز عمله قائلًا: لا بدّ للعبارة من أن تكون «واحمل زهرة توليب حمراء»، أي في عروة سترته. هذا هو الحلّ يا تشايس...

بروفسور موريارتي، وافني إلى مقهى رويال، لندن، عند الواحدة، في الثاني عشر من أيار، واحمل زهرة توليب حمراء.

لقد حالفنا الحظّ، البروفسور موريارتي كان مفتاح الحلّ. لو أنّ المرسل أغفل لقب المخاطبة لأخفقنا.

– كم أنّك مميّز، حضرة المفتّش جونز! لا يمكنني التعبير بالقدر الكافي عن إعجابي. وما كنت لأعرف من أين أبدأ.

– دعك. لم يكن هذا صعبًا جدًّا. لا شكّ بأنّ السيد هولمز كان ليجد الحلّ بنصف الوقت الذي قضيتُه أنا.

– هذا تمامًا ما كنت أرجوه، قلتُ. وما يبرّر قيامي بهذه الرحلة البعيدة إلى لندن، والتكاليف التي تكبّدتها. كلارنس ديفرو سيقصد مقهى رويال بعد ثلاثة أيّام، ويقابل رجلًا يحمل زهرة توليب حمراء، وهو بذلك سيكشف نفسه.

– لن يأتي إذا عرف بموت موريارتي.

– صحيح، قلتُ. ولجأت إلى الصمت مفكّرًا، واستأنفتُ: هَب أنّك أصدرت بيانًا تعلن فيه أنّك تظنّ موريارتي لا يزال حيًّا؟ في النهاية، أنت ذهبت للتحقيق حول ما حدث في شلّالات رايشنباخ. يمكنك بسهولة القول إنّك وجدتَ أدلّة جديدة توحي بأنّ موريارتي لا شأن له في الاعتداء.

– والجثّة في السرداب؟

– ألا يمكننا الزعم بأنّها جثّة شخص آخر؟ قلتُ بعد تريّث.

وفي تلك اللحظة، اقتربت صاحبة النزل لرفع الأطباق، فقلت لها:

– سيّدة ستايلر، هلّا تقولين لي ما اسم الطاهي الذي كانت أمّه مريضة؟

– فرانز هيرزل. ثمّ نظرتُ إلى حسائي الذي لم ألمسه تقريبًا، وسألتني: ألم يكن جيّدًا؟

– كان ممتازًا.

إنتظرتُ عودتها إلى المطبخ، وقلت لجونز:

– هاك الاسم، الرجل الميت قد يكون الطاهي المفقود. كان عائدًا إلى هنا، وثمل ثمّ سقط في الشلّالات. ومن قبيل المصادفة أنّ الحادثين وقعا في الوقت عينه. قل للجرائد إنّ موريارتي لا يزال حيًّا، وليسِر ديفرو إلى الفخّ. خفض جونز نظره، زامًّا شفتيه، فتابعتُ أقول: لم أعرفك منذ وقت طويل، ومع ذلك أرى أنّك لا تحبّ تحريف الحقيقة. أشاطرك هذا الشعور. لكن، صدّقني حين

أقول إنّك تجهل أيّ مرض فتّاك أتى إلى مدينتكم. واجبك نحو مواطنيك أن تبذل قصارى جهدك للتخلّص منه. صدّقني، حضرة المفتّش. بعد موت موريارتي، هذا اللقاء هو أملنا الوحيد. يجب أن نكون هناك، ونرى ما قد يحدث.

عادت السيّدة ستايلر حاملة الطبق الرئيسيّ، اللحم المحمّر. فحملت سكّيني وشوكتي، مصمّمًا هذه المرّة على الأكل. أومأ جونز برأسه ببطء علامة الموافقة، وقال:

– أنت محق. سأبعث برقيّة إلى سكوتلانديارد، ويمكننا السفر غدًا. إذا وافانا الحظ بمواعيد القطارات، سنصل في الوقت المناسب.

رفعتُ كأسي وقلت:

– نخب القبض على كلارنس ديفرو. وأيضًا، إذا سمحتَ لي، نخب تعاون سكوتلانديارد وبينكرتون.

شربنا نخبينا، وهكذا بدأ تعاوننا. لكن، كم كان ذلك النبيذ ليبدو مرّ المذاق، وكم كنّا لنتردّد في متابعة قضيّتنا لو علمنا وقتذاك ما ينتظرنا.

الفصل الخامس

في مقهى رويال

لا تتسنّى للكثير من الأميركيّين فرصة السفر عبر أوروبا، ومع ذلك لا يمكنني الاستفاضة بوصف ما شاهدتُ. فبرغم أنّني ألصقت رأسي بزجاج القطار معظم الرحلة، متأمّلًا المزارع الصغيرة المتناثرة فوق التلال، والسواقي الهادرة، والوديان التي تلوّنت بأولى أزهار الصيف، إلّا أنّ شعورًا بالضيق تملّكني، وعجزتُ عن التركيز على ما أراه. كانت الرحلة بالقطار بطيئة جدًّا، وغير مريحة في مقصورة الدرجة الثانية التي سافرنا بها. كما لم يفارقني الخوف من أن نصل بعد فوات الأوان. فحسبما أخبرني جونز، كانت أمامنا مسافة نحو ثمانمئة كيلومتر علينا أن نجتازها بأربعة قطارات وباخرة تنقلنا من كاليه إلى جسر لندن. لم يكن بوسعنا أبدًا أن نفوّت علينا موعد انطلاق إحدى وسائل النقل تلك. سافرنا من مايرنغن غربًا، فاجتزنا بحيرة برينز في إنترلايكن، ثمّ وصلنا إلى برن. ومن هناك أرسل جونز البرقيّة التي اتّفقنا عليها، والتي تقول إنّ البروفسور موريارتي نجا بأعجوبة من كارثة شلّالات رايشنباخ، وإنّه ربّما عاد إلى إنكلترا. كان مكتب البريد بعيدًا عن المحطّة، فكدنا نفوّت علينا اللحاق بقطارنا التالي، لشدّة ما وجد جونز صعوبة في السير فترات طويلة. وحين جلسنا في عربتنا، بدا عليه الشحوب وعدم الارتياح الواضح.

بقي كلانا صامتًا ساعة أو ساعتين، ومستغرقًا في أفكاره. لكنّ لسانينا انطلقا مع اقترابنا من الحدود الفرنسيّة بالقرب من موتييه، فرويت لجونز

شيئًا من تاريخ وكالة بينكرتون. كان ذا اهتمام كبير بطرق التحقيق التي تتّبعها دوائر الشرطة الأجنبيّة، برغم هزالها بالمقارنة مع طرقه الشخصيّة. كما أخبرتُه بالتفاصيل عن الدور الذي لعبته وكالتنا في إضراب عمّال سكّة حديد برلينغتون وكوينسي قبل سنوات قليلة. حينذاك اتُّهمت بينكرتون بالتحريض على أعمال الشغب، وحتّى بقتل بعض العمّال المضربين، لكنّني أكّدت له أنّ دورها اقتصر على حماية أملاك الشركة، والمحافظة على الأمن. تلك كانت الرواية التي أشاعتها الوكالة بأيّة حال.

ثمّ انصرف جونز عنّي، واستغرق في قراءة كتيّب مطبوع يحمله معه، تبيّن أنّه عبارة عن دراسة مؤلّفها هو شرلوك هولمز نفسه، حول موضوع الرماد. كان هولمز قادرًا، حسبما أكّد لي جونز، على التمييز بين مئة وأربعين نوعًا مختلفًا من رماد السيكار، أو السجائر أو تبغ الغليون، فيما جونز لم يتعلّم منها سوى تسعين نوعًا. للترفيه عنه، مضيتُ إلى مقصورة الطعام، وأخذت خمس عيّنات من الرماد، أمام دهشة الركّاب. شعر جونز بالامتنان لي على ما فعلتُه، وأمضى ساعة في تفحّص الرماد بدقّة بواسطة عدسة مكبّرة أخذها من حقيبة سفره.

في النهاية، وحين أبعد الرماد بحركة من يده، قلتُ بحماسة:

– كم كنت أتمنّى لو أنّني التقيتُ شرلوك هولمز. هل التقيتَه أنت؟

– نعم.

قال ذلك، وصمت. ولدهشتي رأيت أنّ سؤالي جعله يشعر بشيء من الإهانة. بدا ذلك غريبًا، خصوصًا وأنّ الكثير ممّا قاله في الفترة القصيرة التي قضيناها منذ أن تعارفنا، جعلني أعتقد بأنّه من أشدّ المعجبين، بل المتعصّبين لرجل التحرّي الشهير. ثمّ قال:

– الواقع أنّني التقيتُه في مناسبات ثلاث. وتوقّف، وكأنّه لا يعرف من أين يبدأ. ثمّ استأنف كلامه: المرّة الأولى لم تكن لقاءً بالمعنى الحقيقيّ للتعبير، فقد كنت وسط مجموعة كبيرة في سكوتلانديارد، حيث أتى ليلقي محاضرة على عدد منّا، أدّت مباشرة إلى إلقاء القبض على سارق المجوهرات في بيشوبسغايت. ولا أزال أميل حتّى اليوم إلى الاعتقاد بأنّ السيّد هولمز

كان أكثر اعتمادًا على التخمين منه على المنطق الصارم في تلك المسألة. فما كان ممكنًا أن يعرف أنّ الرجل وُلد بقدم مدبّسة. أمّا المناسبة الثانية فاختلفت كثيرًا، وقد نشر وقائعها الدكتور جون واطسون الذي ذكرني بالاسم. ولا يمكنني القول إنّه رسم عنّي صورة حسنة.

– يؤسفني سماع ذلك، قلتُ.

– ألم تقرأ القضيّة التي عُرفت باسم «علامة الأربعة»؟ كانت فريدة من نوعها.

أخذ جونز سيجارة وأشعلها. لم يسبق لي أن رأيته يدخّن، ويبدو أنّه نسي المحادثة التي دارت بيننا في لقائنا الأوّل حول رفيق سفري المدخّن. لكنّه في اللحظة الأخيرة، تذكّرها، فقال لي:

– آسف لأنّني أفرض عليك هذا. أسمح لنفسي بالتدخين بين الحين والآخر، هل تمانع؟

– لا أبدًا.

هزّ عود الثقاب ليطفئه، ثمّ رماه. وأضاف شارحًا:

– لم يكن زمن طويل قد انقضى آنذاك على ترقيتي إلى درجة محقّق في الشرطة. ولو أنّ الدكتور واطسون عرف بالأمر، لربّما ترفّق بي أكثر. بأيّة حال، صودف أنّني كنت في نورwood ذات مساء من شهر أيلول 1888، أحقّق في مسألة تافهة، حيث اتّهمت سيّدة منزل خادمتها بالسرقة. لم أكد أنتهي من استجواب الخادمة حتّى أتى رسول حاملًا خبر جريمة وقعت في أحد المنازل المجاورة. ونظرًا إلى أنّني كنت أعلى رجال الشرطة رتبة، فقد كان واجبي الذهاب إلى المكان.

هكذا وصلتُ إلى «بونديتشيري لودج»، الذي يبدو مثل كهف علاء الدين، أبيض ضخم، تحيط به حديقة تشبه المقبرة لكثرة ما فيها من حفر. كان صاحب المنزل يدعى بارثولوميو شولتو. ولن أنسى أبدًا المرّة الأولى التي وقع فيها نظري عليه، جالسًا في مقعد خشبيّ في مكتب هو أشبه بالمختبر ويقع في الطابق الثالث، ميتًا، وعلى وجهه تكشيرة بشعة.

كان شرلوك هولمز هناك، بعدما خلع الباب للدخول، وهو ما لا يحق له القيام به، لأنّه من اختصاص الشرطة. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها ذلك الرجل العظيم عن كثب، وفي خلال قيامه بالعمل أيضًا، إذ كان قد باشر تحقيقاته. ماذا يمكنني أن أخبرك يا تشايس؟ كان أطول ممّا أتذكّر، ونحيلًا كناسك، وكأنّه يتعمّد تجويع نفسه، ما يؤدّي إلى نتوء ذقنه وعظم خدّيه، وخصوصًا عينيه اللتين بدتا لا تقعان على شيء أبدًا إلّا وتجرّدانه من أيّة معلومات قد يكون يخفيها. كانت فيه طاقة وحيويّة لم أرَهما في أيّ رجل قطّ. وحركاته مقتضبة ومحسوبة بدقّة، ويثير من حوله الإحساس بأنّ ما من وقت لهدره. كان يرتدي سترة مشقوقة الذيل غامقة اللون، ومن دون قبّعة. في اللحظة التي رأيته فيها، كان يطوي شريط قياس في يده.

– والدكتور واطسون؟

– لم ألاحظه كما لاحظت هولمز. كان يقف في الظلّ في نهاية الغرفة، وهو قصير القامة، مستدير الوجه ودود الملامح. لن أسرد عليك تفاصيل القضيّة، يمكنك قراءتها إذا كانت تهمّك. كما قلت، كان القتيل هو بارثولوميو شولتو. وقيل إنّه وشقيقه التوأم ثاديوس ورثا عن أبيهما كنزًا عظيمًا، لكنّهما لم يستطيعا العثور عليه، وهذا ما يفسّر وجود الحفر الكثيرة في الحديقة. إلّا أنّ وقائع القضيّة بدت لي بسيطة: تشاجر الشقيقان، كما يتشاجر الرجال غالبًا حين يواجهون ثروة غير متوقّعة. فقتل ثاديوس شقيقه مستخدمًا أنبوب نفخ وسهمًا مسمومًا... نسيت أن أشرح لك أنّ المنزل كان مليئًا بغرائب هنديّة. إعتقلتُ الرجل وخادمه، وهو رجل يدعى ماك موردو، على اعتبار أنّه شريك في الجريمة.

– وهل كنتَ على حقّ؟

– لا يا سيّدي. تبيّن أنّني كنت على خطأ، وجعلتُ من نفسي أضحوكة، وبرغم أنّني لستُ أوّل من يفعل ذلك – حيث أنّ عددًا من زملائي ارتكب الخطأ نفسه – إلّا أنّ ذلك لم يعزّني كثيرًا.

ثمّ صمت، محملقًا عبر النافذة في الريف الفرنسيّ، لكنّ نظرة عينيه أكّدت لي أنّه لم يكن يرى منه شيئًا.

– وفي المرّة الثالثة، سألتُه.

– حدث ذلك بعد أشهر قليلة... في قضية أبرنيتي الغريبة. لكنّني لا أرغب في الحديث عنها الآن من فضلك، فهي لا تزال تقضّ مضجعي. بدت المسألة في البداية عمليّة سرقة برغم أنها كانت غريبة جدًّا. ما يمكنني قوله هو إنّ النواحي الأساسيّة في القضيّة غابت عنّي للمرّة الثانية، ولبثت مكتوف اليدين فيما كان السيّد هولمز يقوم باعتقال المجرم. أعدك بأنّ الأمر لن يتكرّر يا سيّد تشايس.

في الساعات التي تلت، لم يوجّه إليّ جونز سوى ما ندر من الكلام. كان انتقالنا إلى القطار التالي في باريس بغاية السهولة، وكانت تلك المرّة الثانية التي أعبر فيها المدينة بدون أن أرى برج إيفل. لكن، ما همّ؟ كانت لندن أمامنا، وتملّكني إحساس بالضيق. شعرتُ بأنّ ظلًّا خيّم علينا، سوى أنّني لم أجرؤ أن أقول ظلّ مَن كان، هولمز أم ديفرو أم حتّى موريارتي.

*

وصلنا إلى لندن.

يُقال إنّ الأميركيّين الصالحين يذهبون بعد موتهم إلى باريس. ولعلّ أقلّهم صلاحًا ينتهي بهم الأمر مثلي في محطّة «تشايرينغ كروس»، حيث رحتُ أجرجر صندوق أمتعتي وسط صياح السائقين، والفتيان المتسوّلين، والناس المتعاقبين أمواجًا أمواجًا. هناك افترقنا، المفتّش جونز وأنا، ليعود هو إلى منزله في كامبرويل، وأبحث أنا عن فندق يلائم محقّقًا أعلى يسافر على نفقة وكالة بينكرتون. فوجئت بمعرفتي أنّ له زوجة وابنة، بعدما خيّل إليّ أنّه رجل عازب، بل وحيد. لكنّه حدّثني عن عائلته في باريس، وحين نزلنا من باخرتنا في دوفر كان يتأبّط كرة مطاطيّة، ودمية للشرطيّ الفرنسيّ فلاجوليه اشتراهما بالقرب من محطّة «غار دو نور». الواقع أنّ معرفة ذلك عنه أصابتني بالاضطراب، لكنّي لم أقل شيئًا حتّى بلغنا نهاية رحلتنا.

– عذرًا، حضرة المفتّش، قلت له ملاحظًا، ونحن على وشك الافتراق. أعرف أنّ هذا ليس شأني، لكنّني أتساءل عمّا إذا كان عليك إعادة التفكير.

– فيمَ؟

– في المغامرة كلّها، وأعني مطاردة كلارنس ديفرو. لعلّي لم أوضح لك كم يبلغ إجرام هذا الرجل وانعدام الرحمة لديه. صدّقني حين أقول إنّه ليس في مصلحة أحد أن يكون عدوًّا له. لقد ترك خلفه نهرًا من الدماء في نيويورك. وإذا كان في لندن كما أعتقد، فسيكرّر الأمر عينه هنا. أنظر إلى ما حلّ بالمسكين جوناثان بيلغريم! عملي أن أطارده، ولا عائلة لي تعتمد عليّ. لكنّ هذا الأمر لا ينطبق عليك، أنا ألوم نفسي على تعريضك إلى هذا الخطر.

– لست أنت من جاء بي إلى هنا. أنا أقوم بالتحقيق الذي أوكلني به رؤسائي في سكوتلانديارد.

– ديفرو لا يحترم سكوتلانديارد ولا يحترمك. كما أنّ رتبتك وعملك لن يحمياك.

– لا فرق عندي. ثمّ توقّف ونظر إلى سماء بعد الظهر المتجهّمة، فقد استقبلتنا لندن بالغيوم والمطر. وتابع يقول: إذا أتى هذا الرجل إلى إنكلترا وفي نيّته مواصلة نشاطاته الإجراميّة كما ذكرتَ، يجب إيقافه، وذلك هو واجبي.

– يوجد محقّقون آخرون كثيرون.

– لكنّني أنا مَن أُرسلت إلى مايرنغن. وأضاف مبتسمًا: أتفهّم مشاعرك يا تشايس، وهي تشرّفك. صحيح أنّ لي عائلة، ولن أقوم بأيّ أمر يهدّد سعادتها، لكنّ الخيار ليس لي. في السرّاء أو في الضرّاء، نحن معًا في هذا الأمر، وهكذا سنبقى. وإذا كان هذا يريحك، فسأسرّ إليك أنّني لا أريد أن يسلبني لسترايد أو غريغسون، أو أيّ شخص آخر من زملائي الفضل في صيد هذا الرجل. ها هي عربة الأجرة تقترب. عليّ الانصراف!

لا أزال أتذكّره وهو يسرع حاملًا الكرة بيد، والدمية ذات الملابس الزرقاء تتدلّى من كتفه. وأتساءل الآن مثلما تساءلتُ في البداية كيف استطاع الدكتور واطسون أن يجعل منه أضحوكة في الرواية التي كتبها. قرأتُ قضيّة «علامة الأربعة» بعد ذلك، وبوسعي القول إنّ أثيلني جونز في تلك المغامرة لا يشبه إلّا قليلًا جدًّا الرجل الذي عرفتُه، والذي لم يكن يضاهيه أحد برأيي في سكوتلانديارد.

كانت في محيط محطّة القطار في جادّة نورثمبرلاند عدّة فنادق، إلّا أنّ أسماءها – أعني «غراند» و«فكتوريا» و«متروبول» – جعلتني أخشى كونها باهظة الكلفة. في النهاية، وجدتُ مكانًا عند حاجز مياه النهر، بالقرب من الجسر... الواقع أنّه كان قريبًا جدًّا من المحطة لدرجة أنّ المبنى كلّه يهتزّ كلّما مرّ قطار. كان فندق هِكسام قذرًا ومتداعيًا، سجّاده بالٍ وثريّاته مائلة وغير متوازنة. لكنّ شراشف الأسرّة كانت نظيفة، وكلفة الغرفة شيلنغان في الليلة فقط. وبعدما مسحت القذارة عن النافذة، كوفئت بمنظرٍ للنهر تعبره ببطء سفينة فحم. تناولت العشاء في مطعم الفندق، وحيدًا لولا وجود خادمة عابسة ونادل ممتعض. ثمّ جلست في غرفتي أقرأ حتّى منتصف الليل حين غرقت في نوم مضطرب.

كنت والمفتّش جونز قد اتّفقنا على اللقاء ظهر اليوم التالي أمام مقهى رويال في شارع ريجنت، قبل موعد ديفرو بساعة كاملة. بعد كثير من التمعّن – لا ننسينّ أنّنا أمضينا ثلاثين ساعة على متن القطار معًا – وضعنا خطّة بدا أنّها تلحظ جميع الاحتمالات. قضت الخطّة أن أحمل أنا زهرة التوليب متنكّرًا بدور موريارتي، فيما يجلس جونز إلى مائدة قريبة تسمح له بالإصغاء إلى الحديث الذي قد يدور. كان كلانا يظنّ أنّ حضور كلارنس ديفرو شخصيًّا أمر ضئيل الاحتمال. فإلى جانب المجازفة غير الضروريّة بتعريض نفسه إلى الخطر، هناك مسألة رهاب الساحات الذي يعانيه، والذي يجعل تنقّله في شارع ريجنت، ولو في عربة مقفلة، أمرًا احتماله قليل جدًّا. لا شكّ بأنّه سيرسل مندوبًا عنه، وبأنّ هذا الشخص سيتوقّع أن يجد موريارتي وحيدًا.

وبعد ذلك؟ كانت ثمّة احتمالات ثلاثة.

الأوّل، وهو ما كنّا نرجوه، أن يقابلني شخص يواكبني إلى المنزل أو الفندق حيث يقيم ديفرو. وفي هذه الحال، يتبعنا جونز سرًّا لضمان سلامتي، وطبعًا لمعرفة العنوان أيضًا. الاحتمال الثاني هو أن يكون شريك ديفرو يعرف مظهر موريارتي، فيدرك حالًا أنّني مزيّف ويخرج. وآنذاك ينسلّ جونز خارجًا من المطعم ويتبعه، وهذا على الأقلّ قد يقدّم لنا دليلًا على مكان وجود ديفرو. وفي النهاية، ثمّة احتمال بألّا يظهر أحد أبدًا. لكنّ جرائد لندن استفاضت

في الحديث عن نجاة موريارتي في رايشنباخ، وكان لدينا أمل حقيقيّ في أن يفترض ديفرو أنّه لا يزال حيًّا.

إشتريتُ زهرة توليب حمراء من كشك لبيع الزهور خارج المحطّة، وكنت أضعها في عروة سترتي وأنا أقترب من مقهى رويال، الواقع في قلب المدينة تمامًا. لعلّ لشيكاغو شارع ستايت، ولنيويورك ترف برودواي، لكن لا هذا ولا ذاك يضاهيان في الأناقة أو في السحر شارع ريجنت، بهوائه النظيف وواجهاته الكلاسيكيّة الجميلة. كانت العربات تسير في كلا الاتّجاهين كسيل لا ينضب فوق ذلك الطريق المنعطِف. أمّا أرصفته فازدحمت بالمتسكّعين وفتية الشوارع، وبالسادة الإنكليز والزوار الأجانب، وخصوصًا بالسيّدات الأنيقات الملابس، اللواتي يرافقهنّ خدم ينوؤون بمشترياتهنّ الكثيرة. وماذا يشترين؟ مررتُ بواجهات زاخرة بالعطور، والقفّازات، والمجوهرات، والشوكولا بالفانيليا، وساعات الجدران المصنوعة من البرونز المذهّب. وبدا لي أنّ كلّ ما يُباع هنا باهظ الكلفة، وغير ضروريّ.

كان جونز في انتظاري، مرتديًا بزّة ومتّكئًا كعادته على عصاه. سألني:

– هل وجدتَ فندقًا؟ فأعطيته اسم الفندق وعنوانه. ثمّ أضاف: هل وجدت صعوبة في العثور على هذا العنوان؟

– إنّه على مسافة غير بعيدة من المحطّة، كما أنّهم أحسنوا إرشادي.

– جيّد.

ألقى جونز نظرة شكّ في اتّجاه مقهى رويال، وتمتم قائلًا:

– هذا مكان جميل لموعد. كيف سيعثر عليك الرجل؟ لا أعرف. كما أنّ اللحاق به بدون أن يراني أحد أمر صعب في أقلّ تقدير.

كان محقًّا في ذلك. فمدخل المقهى من جهة شارع ريجنت، وهو كناية عن ثلاثة أبواب خلف ثلاثة أعمدة، يعني وجود عدّة طرق للدخول وأخرى للخروج. وبعد دخوله، كيف يُفترض بنا أن نلتقي الرجل، فالمبنى مؤلّف من متاهة من الممرّات والسلالم والبارات والمطاعم والقاعات، بعضها محجوب بألواح من المرايا، والبعض الآخر يتوارى جزئيًّا خلف باقات زهر ضخمة. أضف إلى صعوبة الأمر أنّ نصف اللندنيّين يبدون وكأنّهم قد اجتمعوا للغداء هنا. لم

يسبق لي قطّ أن رأيت مثل هذا العدد من الأثرياء في مكان واحد. ربّما كان كلارنس ديفرو وأفراد عصابته كلّهم هنا، يخطّطون لجريمتهم المقبلة أو ربّما لعمليّة سطو مسلّحة على بنك إنكلترا، ولن يكون في وسعنا أن نراهم. كما أنّ شدّة الضجيج ستمنعنا أيضًا من سماعهم.

إخترنا المقهى في الطابق الأرضيّ، الذي بدا بسقفه العالي وجوّه المفتوح والحافل بالناس، مكانًا طبيعيًا جدًّا للقاء بين غريبين. دخلنا صالة جميلة ذات أعمدة فيروزيّة وزخرفة ذهبيّة. وكيفما نظرنا كنّا نرى القبّعات العالية وتلك الخفيضة معلّقة هنا وهناك، وأناسًا يتحلّقون حول طاولات رخاميّة، فيما النُدُل بستراتهم الطويلة ذات الذيل ومآزرهم الطويلة البيضاء يشقّون طريقهم بين الموائد كلاعبي السيرك، وصوانيهم المثقلة تبدو دائمًا وكأنّها تطفو فوق أكتافهم. نجحنا في العثور على مائدتين متجاورتين. لم أتبادل وجونز كلمة واحدة منذ دخلنا. ما قد يبدو لأيّ مراقب أنّ واحدنا لا يلاحظ حتى وجود الآخر. طلبت كأس نبيذ صغيرًا. وفي هذا الوقت، أخرج جونز جريدة فرنسيّة، ونادى النادل طالبًا منه فنجان شاي.

جلسنا جنبًا إلى جنب وكلّ منّا يتجاهل الآخر، ننظر إلى عقرب الساعة الكبير على الجدار البعيد، وهو يقترب من الواحدة. مع دنوّ الموعد شعرتُ باشتداد توتّر المحقّق الذي كان قد أقنع نفسه بأنّنا سنلقى الخيبة، وبأنّ استعجالنا السفر عبر أوروبا كان من دون جدوى. لكن، عند الواحدة تمامًا، رأيت شخصًا يظهر عند المدخل ويتفحّص القاعة بدقّة وعيناه تجولان على الجمع. تصلّب جونز الجالس بجانبي، وتوقّدت فجأة عيناه الجدّيتان دائمًا.

كان القادم الجديد فتى في نحو الرابعة عشرة من عمره، أنيقًا بسترته الزرقاء الصارخة اللون وقبّعة سعاة البرقيّات التي يضعها. بدا غير مرتاح، وكأنّه ليس معتادًا تلك الملابس التي أرغم على ارتدائها، والتي لم تناسبه لأنّها كانت ضيّقة، بعكسه تمامًا. في الواقع، بدا لي ببطنه الممتلئ وساقيه القصيرتين وخدّيه المستديرين، أقرب إلى رسوم كوبيدون التي تزيّن القاعة حيث كنّا.

رآني، أو بالأحرى رأى زهرة التوليب في سترتي، وبنظرة العارف بدأ يشقّ طريقه إليّ عبر الجمع. وصل وجلس قبالتي من دون أن يستأذنني،

واضعًا رجلًا فوق ركبته. كانت تلك الحركة بحدّ ذاتها تعبير عجرفة غير لائق بالنسبة إلى ساعٍ في مكتب البرق. أمّا بعد أن اقترب، فقد بدا واضحًا لي أنّه لم يعمل ساعيًا قطّ. كان ماكرًا جدًّا، ورأيتُ في عينيه الرطبتين والفارغتين شيئًا غريبًا، وكأنّهما لم تقعا قطّ إلّا على البشاعة والشرّ. وفي الوقت عينه، كانت رموشه جميلة، وأسنانه بيضاء، وشفتاه مكتنزتين. ترك فيّ انطباعًا بأنّه وسيم جدًّا وقبيح جدًّا في الوقت عينه.

– هل تنتظر أحدًا؟ سألني بصوت أجشّ، يكاد يكون صوت رجل.

– ربّما، أجبته.

– توليب جميلة، هذا أمر لا نراه كلّ يوم.

– زهرة توليب حمراء، قلت موافقًا. هل تعني لك شيئًا؟

– قد تعني، وقد لا تعني.

ثمّ صمت.

– ما اسمك؟ سألته.

– وهل أحتاج إلى اسم؟ ثمّ غمزني بخبث، وأضاف: لا يا سيّدي. ما نفع الاسم حين يجب ألّا يعرفنا أحد؟ لكن سأقول لك شيئًا: إذا أردتَ مناداتي باسم ما، فنادِني باسم بيري.

ظلّ المفتّش جونز يتظاهر بقراءة جريدته، لكنّني علمت أنّه كان متنبّهًا إلى كلّ كلمة تُقال. وأخفض الصفحة قليلًا ليتمكّن من استراق النظر من فوقها، مواصلًا في الوقت عينه التظاهر باللامبالاة.

– حسنًا يا بيري، قلت. كنت أنتظر لقاء شخص، لكن ليس لديّ أدنى شكّ بإنّك لستَ مَن أنتظره.

– بالطبع لا يا سيّدي. عملي هو أن آخذك إليه. لكنّ علينا التأكّد أوّلًا مِن أنّك مَن تقول إنّك هو. لا شكّ بأنّك تحمل زهرة التوليب. لكن، هل تحمل رسالة ما أرسلها سيّدي إليك؟

كنتُ أحمل فعلًا الورقة الممزّقة ذات الرسالة المرمّزة. فقد أشار جونز إلى أنّه قد يُطلب منّي إبرازها، فأحضرتُها. أخذتُها من جيبي ووضعتُها على الطاولة. فألقى عليها الفتى نظرة خاطفة، وسألني:

– هل أنت البروفسور؟

– نعم، قلت له بصوت خفيض.

– البروفسور موريارتي؟

– أجل.

– ألم تغرق في شلّالات ريشن...باك؟

– لماذا تطرح هذه الأسئلة الحمقاء؟ قلتُ مفترضًا أنّ موريارتي الحقيقيّ كان ليتكلّم على هذا النحو. وأضفت: سيّدك هو مَن رتّب لهذا اللقاء. إذا أصررتَ على هدر وقتي، أؤكّد لك أنّك ستتحمّل العواقب.

لكنّ ذلك لم يُرهب الفتى، وتابع يسألني:

– أخبرني كم غرابًا طار من برج لندن؟

– ماذا؟

– الغربان التي طارت من البرج. ما عددها؟

كان ذلك أكثر الاحتمالات التي خشيناها. فحين وضعنا الخطّة في خلال رحلتنا الطويلة بالقطار فكّرت وجونز في احتمال وجود إشارة تعارف. ما كان مجرمان بخطورة كلارنس ديفرو والبروفسور جايمس موريارتي ليكشفا هويّتيهما الحقيقيّتين من دون التيقّن من أنّهما بأمان. وهذه كانت الحيطة الأخيرة: أحجية بصورة تبادل للكلمات تمّ الاتّفاق عليها في رسالة أخرى.

تجاهلت السؤال وقلت له:

– كفاك ألعابًا سخيفة. سافرتُ مسافة طويلة لألتقي كلارنس ديفرو. أنت تعرف عمّن أتكلّم. لا تتظاهر بنقيض ذلك! أرى ذلك في عينيك.

– أنت مخطئ يا سيّد، لم أسمع بهذا الاسم قطّ.

– إذًا ما سبب وجودك هنا؟ أنت تعرفني وعلى علم بأمر الرسالة. لا تحاول التظاهر بغير ذلك.

فجأة بدا الفتى قلقًا يستعجل الانصراف. رأيتُه يلقي نظرة خاطفة نحو الباب. وما هي إلّا برهة حتّى مال بكرسيّه يهمّ بالوقوف. لكنّني أمسكت بذراعه قبل أن يبتعد، وأعدته بالقوّة إلى الكرسيّ، قائلًا له:

– أخبرني أين أستطيع العثور عليه.

أبقيت صوتي منخفضًا، خشية لفت أنظار زبائن المقهى من حولي، الذين يحتسون القهوة أو يشربون النبيذ، ويطلبون غداءهم، ويتبادلون أطراف الحديث بحماسة فيما يتناولونه. ظلّ أثيلني جونز جالسًا إلى مائدته القريبة، ومع ذلك منفصلًا تمامًا عنّي. لم يلاحظنا أحد من الموجودين. وفيما كنا نؤدي فصل مسرحيتنا الصغيرة تلك، كنا وحيدين تمامًا.

– لا داعي للتصرّف بقذارة يا سيّد، قال لي بيري بصوت منخفض أيضًا، ولكن بشع ومليء بالتهديد.

– لن أتركك حتّى تقول لي ما أريد معرفته.

– أنت تؤلمني!

واغرورقت عيناه بالدموع، وكأنّما لتذكيري بأنّه لا يزال طفلًا. ثمّ استغلّ ترددي للإفلات من قبضتي، وشعرتُ فجأة بشيء حادّ يضغط على عنقي. أجهل كيف استطاع إخراجه بيد واحدة، لكنّني شعرت به يحزّ جلدي من غير حاجة به إلى الضغط. أخفضت نظري فرأيت السلاح الذي سحبه من مكان ما بداخل سترته، وكان رهيبًا: مبضع جرّاح ذو مقبض أسود ونصل طوله اثنا عشر سنتمترًا على الأقلّ. كان يحمله بعناية شديدة لئلّا يستطيع أحد سوانا رؤيته، برغم أنّ السيّد الجالس إلى المائدة القريبة كان ممكنًا أن يراه لو لم يعد، وبصورة غير قابلة للتفسير، إلى جريدته الفرنسيّة. ثمّ قال لي بصوت كفحيح الأفاعي:

– دعني أذهب، أو أقسم بأنّني سأقطع عنقك هنا وفي هذه اللحظة، وأفسد على كلّ هؤلاء الأشخاص اللطفاء طعامهم. فعلتُ هذا من قبل ورأيتُ الدم ينبجس مسافة مترين، ويتدفّق سيلًا، صدّقني. ليس أمرًا من المستحبّ حدوثه في مكان فخم كهذا.

ثمّ ضغط بيده، وشعرت بخيط من الدم يسيل على جانب عنقي. همستُ قائلًا له:

– أنت مخطئ. أنا موريارتي...

– كفى لهوًا يا سيّد. سؤال الغربان فضح أمرك. سأعدّ حتّى ثلاثة...

– لا حاجة إلى هذا!

– واحد.

– أقول لك...

– إثنان...

لم يبلغ الثلاثة، فقد تركته يذهب. كان طفلًا شيطانيًا، وقد كان واضحًا جدًا حين أسرّ لي بأنّه سيكون سعيدًا بارتكاب جريمة، ولو في مكان عامّ. في هذا الوقت لم يفعل جونز شيئًا، برغم أنّه شاهد ما يحدث بدون شكّ. هل كان ليبقى متفرّجًا ويدع الفتى يقتلني أمام أعين الجميع، لتحقيق هدفه؟

شقّ الفتى طريقه مبتعدًا بسرعة وسط الجمع. أخذت منديلًا وأحكمت ضغطه على عنقي. وحين رفعت بصري من جديد، كان جونز يبتعد.

– هل كلّ شيء على ما يُرام على سيّدي؟، سألني نادل ظهر فجأة من المجهول، وهو منحنٍ نحوي، بوجه متوجّس. أبعدتُ المنديل، ورأيت على القماش لطخة من الدم الأحمر القاني، فقلت له:

– أمر بسيط. إنّه حادث صغير.

أسرعت إلى الباب، ولكن حين وصلت إلى الشارع، كان الأوان قد فات، إذ توارى كلّ من المفتّش جونز والفتى الذي يدعو نفسه بيري عن الأنظار.

الفصل السادس

منزل بلايدستون

لم أرَ جونز حتّى اليوم التالي حين أتى مسرعًا إلى فندقي، مفعمًا بالطاقة المتوقّدة عينها التي شهدتها لديه حين كان يفكّ رموز الرسالة المستخرَجة من جيب الرجل الغريق. كنت قد أنهيت فطوري حين أتى وجلس قبالتي، وسألني:

– أهنا تقيم يا تشايس؟

ثمّ جال بنظره على ورق الجدران البالي، والموائد القليلة المتقاربة جدًّا فوق السجّادة الرثّة. لقد أمضيت يومذاك نصف الليل مستيقظًا بسبب السعال المتشنّج الذي اشتدّ على رجل ينزل، ولسوء الحظّ، في الغرفة المجاورة لغرفتي، والذي توقّعت أن ينضمّ إليّ في قاعة الفطور، إلّا أنّه لم يظهر. ما خلا ذلك الرجل الغامض، كنت النزيل الوحيد في الفندق، والصراحة أنّ ذلك لم يفاجئني. فلم يكن هِكسام أحد تلك الفنادق التي قد ترد في المطبوعات الدعائيّة السياحيّة، اللهمّ إلّا بهدف الدعوة إلى تجنّبها. ولذلك كانت قاعة الفطور لنا فقط. أضاف جونز قائلًا:

– حسنًا، أظنّه يفي بالغرض. صحيح أنّه ليس بالمكان الفخم، إلّا أنّ الأمور تسير بسرعة. وبشيء من الحظّ، ستقوم بعد أسابيع قليلة فقط برحلة العودة إلى نيويورك.

ثمّ أسند عصاه إلى المائدة، وفجأة بدا أكثر تعاطفًا، فتابع يقول:

– أرجو أنّك لم تُصب بأذى. رأيت الفتى يُخرج السكّين، ولم أدرِ ما العمل.

– كان بإمكانك إيقافه.

– وأفضح أمرنا؟ منظره كان يشي بأنّه ليس ممّن يذعنون للضغط. لو أنّني اعتقلتُه، لما حقّقنا شيئًا.

مرّرت إصبعي على الندبة التي خلّفها بيري على عنقي، وقلت:

– كان أمرًا وشيكًا. لقد كاد يقطع عنقي.

– سامحني يا صديقي. كان عليّ أن أقرّر بسرعة، ولم يتسنّ لي الوقت للتفكير.

– حسنًا، أظنّك تصرّفت بهدف تحقيق ما هو أفضل. لكنّك تدرك الآن ما حاولت قوله لك، حضرة المفتّش. أولئك قوم أشرار لا يعرفون وخز الضمير. طفل لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره! وفي مطعم يعجّ بالزبائن! هذا أصعب من أن يصدَّق. لحسن الحظّ أنّه لم يُلحق بي أذى. لكنّ السؤال الأهمّ هو: هل قادك إلى كلارنس ديفرو؟

– لا، لم يقُدني إلى ديفرو. كانت مطاردة طويلة عبر لندن، من شارع ريجنت إلى أوكسفورد سيركس ثمّ شرقًا إلى شارع توتنهام كورت. ولولا سترته ذات اللون الأزرق الصارخ لفقدتُ أثره وسط الحشود. كما كان عليّ أن أبقى على مسافة منه، وحسنًا فعلتُ، لأنّه استدار مرّات عدّة ليتأكّد من أنّ أحدًا لا يتبعه. وبرغم ذلك كدت أفقد أثره في شارع توتنهام كورت، فقد قفز إلى حافلة، ولم أرَه إلّا حين جلس على حافّة سطحها.

– لحسن الحظّ أنّه لم يجلس في الداخل.

– ربّما. إستوقفتُ عربة تسير في الاتّجاه الصحيح، وتبعنا الحافلة. أعترف بأنّني شررت لعدم اضطراري إلى مواصلة السير، وخصوصًا حين بدأنا نصعد نحو الضواحي الشماليّة.

– هل ذهب الفتى إلى هناك؟

– صحيح. قادني بيري – إذا كان هذا اسمه – إلى أركواي تافرن، ومن هناك استقلّ الترامواي صعودًا إلى هايغايت فيلاج. ورافقته في الرحلة عينها، حيث جلس هو في المقصورة الأماميّة، وأنا، في الخلفيّة.

– وبعد ذلك؟

– بعد الترامواي، لحقت بالفتى مسافة قصيرة نزولًا عبر طريق مرتون لاين. أعترف بأنّ ذلك المكان جعلني أشعر بالخطر. ألم تُكتشف فيه جثّة عميلكم جوناثان بيلغريم؟ بأيّة حال، واصل طريقه إلى منزل يحيط به سور عالٍ على أطراف ساوثهامبتون إستايت، وفي النهاية فقدت هناك كلّ أثر له، بعدما حثّ خطاه مع اقترابه من وجهته. لاحظتَ ولا شكّ بأنّني لست بكامل صحّتي يا تشايس. كنتُ على مسافة من الفتى حين رأيته يتوارى خلف السور. أسرعت في السير، إلّا أنّه وحين بلغت المنعطف، كان قد اختفى عن الأنظار. لم أرَه يدخل المنزل فعلًا، لكنّني لا أشكّ في أنّه فعل. فخلف المنزل حقل فارغ إلّا من بعض الشجيرات، ولم أرَ أثرًا له هناك. ثمّة منازل قريبة أخرى، ولو حاول الذهاب إليها لرأيته بلا شكّ. لا. لا بدّ من أنّه دخل منزل بلايدستون. كانت في الجدار الخلفيّ بوّابة، لا شكّ بأنّه دخل منها. وقد كانت مقفلة.

ليس منزل بلايدستون مكانًا يوحي بالحفاوة، وبرأيي أنّ شاغليه حرصوا على أن يبقى على تلك الصورة. فالسور المحيط به تعلوه مسامير حديديّة، وثُبّتت على نوافذه كلّها قضبان. كما أنّ لباب الحديقة قفلًا معقّدًا، لا يستطيع فتحه سوى أمهر اللصوص. وتحسّبًا لاحتمال عودة الفتى إلى الخروج، ابتعدت قليلًا ورحت أراقب المكان بواسطة آلة غالبًا ما وجدتها ذات فائدة...

وأشار إلى عصاه، ورأيت للمرّة الأولى أنّ مقبضها الفضيّ المزخرف قابل لأن يُفتح ويتحوّل إلى منظار. أضاف جونز:

– ولمّا لم أرَ بيري مجدّدًا، استنتجتُ بأنّه لم يأتِ إلى ذاك المكان لتسليم رسالة أخرى. لا شكّ بأنّ هذا منزله.

– ألم تدخل؟

– أردت ذلك كثيرًا، أجاب جونز مبتسمًا. لكن بدا لي أنّ علينا أن نفعل ذلك معًا. فهذا التحقيق لك بمقدار ما هو لي.

– أقدّر لك حسن مراعاتك.

– إلّا أنّني لم ألبث بلا عمل، أضاف. بل قمتُ ببعض التحقيقات التي أظنّها مهمّة لك. منزل بلايدستون هو ملك لعائلة جورج بلايدستون، الناشر

الذي مات العام الماضي. والعائلة لا غبار عليها. وقد أجّرت المنزل منذ ستّة أشهر إلى رجل أعمال أميركيّ اسمه سكوت لافيل.

– سكوتشي لافيل! هتفتُ.

– هو نفسه. إنّه بلا شكّ مساعد ديفرو، والرجل الذي تحدّثتَ عنه.

– وديفرو؟

– يستطيع لافيل أن يقودنا إليه. بما أنّك أنهيت فطورك، هلّا ننطلق حالًا؟ صدّقني يا تشايس، ثمّة مكيدة يُخطَّط لها على قدم وساق.

لم أكن بحاجة إلى مزيد من التشجيع. سلكنا معًا الدرب عينها التي رسمها لنا الفتى بيري في اليوم السابق. فاجتزنا وسط العاصمة، ثمّ صعودًا إلى الضواحي، لننتقل أخيرًا عبر القطار السلكيّ الذي وفّر علينا جهد صعود الهضبة.

– هذه وسيلة نقل لافتة، قلتُ.

– يؤسفني أنّني لن أستطيع مرافقتك بجولة على المنطقة. هيث القريبة من هنا تطلّ على مناظر خلابة. في الماضي، كانت هايغايت قرية حقيقيّة، لكنّني أخشى أنّها فقدت الكثير من سحرها.

– حدث ذلك يوم وصول سكوتشي لافيل، قلتُ. حين ننتهي من أمره وأمر أصدقائه، سيستمتع كلانا بالمدينة أكثر.

بلغنا المنزل الذي كان كما وصفه جونز، بل وأكثر إيحاءً بالشؤم وتصميمًا على الانعزال عن العالم في الخارج. كان بشعًا، وارتفاعه يفوق عرضه، ومبنيًّا بحجارة رماديّة باهتة، تبدو أكثر ملاءمة للمدينة ممّا هي للريف. كما كان قوطيّ العمارة ذا قنطرة مزخرفة فوق مدخله، ونوافذ مدبّبة مزيّنة بالنقوش الشجريّة والميازيب وما إلى ذلك من ألوان الزخرفة القوطيّة. كان جونز محقًّا في شأن التدابير الأمنيّة المتّخذة من بوّابات، ورزّات، وقضبان حديديّة، ومصاريع... لم أرَ مبنى يشبه هذا إلّا السجن. وكلّ زائر محتمل أو لصّ يغامر ليلًا، سيجد أنّ دخول ذلك المنزل مستحيل. لكنّ معرفتي بأولئك الأشخاص جعلتني لا أتوقّع ما هو أقلّ من ذلك.

لم نستطع حتّى الاقتراب من الباب الأماميّ بسبب وجود بوّابة حديديّة مزخرفة في السور تفصل بين المدخل والشارع، وكانت مقفلة أيضًا. وهناك قرع جونز جرسًا.

– هل من أحد في الداخل؟ سألته.

– رأيت حركة خلف النافذة، أجاب. إنّهم يراقبوننا. نحن نواجه عقولًا في غاية الارتياب هنا. ها هو رجلهم يقترب.

سار نحونا خادم يرتدي ملابس سوداء، بخطوات كئيبة وكأنّما لإعلامنا بأنّ الزيارة غير ممكنة بسبب وفاة ربّ المنزل. وصل إلى البوّابة وخاطبنا من خلف القضبان.

– هل لي بمساعدتكما؟

– أتينا لرؤية السيّد لافيل، قال جونز.

– أخشى أنّ السيّد لافيل لا يستقبل زوّارًا اليوم، أجاب الخادم.

– أنا المفتّش جونز من سكوتلانديارد، ردّ جونز. وسيستقبلني بالتأكيد. وإن لم تفتح هذه البوّابة في خمس ثوانٍ يا كلايتون، ستعود إلى سجن نيوغايت حيث مكانك الطبيعي.

رفع الخادم عينيه مُجفلًا، ونظر إلى رفيقي عن كثب، ثمّ هتف بصوت مختلف:

– سيّد جونز! ربّاه، لم أعرفك يا سيّدي.

– أنا لا أنسى الوجوه قطّ يا كلايتون، ولا يسعدني أبدًا أن أرى وجهك.

فيما بحث الخادم في جيبه عن المفتاح وفتح البوّابة، استدار جونز نحوي وقال بصوت خافت:

– حين التقينا آخر مرّة، أودعته السجن ستّة أشهر بتهمة سرقة الكلاب. يبدو أنّ السيّد لافيل متساهل في اختيار مستخدميه.

فتح كلايتون البوّابة وأدخلنا المنزل، باذلًا مع كلّ خطوة جهدًا لاستعادة هدوئه. وسأله جونز:

– ماذا يمكنك أن تخبرنا عن سيّدك الجديد؟

– لا يمكنني أن أخبرك شيئًا يا سيّدي. إنّه سيّد أميركيّ نبيل، لكنّه متكتّم جدًّا.

– لا شكّ عندي بذلك، منذ متى تعمل لديه؟

– منذ كانون الثاني.

– أظنّه لم يطلب خطاب توصية، تمتمتُ.

– سأخبر السيّد لافيل بقدومكما، قال كلايتون.

بقينا وحيدين في ردهة دخول رحبة ومظلمة، غُطّيت جدرانها المرتفعة جدًّا بألواح خشبيّة داكنة، وفيها درج ضخم لا سجّاد يغطّيه، يقود إلى الطابق الثاني، الذي هو عبارة عن رواق مفتوح من الجهتين، بما يسهّل مراقبتنا من أيّ من الأبواب العليا من دون أن ندري. حتّى اللوحات المعلّقة على الجدران كانت مظلمة وكئيبة بمناظرها الشتويّة وبحيراتها المتجمّدة وأشجارها العارية من الأوراق. وفي الردهة أيضًا موقد وُضع عن ناحيتيه كرسيّان خشبيّان، لكنّه من الصعب أن نتخيّل أحدًا يجلس فيهما ولو لفترة وجيزة، وسط هذا المكان الموحش.

عاد كلايتون وقال:

– السيّد لافيل سيقابلكما في مكتبه.

ثمّ قادنا إلى غرفة ملأى بكتب توحي، ممّا بدا عليها من عفونة وإهمال، بأنّها لم تُقرأ قطّ. لدى دخولنا رأينا رجلًا ينظر إلينا شزرًا من خلف مكتب ضخم ومخيف من خشب السنديان الداكن يعود إلى القرن السابع عشر، وخلتُ لبرهة أنّه يوشك على الانقضاض علينا. كان يشبه الملاكمين، برغم أنّه لا يرتدي لباسهم، وأصلع الشعر تمامًا، وذا أنف معقوف إلى الأعلى وعينين صغيرتين جدًّا غائرتين في وجهه، يرتدي بزّة ضيّقة ذات نقشة غير مألوفة، ويضع خاتمًا في كلّ من أصابع يديه تقريبًا، حتّى ظهرت الحجارة المزوّقة الألوان متلاصقة ومتراكبة. لعلّ من المقبول وجود خاتم واحد، لكنّ هذا العدد الكبير منها يترك أثرًا بأنّها رخيصة ومسيئة للنظر على نحو غريب. أمّا ثنيات عنقه فقد تجمّعت وكأنّما في محاولة للدخول تحت الياقة. عرفته في

الحال: إنّه سكوتشي لافيل. وبدا غريبًا أن ألتقيه للمرّة الأولى في أحد منازل الضواحي اللندنيّة، بعيدًا آلاف الأميال عن نيويورك.

كان أمام المكتب مقعدان. وبرغم أنّه لم يدعُنا، جلسنا فيهما، في إشارة واضحة إلى رغبتنا في البقاء.

سألنا لافيل:

– ما هذا؟ المفتّش جونز من سكوتلانديارد؟ ماذا تفعل هنا؟ وماذا تريد؟ ليس لديّ ما أقوله لك. وأضاف بعدما لاحظني: ومَن هذا الذي يرافقك؟

– إسمي فريدريك تشايس، أجبته. من وكالة بينكرتون في نيويورك.

– بينكرتون! زمرة السفلة والخونة! إلى أين يجب أن أذهب لأنأى عنهم؟ قال، مستخدمًا اللغة السوقيّة المألوفة في شوارع أحياء مانهاتن السفلى. وأضاف: لا وجود لبينكرتون في إنكلترا، ولن أتحدّث إليك، خصوصًا وأنا في منزلي. لا وألف لا. ثمّ التفت إلى جونز وأضاف: سكوتلانديارد! أنت أيضًا لا شأن لي معك. لم أرتكب أيّ خطأ.

– نبحث عن شريك لك، يدعى كلارنس ديفرو، قال له جونز.

– لا أعرف هذا الاسم، ولم أسمع به قطّ. وهو ليس شريكي، ولا يعني لي شيئًا، قال لافيل وهو ينظر إلينا بعينين صغيرتين مشاكستين تومضان بنظرات التحدّي.

– ألم تسافر معه إلى إنكلترا؟

– ألم تسمعني؟ كيف أسافر مع شخص لم ألتقِه قطّ؟

– ألاحظ من لكنتك أنّك أميركيّ، قال جونز، محاولًا إقناعه بالتجاوب. أيمكنك أن تخبرني ما سبب قدومك إلى إنكلترا؟

– أيمكنني أن أخبرك؟ ربّما يمكنني ذلك. لكنّني لا أعرف لما عليّ أن أفعل، قال وهو يوجّه سبّابته إلينا، قبل أن يتابع: حسنًا، حسنًا. أنا مستشار في الاستثمارات. لا خطب في ذلك! أجمع الرساميل، وأقدّم فرصًا للاستثمار. إن كنت تريد أسهمًا في شركات صنع الصابون أو الشمع أو أربطة الأحذية، أو أيّ شيء آخر، تجدها عندي. هل يمكنني إثارة اهتمامك باستثمار ما يا سيّد جونز؟ أو أنت يا سيّد بينكرتون؟ ثمّة منجم ذهب جميل وصغير في

سكرامنتو، أو في مناجم الفحم والحديد في فرميسا. عائدات أسهمها أفضل بكثير من راتب محصّل ديون. أضمن لكما ذلك.

كان لافيل يهزأ بنا. فكلانا على علم بحقيقة علاقته بديفرو، وهو يدرك ذلك تمامًا. لكن، بدون أيّ دليل على التخطيط لجريمة أو على ارتكابها، لم يكن بوسعنا عمل الكثير. حاول المفتّش جونز مرّة جديدة:

– تبعتُ أمس فتى إلى هذا المنزل. كان أشقر الشعر ويرتدي ملابس ساعي برقيّات. هل رأيته؟

– ولماذا ألتقيه؟ ردّ لافيل ساخرًا. ربّما تلقّيتُ برقيّة، لا أعلم. عليك أن تسأل كلايتون.

– رأيت الفتى يدخل المنزل ولم يغادره.

– ماذا كنت تفعل هناك؟ أتتجسّس عليّ؟ أتأخذ مقاسي؟ لا أولاد هنا، أكانوا سعاة برقيّات، أم غير ذلك.

– مَن يقيم هنا؟

– وما شأنك؟ لماذا يجب أن أجيبك؟ سبق أن قلت لك إنّني رجل أعمال محترم. يمكنك الاستفسار عنّي في البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة، وهناك سيشهدون لي.

– سيّد لافيل، إذا لم ترغب في مساعدتنا يمكننا أن نعود ومعنا مذكّرة وأكثر من عشرة رجال شرطة. أمّا إذا كنت كما تقول عن نفسك، فستجيب عن أسئلتي.

تثاءب لافيل وحكّ مؤخّرة عنقه. لم يبارحه عبوسه ولا نظراته الغاضبة، لكنّني رأيت أنّه يدرس خياراته، ووجد أنّه لا يملك سوى خيار الإجابة عن أسئلتنا.

– عددنا هنا خمسة أشخاص، قال. لا، ستّة. أنا وامرأتي، وكلايتون، والطاهية، والخادمة، وغلام المطبخ.

– قلتَ إنّ ما من أولاد هنا.

– ليس ولدًا. عمره تسعة عشر عامًا وهو أصهب.

– ومع ذلك، نرغب في لقائه، قلتُ. أين هو؟

– أين ستجد غلام المطبخ، برأيك؟ أجاب لافيل باستهزاء غاضب. إنّه في المطبخ. ثمّ ضرب المكتب بأصابع إحدى يديه، ما جعل حجارة الخواتم تقرقع. وتابع: سأرسل في طلبه.

– سنذهب نحن إليه، قال.

– تريدان حشر أنفيكما هنا، أليس كذلك؟ حسنًا. لكن بعد ذلك، عليكما أن ترحلا. لا سبب لوجودكما هنا، لقد اكتفيت منكما.

نهض من خلف مكتبه، بحركة ذكّرتني بالسبّاح حين يظهر فوق سطح الماء. ولكنّه حتّى حين وقف بدا وكأنّه يتقلّص حجمًا بفعل ضخامة المكتب أمامه. وفي الوقت عينه، كان لون بزّته البشع وضيق مقاسها، ومجوهراته المبالَغ بها، تزيد من تصغيره أكثر فأكثر.

توجّه نحو الباب وقال بلهجة الآمر: من هنا.

تبعته وجونز كطالبَي وظيفة وضيعة في منزله أنهيا مقابلتهما منذ لحظات. إجتزنا الردهة من جديد لنرى امرأة تنزل الدرج، وهي تصغر لافيل سنًّا بفارق كبير. كانت ملابسها تنمّ، كملابسه، عن رداءة الذوق، فقد لفّت نفسها بأقمشة من الحرير قرمزيّة اللون بدت ضيّقة على جسمها الممتلئ، ومفتوحة عند صدرها إلى حدٍّ قد يثير جلبة إذا ما سارت في شوارع بوسطن، كما كانت عارية الذراعين. ووضعت حول عنقها عقدًا من الماس، أجهل إن كان حقيقيًا أو مزيّفًا.

– مَن هما هذان يا سكوتشي؟ سألت زوجها بلكنة البرونكس.

كان بوسعي أن أشمّ رائحة الصابون وماء الخزامى الذي تستعمله، حتّى من مسافة بعيدة.

– لا أحد، أجابها لافيل بحدّة، باستياء واضح من أنّها فضحته بمناداته باسمه الذي أعرفه كما يعرفه كثيرون من أفراد الشرطة في كلّ أنحاء أميركا.

– كنت أنتظرك، قالت بصوت متباكٍ كطالبة تُجرّ رغمًا عنها إلى الصفّ. وأضافت: قلتَ إنّنا سنخرج...

– أقفلي فمك الكبير، وتوقّفي عن الثرثرة.

– سكوتشي؟

– إصعدي إلى الغرفة وانتظريني يا هِن. حين أكون مستعدًا، سأبلغك.
رفعت المرأة تنورتها مستاءة، واستدارت وعادت مسرعة من حيث أتت.
– أهي زوجتك؟ سأله جونز.
– هي وسيلة لرفاهيتي، وما شأنك أنت؟ إلتقيتها في حيّ بائس واصطحبتها معي حين سافرتُ. من هنا...

ثمّ سار بنا في الردهة لندخل المطبخ، وهو كناية عن غرفة تشبه الكهوف فيها ثلاثة أشخاص منهمكون بالعمل. وهناك رأينا أنّ كلايتون قد أخرج الآنية الفضيّة وأخذ بتلميعها قطعة بعد أخرى بعناية فائقة. كان الفتى الأصهب الشعر صبيًّا هزيلًا، على وجهه آثار الجدري، ولا يشبه بيري أبدًا. وقد جلس في حجرة المطبخ الخلفيّة يقشّر الخضار. وكانت امرأة قاسية الملامح، يخطّ الشيب شعرها وتضع حول وسطها مئزرًا، تحرّك الطعام في قدر كبيرة على موقد الطهو، فيما عبقت الغرفة كلّها برائحة الكاري. كانت أرض المطبخ ورفوفه وطاولاته قد فُركت كلّها بعناية، والتمع بلاطه الأبيض والأسود بالنظافة التامّة. ورأيتُ نافذتين كبيرتين وبابًا ذا ألواح زجاجيّة تطلّ على الحديقة، ما يسمح بدخول الضوء الطبيعيّ. وبرغم ذلك كلّه شعرت بأنّ هذا المكان يوحي بالغمّ. فكما في بقيّة حجرات المنزل كانت القضبان الحديديّة تعيق النوافذ، والأبواب مقفلة، لدرجة أنّ من السهل الاعتقاد أنّ هؤلاء الأشخاص محتجزون هنا بالرغم من إرادتهم.

توقفوا عن القيام بعملهم حين دخلنا، ونهض غلام المطبخ. وقف لافيل في فتحة الباب، وكتفاه العريضتان تكادان تلامسان إطارها، وتمتم قائلًا: «هذان الرجلان يريدان مكالمتكم». وكأنّما لا حاجة به إلى مزيد من الشرح.

– شكرًا، سيّد لافيل، قلت. وبما أنّنا نعرف مدى انشغالك، لن نطلب منك البقاء. يستطيع كلايتون إرشادنا إلى الخارج حين ننتهي.

لم يسرّه هذا الأمر كثيرًا، ومع ذلك فقد غادر المطبخ. لم يقل جونز شيئًا لكنّني لاحظت شعوره بالمفاجأة لصرفي لافيل على هذا النحو. وخطر ببالي أنّني تصرّفت بشيء من التهوّر. لكنّ هذا التحقيق يخصّني أيضًا، وبرغم إعجابي الكبير بجونز، فقد كان لي بالتأكيد الحقّ في إثبات وجودي.

– أدعى المفتّش أثيلني جونز، بدأ رفيقي كلامه. وأحقّق في أمر رجل اسمه كلارنس ديفرو. هل يعني لكم هذا الاسم شيئًا؟

لكنّ أحدًا منهم لم يقل شيئًا.

– بُعيد الثانية من بعد ظهر أمس، شاهدتُ فتى يدخل هذا المنزل، بعدما تبعتُه من شارع ريجنت، وكان يرتدي سترة زرقاء ويعتمر قبّعة. أرى أنّ درب الدخول تفضي إلى هذه القاعة مباشرة. هل كان أحدكم هنا حين دخل؟

– كنت هنا طوال بعد الظهر، تمتمت الطاهية. لم يكن في المطبخ سواي وطوماس، ولم نرَ أحدًا.

هزّ طوماس، أي غلام المطبخ، برأسه علامة الموافقة.

– ماذا كنت تفعلين؟ سألتها.

– أطهو! قالت وهي تنظر إليّ بوقاحة.

– الغداء أو العشاء؟

– كلاهما!

– وماذا تطهين الآن؟

– السيّد والسيّدة لافيل خارجان اليوم. هذا الطعام للمساء. وهذه الخضر... ومالت برأسها ناحية طوماس... هي للغد. وغدًا نبدأ العمل لليوم التالي!

– لم يأتِ أحد إلى هذا المنزل، قال كلايتون مقاطعًا. لو أنّ الجرس قد دُقّ لأجبت. كما أنّنا لا نستقبل زوّارًا كثيرين هنا، فالسيّد لافيل لا يشجّعهم على القدوم.

– لم يأتِ الفتى من المدخل الأماميّ، قلتُ. بل من باب الحديقة.

– هذا غير ممكن، قال كلايتون. فهو مقفل من الجهتين.

– أودّ رؤيته.

– لماذا؟

– لا أظنّ أنّ من شأنك طرح الأسئلة يا كلايتون، بل عليك فقط أن تفعل ما أطلبه منك.

– حسنًا يا سيّدي.

وضع من يده الشوكة التي يلمّعها وسار متثاقلًا إلى خزانة الأطباق، وهي قطعة أثاث ضخمة جدًّا تشغل جدارًا بكامله. شاهدت بقربها لوحًا عُلِّقت عليه أكثر من عشرة مفاتيح. فاختار أحدها بعناية، ثمّ استعمله لفتح باب المطبخ، بإدخاله في قفل آخر من الأقفال المعقّدة التي تضمن سلامة المنزل. وخرجنا نحن الثلاثة، أي جونز وكلايتون وأنا، إلى الحديقة. كانت درب متلويّة تقود إلى البوّابة الخشبيّة في نهاية الحديقة، تمرّ وسط العشب ومساكب الأزهار. خُيّل إليّ أنّ تلك الأزهار زرعها قاطنو المنزل السابقون، لأنّ توزيعها كان في الماضي جميلًا ومتناسقًا، لكنّ الإهمال قد نال منها. سرتُ في المقدّمة وتلاني كلايتون، ولحق بنا جونز وهو يعرج. وصلنا إلى الباب الذي شاهدناه من الخارج، ورأينا أنّ له، إضافة إلى القفل المعقّد، مشباكًا حديديًّا ذا قفل ثانٍ من الداخل، يثبّت الباب بإطاره. بدا من الصعب جدًّا تسلّق الجدار الذي تعلوه رزّات حادّة إضافة إلى أنّه يظهر تمامًا من المنزل. كما أنّ أحدًا لم يقفز من أعلاه إلى الحديقة، وإلّا لظهرت في العشب آثار الأقدام.

– هل لديك مفتاح هذا القفل؟ سأل جونز وهو يشير إلى المشبك الحديديّ.

– إنّه في المنزل، أجاب كلايتون، لكنّ هذه البوّابة لا تُستعمَل أبدًا يا سيّد جونز، برغم ما قد تقوله أنت والسيّد الآخر. نحن حذرون جدًّا في هذا المنزل. لا أحد يدخل إلّا عبر الباب الأماميّ، ونحتفظ بالمفاتيح في مكان آمن. وأضاف بعد تريّث: هل تريدني أن أفتحه؟

– قفلان، واحد من الداخل، والآخر من الخارج، قلتُ معلّقًا. وبرأيي أنّ كليهما أضيف مؤخّرًا. ممّ يخشى ربّ عملك؟

– السيّد لافيل لا يناقش شؤونه معي، أجابني كلايتون هازئًا. هل اكتفيتَ بما رأيته؟

لاحظت أنّه يتعمّد مخاطبتي بأسلوب وقح. فبرغم أنّه التقى أثيلني جونز في ماضيه، لم يكن يخشاني بتاتًا.

– لن أقول لك ما رأيته أم لم أره، أجبت.

لكنّه كان على حق، فما من داعٍ للبقاء وقتًا أطول. عدنا إلى المطبخ، ومن جديد كنت أوّل الواصلين، فرأيت الطاهية وغلام المطبخ وقد عادا إلى عملهما وكأنّهما نسيا حضورنا. كان طوماس في الحجرة الخلفيّة للمطبخ، وانضمّت إليه الطاهية العجوز، تختار البصل من أحد الرفوف بصلة بصلة وكأنّها تخشى أن تكون مزوّرة. في النهاية وصل جونز، فأقفل كلايتون الباب خلفه مجدّدًا وأعاد المفتاح إلى مكانه. كان واضحًا أنّ ما من شيء أكثر يُقال. ربّما كان بوسعنا أن نطالب بالسماح لنا بتفتيش المنزل بحثًا عن ساعي البرقيّات المفقود، لكن أيّ نتيجة تُرتجى من ذلك؟ إنّ مكانًا كهذا سيكون فيه مئة مخبأ، وربّما أيضًا أبواب سريّة. أومأ جونز برأسه لكلايتون، وانصرفنا.

– لا أظنّ الفتى دخل المنزل، قلت لجونز ونحن نقف من جديد خارج البوّابة الأماميّة.

– لماذا تعتقد ذلك؟

– فتّشتُ حول باب الحديقة، فلم أجد أيّة آثار أقدام، سواء لرجل أم لفتى. كما لم يكن بوسعه فتح الباب من الخارج بسبب وجود المشبك الحديديّ في الداخل.

– رأيتُ ذلك يا تشايس. وأوافقك الرأي على أنّه يبدو مستحيلًا وفقًا للأدلّة أن يدخل الفتى، ما لم يكن المشبك الحديديّ قد رُفع طبعًا في انتظار وصوله. ولكن فكّر في هذا: لقد لحقتُ به، فقادني توًّا وبغير إرادته إلى منزل سكوتشي لافيل، الرجل الذي تعرفه أنت، والشريك المشهور لكلارنس ديفرو. لا بدّ من أنّه أتى إلى هنا، طبعًا إلّا إذا كان ديفرو نفسه يقيم في مكان قريب. وكما قلت لك، محال أن يكون الفتى ذهب إلى مكان آخر. حين تقودنا الأدلّة إلى نتيجة ممكنة واحدة، فلا بدّ من أنّها الصحيحة مهما كانت بعيدة الاحتمال. أعتقد أنّ الفتى دخل المنزل، كما وأعتقد أنّه ربّما لا يزال فيه.

– إذًا ماذا سنفعل؟

– علينا الاتّصال بالسلطات المختصّة والعودة للقيام بتفتيش كامل.

– إذا عرف الفتى أنّنا نبحث عنه، فسيرحل.

– ربّما، لكنّني أودّ مكالمة امرأة لافيل. هنرييتا... ما كان اسمها؟ لعلّها أكثر منه توتّرًا لرؤية الشرطة. أمّا كلايتون، فلعلّ خوفه الشديد يمنعه من الكلام في الوقت الراهن، لكنّني سأجعله يتعقّل. صدّقني يا تشايس. سنجد في المنزل ما يرشدنا إلى المرحلة التالية من تحقيقنا.

– إلى كلارنس ديفرو!

– تمامًا. إذا كان بين الرجلين اتّصال، وهو أمر منطقيّ، فسنجد الصلة بينهما.

في اليوم التالي، عدنا فعلًا، ولكن ليس للقيام بالتفتيش الذي ذكره جونز. فحين أشرقت شمس النهار مجدّدًا فوق هايغايت هيل، كان منزل بلايدستون قد شهد جريمة مروّعة، غير مألوفة، ومحيّرة جدًّا.

الفصل السابع

دماء وظلال

كانت الخادمة هي التي اكتشفت الجثث وأيقظت الحيّ بصراخها في الصباح التالي. وخلافًا لما قاله لنا ربّ عملها، لم تكن الآنسة ماري ستاغ تقيم في المنزل. وذلك السبب البسيط هو ما جعلها تنجو من الموت. سكنت ماري وشقيقتها، التي تعمل أيضًا خادمة في قرية هايغايت، كوخًا ريفيًا ورثتاه عن والديهما. لم نرَها في منزل بلايدستون حين زرناه، لأنّه كان يوم إجازتها الأسبوعيّة وقد ذهبت وشقيقتها للتسوّق. وقد أتت مع شروق شمس الصباح التالي لتنظيف المواقد والمساعدة على إعداد الفطور، وفوجئت برؤية البوّابة والباب الأماميّين مفتوحين. كان على خلل كهذا في أمن المنزل أن ينبّهها إلى وجود خطب ما، لكنّها تابعت طريقها إلى الداخل لا يخالجها أيّ شكّ، ولعلّها راحت تصفر لحنًا، إلى أن وجدت أمامها مشهدًا من الرعب لن تنساه حتّى نهاية حياتها.

حتّى أنا كان عليّ المحافظة على رباطة جأشي فيما ترجّلت من العربة التي أُرسِلت لإحضاري. وكان أثيلني جونز ينتظرني عند الباب. نظرة واحدة ألقيتها على وجهه الذي ارتسمت عليه علامات الشحوب والاشمئزاز، كانت كافية لتنبيهي بأنّ ما ينتظرني هو مشهد من الرعب لم يسبق له أن رآه قطّ، برغم خبرته الطويلة.

– أيّ جحر أفاعٍ أثرناه يا تشايس؟ سألني حين رآني. حين أفكّر أنّنا بالأمس فقط كنّا هنا. هل زيارتنا هي التي أدّت بغير إرادتنا إلى حمّام الدم هذا؟

– لافيل...؟ سألته.

– كلّهم! كلايتون، والفتى الأصهب الشعر، والطاهية، والخليلة... كلّهم قتلوا.

– كيف؟

– سترى. أربعة منهم ماتوا في أسرّتهم. ربّما كان ذلك من حسن حظّهم. لكنّ لافيل... وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع: إنّها جريمة رهيبة مثلما حدث في سوالو غاردنز أو شارع بينشين... أسوأ الأسوأ.

دخلنا المنزل معًا، وكان فيه سبعة أو ثمانية من رجال الشرطة يتحرّكون ببطء وصمت في الظلمة وكأنّهم يتمنّون النجاة من ذلك المكان. والردهة التي بدت مظلمة حين دخلتها للمرّة الأولى أصبحت أشدّ ظلمة بكثير، وانبعثت منها الرائحة الثقيلة لدكاكين القصّابين. ولاحظت طنين الذباب، ورأيت في الوقت عينه ما يشبه بركة كبيرة من الزفت على الأرض.

«ربّاه!» هتفتُ ورفعتُ يدي إلى عينيّ، مغطّيًا إيّاهما جزئيًّا، وعاجزًا في الوقت عينه عن مواصلة التحديق في المشهد الذي ظهر أمامي.

كان سكوتشي لافيل جالسًا في أحد الكرسيّين الخشبيّين الثقيلين اللذين رأيتهما في اليوم السابق، وقد جُرّ إلى الأمام خصيصًا لهذه الغاية. كان يرتدي جلباب نوم حريريًّا يصل إلى كاحليه، وكانت قدماه عاريتين، ووُضع في مواجهة مرآة. لا شكّ بأنّ مَن فعل هذا أراده أن يرى ما سيحدث.

لم يقيَّد في مكانه، بل ثُبّت فيه بمسامير. وبرزت مربّعات حديديّة مسنّنة من ظهر يديه المكسورتين، اللتين ظلّتا حتّى في الموت قابضتين على ذراعي الكرسيّ، وكأنّهما مصمّمتان على عدم الإفلات. وكانت المطرقة التي استُعملت لهذه الغاية الوحشيّة ملقاة أمام المدفأة وبقربها إناء صينيّ مقلوب على جانبه. وعلى أرض المكان نفسه لاحظتُ وجود شريطين زاهيي اللون لا شكّ بأنّهما أُحضرا من غرفة النوم.

كان عنق سكوتشي لافيل قد قُطع بشكل متقن ووحشيّ بطريقة ذكّرتني بمبضع الجرّاح الذي تمتّع بيري باستخدامه لتهديدي في مقهى رويال. وتساءلتُ عمّا إذا كان جونز قد توصّل إلى الاستنتاج عينه، والذي لا يمكن تجنّبه. وهو أنّ طفلًا ربّما ارتكب هذه الجريمة الشنيعة... سوى أنّه لم يكن وحيدًا، لأنّ جرّ لافيل إلى هذا المكان تطلّب بلا شكّ شخصين على الأقلّ. وماذا عن بقيّة قاطني المنزل؟

– قُتلوا أثناء نومهم، تمتم جونز، وكأنّه قرأ أفكاري. الطاهية وغلام المطبخ، والمرأة التي ربّما كان اسمها هنرييتا. لا يبدو عليهم أيّ أثر للمقاومة. كان كلايتون ينام في قبو المنزل، وقُتل بطعنة اخترقت قلبه مباشرة.

– ولكن أما استيقظ أحد منهم؟ سألتُ. أتعني أنّهم لم يسمعوا شيئًا؟

– أعتقد أنّهم خُدِّروا.

إستوعبتُ هذه المعلومة الجديدة، ولكنّني حتّى فيما رحتُ أتكلّم، كنتُ على علم بأنّ جونز سبقني في التحليل.

– الكاري! هتفت. أتتذكّر يا جونز؟ سألتُ المرأة عمّا تطهوه فقالت إنّها تعدّ العشاء. لا شكّ بأنّهم كلّم تناولوا العشاء، وأيًّا كان مَن أتى إلى هنا... لم يجد أيّة صعوبة في إضافة مخدّر قويّ المفعول، لعلّه مسحوق الأفيون، وقد أخفته نكهة الكاري.

– لكن كان عليهم الوصول إلى المطبخ أوّلًا، تمتم جونز.

– علينا تفحّص الباب.

درنا حول الجثّة، مبتعدين عنها مسافة واضحة، لأنّ الدماء والظلال تداخلت كثيرًا، وكان علينا أن نحاذر أين ندوس. لم نستعد أنفاسنا إلّا حين وصلنا إلى المطبخ الذي بدا كملاذ نسبيّ. وللمرّة الثانية وجدُتني أتفحّص طاولة العمل النظيفة، وبلاط الأرض الناصع، والباب المفتوح للحجرة الخلفيّة حيث رفوف الأطعمة المخزّنة بترتيب. ووسط ذلك كلّه ظهرت قِدر الطهو التي احتوت الكاري مظلمة وفارغة مثل سِرّ مشين. كانت الخادمة التي نجت تجلس في تلك الغرفة، متقوقعة في كرسيّ وتبكي في مئزرها، تحت مراقبة شرطيّ.

– هذا أمر سيّئ، سيّئ جدًّا، قلتُ.

– لكن مَن يرتكب جريمة كهذه ولماذا؟ يجب أن يكون هذا الأمر الهدف الأوّل لتحقيقنا.

بدا لي أنّ جونز، وقد أثارت الجريمة الوحشيّة اضطرابه، يحاول استعادة الهدوء الذي تميّز به حين كنّا معًا في مايرنغن، إذ أضاف قائلًا:

– نعرف أنّ سكوت لافيل – أو سكوتشي لافيل – كان عضوًا في عصابة يرئسها كلارنس ديفرو.

– لا شكّ في ذلك.

– وقد رتّب لقاء مع البروفسور جايمس موريارتي، وأرسل لتلك الغاية الفتى بيري إلى مقهى رويال. كان هناك رجل يزعم أنّه موريارتي، إلّا أنّ تلك الخدعة فشلت، وعلم الفتى أنّك لستَ من تدّعي هويّته...

– ... بسبب غربان البرج.

– إنتهى الأمر. قام الفتى برحلة طويلة إلى هايغايت، وأفاد مرسليه بما حدث معه. لن يُعقد اجتماع، بل لعلّ موريارتي مات. هذا ما استنتجه هؤلاء الأشخاص.

– ثمّ ظهرنا نحن.

– نعم. رجلا تحرٍّ من دولتين مختلفتين، وكنّا على علم بأمر الفتى، وطرحنا أسئلة. لكنّ حقيقة الأمر يا تشايس هي أنّنا لم نتقدّم كثيرًا. أتخيّل أنّ لافيل ابتسم حين انصرفنا.

– لكنّه لا يبتسم الآن، قلت، مستغرقًا بفكرة أنّ الحزّة الحمراء الكبيرة في عنقه، كانت على صورة ابتسامة شيطانيّة.

– لماذا قُتل؟ لماذا الآن؟ لكن إليك دليلنا الأوّل إلى ما جرى ربّما. الباب غير مقفَل.

كان أثيلني جونز على حقّ. فالباب المؤدّي إلى الحديقة، والذي شاهدنا كلايتون يفتحه ويغلقه بمفتاح أخذه عن اللوح بقرب خزانة الأطباق، كان مفتوحًا. أدار جونز المقبض، ثمّ تبعتُه وأنا أحمد الله على الهواء النقيّ، إلى عشب الحديقة المُهملة التي اجتزناها في اليوم السابق.

سرنا معًا بمحاذاة السور ورأينا في الحال أنّ الباب البعيد كان أيضًا مفتوحًا. كان القفل المعقّد مفتوحًا من الخارج، وثُقبت في الخشب دائرة على ارتفاع القفل الداخليّ تمامًا، الذي تمّ قصّه وإزالة المشباك الحديديّ. راح جونز يتفحّص كيف تمّ ذلك. ثمّ قال:

– يبدو القفل المعقّد غير متضرّر. لو أنّ الفاعلين نجحا بفتحه لاعتبرتُهما صاحبَي مهارات تفوق مهارة أيّ لصّ عاديّ أو لصّ يدخل عبر الحدائق. لكنّهما ليسا من تلك الفئة، وهذا مؤكّد. من المحتمل أنّهما حصلا على نسخة عن المفتاح. سنرى. أمّا القفل الآخر، أي قفل المشباك، فهو ذو أهمّية خاصّة. سترى أنّهما ثقبا دائرة في الباب، ربّما باستعمال ثقّابة بشفرتين أو ثلاث، لا تصدر ضجيجًا كبيرًا. لكن انظر إلى حيث ثقبا الدائرة.

– على ارتفاع القفل تمامًا، قلت.

– تمامًا. جرى قياس المكان بدقّة، واستُعملت ثقّابة ثانية لقصّ الإطار فظهرت الآليّة الداخلية للقفل. إنّه عمل احترافيّ، لكنّه ما كان ليكون ممكنًا لولا أنّ الفاعلين وقفا حيث نحن الآن وسجّلا بدقّة المكان الصحيح للقفل.

– لعلّ شخصًا من داخل المنزل عاونهما.

– كلّ مَن بداخل المنزل ما خلا الخادمة قد ماتوا. أنا أكثر ميلًا إلى الاعتقاد بأنّهما تصرّفا بدون مساعدة.

– تتحدّث عن فاعلين، حضرة المفتّش جونز. هل أنت واثق من وجود أكثر من شخص واحد؟

– بدون شكّ، هذه آثار، قال لي. ونظرت إلى حيث أشار بعصاه، فرأيت آثار أقدام لشخصين، تتّجه متحاذية من السور نحو المنزل. ثمّ تابع يقول: آثار أقدام رجل وفتى. ترى أنّ الفتى غير عابئ، وهو يكاد يتنزّه. أمّا الرجل فقد ترك آثارًا أعمق. وهو طويل القامة بما لا يقلّ عن مئة وثمانين سنتمترًا، وينتعل جزمة غير عاديّة. أترى أثر مقدّمة الحذاء المربّعة؟ كان يسير متمهّلًا، فيما سار الفتى مسرعًا.

– الفتى يعرف هذا المكان.

– صحيح أنّ مشيته قد تدلّ إلى معرفته بالمكان. لاحِظ أيضًا أنّه سلك طريقًا مباشرًا إلى المطبخ. أعتقد أنّ ليل أمس كان مقمرًا، لكنّه لم يخشَ أن يُرى.

– كان يعلم أنّ قاطني المنزل نائمون.

– مخدّرون، ويغطّون في نوم عميق. تبقى مسألة كيفيّة دخوله المنزل، لكنّني أظنّه تسلّق مزرابًا ودخل عبر الطابق الثاني.

فتح أثيلني جونز منظار عصاه واستخدمه لمعاينة الجزء الأعلى من البناء. وفعلًا رأى مزرابًا رفيعًا بجانب باب المطبخ، ما كان ممكنًا أن يتحمّل وزن رجل بالغ. وربّما لهذا السبب لم يرَ لافيل فيه عيبًا يشوب تدابير الحماية في المنزل. لكنّ المسألة تختلف تمامًا بالنسبة إلى طفل، وحالما يصل إلى الطابق الأوّل...

– النوافذ غير مغلقة بالمزلاج، تابع جونز يقول. كان يكفي أن يُمرّر سكّينًا في داخل الإطار. وبعد ذلك ينزل الدرج ويفتح الباب ليدخل شريكه.

– الفتى الذي نتكلّم عنه... لا بدّ من أنّه هو نفسه، قلت.

– بيري؟ بدون أدنى شكّ. قال أثيلني جونز وهو يخفض العصا: في العادة، لا أميل إلى ربط الأطفال بجرائم مروّعة كهذه، لكنّني رأيت ما فعله معك، ورأيتُ السلاح الذي كان يحمله. وهو أتى إلى هنا، فقد تبعته بنفسي. دخل عبر باب الحديقة، وتوجّه إلى المطبخ ورأى الطعام الذي يجري إعداده بالكاري. لا شكّ بأنّه أعدّ لعمليّته آنذاك، بنيّة العودة في المساء مع شريكه. لكن يبقى سؤال واحد: لماذا كذب علينا لافيل؟ لماذا زعموا كلّهم أنّ الفتى لم يأتِ إلى هنا؟ لقد أرسلوه للقائنا. لا سبب آخر لمجيئه إلى مقهى رويال. لكن، حين عاد بمفرده، ماذا حدث؟

– وإذا كان يعمل لحساب لافيل، لماذا انقلب على سيّده وشارك في جريمة قتله؟

– رجوتُ أن تلقي أنت الضوء على هذا، عملك في أميركا...

– لا يمكنني سوى أن أكرّر ما سبق أن أخبرتك إيّاه، حضرة المفتّش. المجرم الأميركيّ لا يميّز بين الأشخاص ولا يمتلك حسّ الإخلاص. قبل وصول كلارنس ديفرو إلى ما وصل إليه، كان يعمل منفردًا بدون تنظيم أو هيكليّة.

وحتّى فيما بعد، ظلّ شرّيرًا وغدّارًا وذا خطوات غير متوقّعة. غالبًا ما كانت الجرائم في نيويورك على قدر هذه الجريمة من الدمويّة والغموض. قد يختلف شقيقان على أتفه الأمور، وينتهي أحدهما أو كلاهما حتّى، بالموت. وكذلك حال الشقيقات. هل ترى الآن؟ حاولتُ تحذيرك. هذه الأحداث في منزل بلايدستون ليست سوى البداية، وإشارات الإنذار الأولى إلى السمّ الذي دخل شرايين بلدك. لعلّ ديفرو هو المسؤول. ولعلّ زيارتنا إلى هنا – ويمكنك التأكّد من أنّه علم بأمرها – كانت كافية لإقناعه بضرورة إسكات لافيل. لا أعلم. هذا كلّه يثير فيّ الغثيان. لكنّني أخشى كثيرًا أن يُسفك مقدار أكبر بكثير من الدماء قبل وصولنا إلى الحقيقة.

لم يعد من جدوى لبقائنا وقتًا أطول في الحديقة، عدنا على مضض لدخول المنزل الذي شهد المذبحة. وجدنا الناجية الوحيدة، أي ماري ستاغ، لا تزال في المطبخ، لكنّها لم تكن تملك الكثير لتخبرنا إيّاه.

– كنت أعمل لحساب السيّد والسيّدة بلايدستون، قالت لنا وهي تبكي. وسأكون صريحة معكما أيّها السيّدان: كنت أكثر سعادة حينذاك، فعائلة بلايدستون كانت عائلة صالحة، يعرف المرء مصيره معها. إلّا أنّ السيّد بلايدستون مات، وأعلنوا نيّتهم عرض المنزل للإيجار في مطلع العام. فأقنعتني السيّدة بلايدستون بأن أبقى، قائلة إنّها بذلك ستطمئنّ إلى أنّ المنزل يحظى بالعناية اللائقة.

لكنّني ومنذ البداية لم أحبّ السيّد الأميركيّ. فقد كان سيّئ الطباع وسليط اللسان، ويستخدم كلمات لا تليق بسيّد نبيل. كانت الطاهية أوّل الراحلين، فهي لم تتحمّله. ثمّ قرّر السيّد سايكس أنّه اكتفى، فحلّ محلّه السيّد كلايتون، الذي لم أحبّه كثيرًا هو الآخر. وكنت أقول لآني، وهي شقيقتي، إنّني أفكّر في تقديم استقالتي. والآن هذا!

– هل كانت بوّابة الحديقة تبقى دائمًا مقفلة؟ سأل جونز الخادمة بعدما استعادت شيئًا من هدوئها.

– دائمًا يا سيّدي، كلّ الأبواب والنوافذ. منذ وصول السيد لافيل إلى هنا، كان في غاية الوضوح حيال هذا الأمر: يجب أن يُقفَل كلّ شيء، وتُحفظ

كلّ المفاتيح في مكانها. كما لم يكن أحد يأتي إلى باب المنزل، ولا حتّى عامل التسليم، إذا لم يستقبله السيّد كلايتون. في عهد السيّد بلايدستون كان المنزل مفتوحًا للضيوف في ولائم العشاء، في الحفلات... كم كان منزلًا سعيدًا جدًّا آنذاك. لكن في أشهر قليلة فقط، حوّله السيّد لافيل إلى ما يشبه السجن، حيث كان هو السجين الأوّل، لأنّه نادرًا ما خرج من المنزل.

– والسيّدة لافيل؟ هل كنت تتواصلين معها؟

إنتفضت الخادمة، ولم تستطع إخفاء نظرة الاشمئزاز التي علت وجهها. آنذاك فهمت كم بات وضعها صعبًا بعد وصول سكوتشي وزمرته.

– معذرة يا سيّدي، لكنّني غير متأكّدة من أنّهما كانا متزوّجين. درجنا فقط على مناداتها «سيّدتي»، وهي لا تملك من مزايا السيّدات شيئًا. فلا شيء يعجبها. لكنّها كانت تفعل ما يقوله لها السيّد لافيل، ولا تخرج من المنزل إلّا بإذن منه.

– ألم يكن يقصد المنزل زوّار؟

– كان سيّدان اثنان يأتيان بين الحين والآخر. لم أرَهما كثيرًا. كانا طويلَي القامة وقويّي البنية وأسودي الشعر، ولأحدهما شاربان. ولولا ذلك لما استطعتُ التفريق بينهما. من المؤكّد أنّهما شقيقان.

– ليلاند وإدغار مورتلايك، تمتمتُ.

– هل سمعت باسم رجل يدعى كلارنس ديفرو؟ سألها جونز.

– لا يا سيّدي. إلّا أنّ ثمّة رجلًا آخر كانوا يتكلّمون دائمًا عنه، وحين يفعلون ذلك، فبصوت منخفض. لكنّه لم يأتِ إلى هنا قطّ. سمعتُ اسمه في أحد الأيّام، ولم أنسَه بعد ذلك. ثمّ توقّفت الخادمة، وأخذت تبرم منديلها في يديها قبل أن تضيف: كنت أمرّ بالمكتب فيما السيّد لافيل يكلّم السيّد كلايتون... على الأقلّ، أظنّه مَن كان يكلّمه. لم أستطع أن أرى، كما أنّه لا يليق بي أن أسترق السمع. لكنّهما كانا مسترسلين في الحديث، وسمعت السيّد لافيل يقول: «يجب أن نكون مستعدّين دائمًا لموريارتي». أجهل لما أثّر فيّ الأمر كلّ ذلك التأثير. ولاحقًا، مازحني السيّد كلايتون حين تركت الباب مفتوحًا ذات مرّة، فقال: «يجب ألّا تفعلي هذا يا ماري، وإلّا نال منك

البروفسور موريارتي». إنّه اسم فظيع. أحيانًا كان يخطر ببالي فيما أحاول النوم، فلا أستطيع التوقّف عن التفكير فيه. بدا لي أنّ المنزل كلّه يخاف موريارتي هذا، ولسبب وجيه، كما ترى الآن!

لم يكن لدى ماري ستاغ ما تقوله لنا أكثر من هذا. وبعدما حذّرها أثيلني جونز من أن تكشف لأحد حقيقة ما حدث، أرسلها إلى المنزل بمواكبة شرطيّ. كان واضحًا أنّ تلك المرأة الطيّبة القلب تستعجل مغادرة المنزل، وشككتُ في أنّها ستعود إليه يومًا.

– هل يمكن موريارتي أن يفعل هذا؟ سألتُ.

– موريارتي مات.

– لعلّ له شركاء، وزملاء في الإجرام، وأفراد في عصابته. رأيتَ الطريقة التي قُتل بها لافيل، حضرة المفتّش جونز. برأيي أنّ الأمر ليس أقلّ من رسالة مكتوبة بالدم، أُرسِلت بمثابة إنذار.

فكّر جونز قليلًا، وأضاف:

– قلتَ لي إنّ موريارتي وديفرو خطّطا للّقاء، ولتأسيس عصابة إجراميّة.

– صحيح.

– لكنّهما لم يلتقيا قطّ. عرفنا هذا من الرسالة المرمّزة التي وجدناها في مايرنغن. وحسبما نعلم، لم تكن بينهما أيّة أعمال. فلماذا قد يرغب أحدهما في قتل الآخر؟

– لعلّ ديفرو كان له شأن بما حدث في شلّالات رايشنباخ.

– في الوقت الراهن، لا شيء يبدو منطقيًّا، قال جونز وهو يهزّ رأسه بتعب. أحتاج إلى وقت للتفكير ولتنقية أفكاري، لكن ليس هنا. أمّا الآن فعلينا تفتيش المنزل لنرى أيّة أسرار قد تشي بها لنا غرفه المختلفة.

وهكذا، بدأنا المهمّة المشؤومة التي بدت شبيهة باستكشاف سراديب الأموات. كان كلّ باب ينفتح على جثّة جديدة. بدءًا بطوماس غلام المطبخ، الذي أغمض عينيه للمرّة الأخيرة في غرفة حقيرة عارية الجدران والأرض، بالقرب من حجرة المطبخ الخلفيّة. من الواضح أنّ منظره ملقىً هناك وهو لا يزال في ملابس العمل، وقدماه العاريتان على شرشف السرير، قد أثّر

في جونز. وتذكّرت أنّ له ابنة ربّما لا تصغر هذا الطفل القتيل إلّا بسنوات قليلة فقط. مات طوماس مخنوقًا بحبل لا يزال حول عنقه. من هناك، هبطنا درجات خمس أو ستٌّ إلى غرفة في القبو عاش فيها كلايتون ومات. رأيناه وقد استقرّ في قلبه سكّين ربّما أُخذت من المطبخ، فبدا يثبّته في سريره كما تُثَبّت الحشرات في المختبرات. صعدنا بقلب حزين إلى العليّة، حيث كانت الطاهية، والتي عرفنا أنّ اسمها السيّدة وينترز، ترقد عابسة في مماتهما كما حالها في حياتها. وقد ماتت هي الأخرى مخنوقة بحبل.

– لماذا كان يجب أن يموتوا كلّهم؟ سألتُ. صحيح أنّهم عملوا لحساب لافيل، لكنّهم أبرياء طبعًا.

– لم يكن بوسع قاتلَيهم المجازفة بتركهم يستفيقون، تمتم جونز. فبموت لافيل لا يعود لديهم سبب لكتمان ما يعرفونه. بهذه الطريقة، مُنعوا من مكالمتنا.

– الغلام والمرأة قُتلا خنقًا بحبل، لكنّ كلايتون طُعن.

– هو كان أقواهم. وبرغم تخديره، من المرجّح أنّ يكون قد استيقظ. لم يرد القاتلان أن يخاطرا، فاستعملا سكّينًا لقتله.

أدرت رأسي مبتعدًا، بعدما رأيت ما يكفي. وسألت:

– إلى أين الآن؟

– إلى غرفة النوم.

كانت المرأة الناريّة الشعر التي ناداها لافيل سابقًا «هِن» ملقاة على فراش من ريش الإوزّ، ترتدي قميص نوم من القماش القطنيّ الورديّ اللون، وحول عنقها وكمّيها كشاكش. بدا أنّ الموت زاد على عمرها عشر سنوات. كانت ذراعها اليسرى ممدودة في اتّجاه الرجل الذي مُدِّد بجانبها، وكأنّه لا يزال قادرًا على مساعدتها.

– خُنقت بالوسادة، قال جونز.

– ما أدراك؟

– على الوسادة آثار أحمر شفاه. الوسادة هي سلاح الجريمة. يمكنك أيضًا رؤية التكدّم حول الأنف والفم، حيث ضُغط بالوسادة.

– أيّها الربّ الرحيم، تمتمت. ثمّ نظرت إلى المسافة الخالية حيث تراجع غطاء السرير، وسألت جونز: ماذا عن لافيل؟

– هو سبب هذا كلّه.

فتّشنا الغرفة تفتيشًا سريعًا، لكنّنا لم نجد فيها الكثير. كانت هِن مولعة بالحليّ الرخيصة والملابس الباهظة، فالخزائن امتلأت بفساتين الحرير والتفتا. كما كان في حمّامها عطور وأدوات تبرّج أكثر ممّا في الطابق الأوّل في متاجر «لورد وتايلور» في برودواي. ذكرتُ ذلك لجونز. لكنّ الحقيقة أنّ كلينا كان يعلم أنّنا نؤجّل ما هو محتوم. بقلب مثقل عدنا للنزول إلى الطابق السفليّ.

جلس سكوتشي لافيل في انتظارنا، وحوله بعض رجال الشرطة يروحون ويجيئون متمنّين لو أنّهم في أيّ مكان سوى هذا. نظرت إلى جونز وهو يعاين الجثّة، منحنيًا على عصاه، وحريصًا على البقاء على مسافة منها. تذكّرتُ الغضب والعدائيّة اللذين قوبلنا بهما في اليوم السابق. «أتريدان حشر أنفيكما هنا؟» لو أنّ سكوتشي كان أكثر ودًّا، هل كان لينجو من قدره هذا؟

– لقد حُمل إلى هنا، وهو نصف واعٍ، قال جونز متمتمًا. ثمّة أدلّة كثيرة إلى ما حدث. في البداية، أزيحَ الكرسيّ وقُيّد إليه.

– الشريطان!

– لا تفسير آخر لوجودهما هنا. لا شكّ بأنّ القاتلين أحضراهما من غرفة النوم لهذه الغاية. قيّدا لافيل إلى الكرسيّ. وبعدما تأكّدا من أنّ كلّ شيء يجري كما يريدان، ألقيا ماء على وجهه لإيقاظه. مع كلّ هذه الدماء من الصعب أن نرى، لكنّني أظنّ أنّ ياقة قميصه الليليّ وكمّيه مبلّلة. بأيّة حال لدينا دليل آخر، وهو الإناء المقلوب الذي أُحضِر من المطبخ، حيث رأيته أمس.

– وماذا حدث بعدئذ؟

– إستيقظ لافيل. لا شكّ عندي بأنّه عرف المعتديين، أقلّه الفتى، فلا بدّ من أنّه التقاه من قبل. صمت جونز عن الشرح لبرهة قبل أن يضيف: من الخطأ أن أصف الأمر لك هكذا. لا شكّ عندي بأنّك لاحظت بنفسك كلّ التفاصيل.

– لاحظتُها نعم، أجبت. لكنّني لا أملك السهولة التي تستطيع بها أن تستكمل الصورة، حضرة المفتش. أرجو منك أن تواصل كلامك.

– حسنًا، جلس لافيل مقيّدًا وعاجزًا. ولم يكن يدري أنّ كّل مَن في منزله قد قُتلوا. وآنذاك بدأت محنته هو. طلب منه الرجل والفتى معلومات، وبدأ بتعذيبه.

– دقّا المسامير في يديه لتثبيتهما بالكرسيّ.

– بل فعلا أكثر من ذلك. لا أطيق الاقتراب لأتفحّصه عن كثب، لكنّني أظنّهما استعملا المطرقة عينها لكسر ركبته. أنظر إلى شكل قميصه الليليّ. كما أنّهما حطّما كاحل قدمه اليسرى.

– هذا مثير للقرف، ومريع. أتساءل عمّا كانا يريدان أن يعرفا.

– مسائل تتعلّق بالعصابة التي يعمل لها.

– وهل تكلّم؟

فكّر جونز ثمّ أجاب:

– من شبه المستحيل أن نجزم بذلك، لكنّ علينا الافتراض أنّه تكلّم. فلو لزم الصمت لبدت عليه آثار تعذيب أشدّ هولًا، بلا شكّ.

– ومع ذلك قتلاه.

– أتخيّل أنّ الموت أراحه من عذابه، قال جونز متنهّدًا. لم أرَ جريمة كهذه في إنكلترا قطّ. حين وصلت إلى هنا، تذكّرت جرائم وايتشابل، وكانت بربريّة وعنيفة. لكنّها خلت من الوحشيّة والإعداد بدم بارد اللذين نراهما هنا.

– والآن، إلى أين؟

– إلى المكتب، حيث استقبلنا لافيل.إذا كانت لديه رسائل أو وثائق مهمّة، فقد نجدها هناك.

عدنا إلى تلك الغرفة. كانت الستائر قد فُتحت قليلًا بما يسمح بدخول بعض الضوء، ومع ذلك بدت الغرفة بغياب مالكها مظلمة ومتروكة، وكأنّها في منزل هُجر منذ زمن بعيد. مع أنّه في الأمس فقط كان المكتب والكرسيّ مسرحًا لعب عليه ممثّلنا الرئيسيّ دوره. إلّا أنّهما باتا بلا جدوى، وبدت الكتب

المهمَلة لا تليق بالمكان، أكثر من أيّ وقت سابق. مع ذلك فتّشنا الأدراج والرفوف. كان جونز أكيدًا من أنّ سكوتشي لافيل قد ترك خلفه شيئًا قيّمًا.

لكنّي لم أشاركه ذلك الرأي. فقد كنت أعلم أنّ أيّة عصابة يقودها رجل مثل كلارنس ديفرو لن تجازف في مسألة تتعلّق بحمايتها. ولن يُسدى إلينا معروف إلقاء رسائل في سلال المهملات، أو كتابة عناوين واضحة على ظهور الظروف. لقد صُمّم هذا المنزل كلّه خصيصًا ليتحفّظ على أسراره ويُبقي العالم بعيدًا عنه. وصف لافيل نفسه بأنّه مستشار استثمارات، لكنّ الغرفة خلت من أيّ دليل يؤكّد ذاك الزعم. كان رجلًا خفيًّا لا ماضيَ له ولا مستقبل. ولا بدّ من أنّه يحمل معه إلى القبر خططه أو استراتيجيّاته أو مؤامراته.

جاهد أثيلني جونز لإخفاء خيبة أمله، فكلّ الأوراق التي عثرنا عليها كانت بيضاء. كما وجدنا دفتر شيكات لا تسجيل لسحوبات فيه، وحفنة من الإيصالات المتعلّقة بشؤون منزليّة تافهة، وبعض رسائل الاعتماد والسندات التي بدت قانونيّة تمامًا، ودعوة إلى حفلة استقبال في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة «للاحتفال بمشاريع الأعمال الأميركيّة والبريطانيّة المشتركة». لكن، حين راح جونز يتصفّح مفكّرة لافيل، ويقلب الصفحة الفارغة تلو الأخرى، توقّف فجأة ولفت نظري إلى كلمة واحدة ورقم، كُتبا بالأحرف الكبيرة وأُحيطا بدائرة:

هورنر 13

– ماذا تفهم من هذا؟ سألني.

– هورنر؟ تساءلتُ. ألعلّه يشير إلى بيري؟ له من العمر نحو ثلاثة عشر عامًا.

– أظنّه أكبر سنًّا.

ثمّ بحث جونز في عمق الدُرج، ووجد شيئًا. وحين أخرج يده، رأيته يحمل صابونة حلاقة جديدة لا تزال ملفوفة بالورق. وقال ملاحظًا:

– مكان غريب للاحتفاظ بصابونة.

– أتظنّ أنّ لها معنى ما؟

– ربّما، لكنّني لا أعرف ما هو.

– لا شيء لنا هنا، قلت. بدأت أندم على اكتشافنا هذا المنزل. فالأسرار والموت تكتنفه، وهو لا يقودنا إلى أيّ مكان.

– لا تفقد الأمل، أجاب جونز. قد تكون دربنا صعبة، لكنّ عدوّنا أظهر نفسه. على الأقلّ اتّضحت خطوط القتال.

ما كاد ينهي كلامه حتّى قوطعنا بجلبة مصدرها الردهة. فقد أتى بعضهم إلى المنزل، وكان رجال الشرطة يحاولون منعهم من التقدّم. علت بعض الأصوات غضبًا، ومن بينها صوت عرفت من لكنته أنّه لأميركيّ.

سارعت وجونز في الخروج من المكتب لنجد رجلًا نحيلًا متراخي البنية، وخصلات شعره السوداء المدهنة تلتصق على جبينه، وله عينان صغيرتان وشاربان مشذّبان يتدلّيان فوق شفته. إذا كان سكوتشي لافيل قد أوحى بالعنف، فلهذا الرجل هيئة التهديد المدروس. كان مستعدًّا للقتل، لكن ليس قبل التفكير في الأمر. وقد تركت سنوات السجن الكثيرة آثارها عليه، لأنّ بشرته كانت شاحبة على نحو غير طبيعيّ، وتشبه الجثث. وزاد في إبراز شحوبه زِيّه الأسود كلّيًا – السترة الضيّقة والحذاء الجلديّ اللمّاع – كما حمل عصا للمشي، سوداء أيضًا، يشهرها كسلاح تقريبًا، لإبعاد رجال الشرطة الذين تحلّقوا حوله بهدف دفعه إلى الخلف. لكنّه لم يأت وحيدًا. فقد دخل المنزل معه ثلاثة شبّان ووقفوا يحيطون به. مشاغبون، كما بدوا، وأعمارهم نحو عشرين عامًا، وجوههم شاحبة، ملابسهم رثّة، ينتعلون جزمات، ويحملون عصيًا.

شاهدوا كلّهم ما حلّ بسكوتشي لافيل. كيف يمكن ألّا يشاهدوا ذلك؟ كان الرجل يحملق في الجثّة برعب واشمئزاز، وكأنّ حدوث أمر كهذا يشكّل إهانة شخصيّة له.

– ماذا جرى هنا؟ سأل، ثمّ التفت إلى جونز حين خرج من المكتب وسأله: مَن أنت؟

– أدعى أثيلني جونز. وأنا رجل تحرٍّ من سكوتلانديارد.

– رجل تحرٍّ! كم هذا رائع! لكن ألا تظنّ أنّك وصلت متأخّرًا قليلًا؟ أتعرف مَن فعل هذا؟

كان هو صاحب اللكنة التي سمعتُها. لم يوازِ لافيل في سلاطة اللسان، لكن بدا واضحًا أنّه قادم من نيويورك أيضًا.

– وصلت إلى هنا منذ فترة قصيرة. هل تعرف هذا الرجل؟

– نعم.

– ومَن أنت؟

– لستُ واثقًا من أنّني أنوي الإفصاح لك عن اسمي.

– لن تغادر هذا المنزل قبل أن تفصح عنه يا سيّدي.

إنتصب أثيلني جونز بقامته الكاملة، متّكئًا على عصاه، ونظر إلى عينَي الأميركيّ، وتابع يقول:

– أنا ضابط شرطة بريطانيّ، وأنت دخلت ساحة جريمة عنيفة وغامضة. إن كنت تملك معلومات، فمن واجبك إطلاعي عليها. وإذا رفضت، أعدك بأنّك ستقضي الليل في سجن نيوغايت، أنت والأشقياء الذين تحيط نفسك بهم.

– أعرف مَن هو، قلتُ. إسمه إدغار مورتلايك.

إلتفت مورتلايك بعينيه السوداوين الصغيرتين نحوي، وقال:

– أنت تعرفني، لكنّنا لم نلتقِ من قبل. ثمّ شمّ الهواء وسألني: من وكالة بينكرتون؟

– كيف حزرت؟

– أميّز هذه الرائحة في أيّ مكان. من نيويورك؟ أو من شيكاغو؟ أو ربّما من فيلادلفيا؟ لا بأس. في أيّ حال، أنت بعيد قليلًا عن ديارك، ألست كذلك أيها الفتى؟

إبتسم الأميركيّ بشيء من الزهو يثير القشعريرة. وبدا أنّه لا يكترث برائحة الدم ومنظر الجثّة المهشّمة والمشوّهة الجالسة في الغرفة عينها على مقربة منه.

– في أيّ شأن أتيت إلى هنا؟ سأله جونز.

– في شأن خاصّ بي، أجابه مورتلايك ساخرًا. وهو طبعًا لا يعنيك.

إلتفت جونز إلى أقرب شرطيّ إليه، وكان يشاهد هذا الحديث بقلق متزايد، وقال له:

– أريدك أن تعتقل هذا الرجل بتهمة إعاقة سير العدالة. سأجعله يمثل أمام القاضي اليوم. وإزاء تردّد الشرطيّ، تابع يقول: قم بواجبك.

لن أنسى تلك اللحظة أبدًا. كان جونز ومورتلايك يقفان متقابلين، يحيط بهما نحو ستّة رجال شرطة، يواجههم الفتيان المشاغبون. بدا المشهد أقرب إلى حرب توشك على أنْ تندلع. ووسط ذلك المشهد جلس سكوتشي لافيل صامتًا، وهو الذي كان بغير إرادة منه سببًا لما يجري، ومع ذلك فقد كان في تلك اللحظة منسيًّا تمامًا.

لكنّ مورتلايك هو الذي تراجع، فقال وهو يتصنّع ابتسامة قسريّة على وجهه الشبيه بوجه جثّة:

– لا داعي إلى هذا. لماذا أعيق عمل الشرطة البريطانيّة؟ وأضاف، وهو يرفع عصاه نحو الجثّة: كان بيني وبين سكوتشي عمل.

– قال إنّه مستشار استثمارات.

– هل هذا ما قاله؟ حسنًا، لقد مارس أعمالًا عدّة. كان مستثمرًا في نادٍ صغير أملكه في مايفير. يمكنك القول إنّنا شريكان في التأسيس.

– أهو نادي «بوسطنيان»؟ سألته.

تذكّرت الاسم، فهو المكان الذي نزل فيه جوناثان بيلغريم حين أتى إلى هذا البلد. وفوجئ مورتلايك بسؤالي، برغم أنّه حاول عدم إظهار ذلك، فأجاب هاتفًا:

– صحيح! أرى أنّك لم تضيّع وقتك يا بينكرتون. أم أنّك عضو في النادي؟ لدينا زوّار أميركيّون كثر، لكنّني أشكّ في أنّ بوسعك تحمّل نفقة الانتساب إلى نادينا.

تجاهلت سؤاله، وتابعتُ:

– هل كلارنس ديفرو شريك أيضًا في هذا المشروع الصغير؟

– لا أعرف أحدًا باسم كلارنس ديفرو.

– بل أعتقد أنّك تعرف.

– أنت مخطئ.

– أعرف مَن أنت يا إدغار مورتلايك، قلت له بعدما طفح كيلي. رأيتُ سجلّك العدليّ. سرقة مصارف، وخلع خزنات. قضيت عامًا في السجن محكومًا بجريمة سطو مسلّح. وليست تلك سوى أحدث إداناتك.

– كن حذرًا في كيفيّة مخاطبتك إيّاي!

تقدّم مورتلايك نحوي خطوات قليلة، واقترب منه مرافقوه بعصبيّة، متسائلين عمّا ينوي عمله. ثمّ قال بغضب:

– هذا كلّه كان في الماضي. أنا في إنكلترا الآن... مواطن أميركيّ أدير مشروعًا محترمًا، وواجبك هو أن تحميني لا أن تزعجني. وأضاف وهو يشير برأسه نحو القتيل: وقد أخفقت في قيامك بهذا الواجب تجاه شريكي الراحل. أين المرأة؟

– إذا كنت تعني هنرييتا، فهي فوق، وقد قُتلت أيضًا. قال جونز.

– والآخرون؟

– جميع مَن في المنزل قُتلوا.

للمرّة الأولى ظهر الاضطراب على وجه مورتلايك. فألقى نظرة أخيرة على بقعة الدم، وقلب شفته قرفًا، وقال:

– لا شيء أفعله هنا. سأدعكما أيّها السيّدان لتبحثا في هذا المكان.

وقبل أن يتمكّن أحد من اعتراضه، كان قد انسحب بالجسارة عينها التي أتى بها، وخلفه المشاغبون الثلاثة. كان همّهم الأوّل حمايته، ورفع جدار حيّ بينه وبين أعدائه في العالم الخارجيّ.

– إدغار مورتلايك، قلتُ. العصابة تظهر نفسها للعيان.

– وقد يكون هذا مفيدًا لنا، قال جونز وهو يلقي نظرة نحو الباب المفتوح.

وصل مورتلايك إلى نهاية الحديقة، واجتاز البوّابة. رأيناه يصعد إلى العربة التي كانت في انتظاره، يتبعه حرّاسه الثلاثة. وبضربة سوط انطلقت العربة عائدة نحو هايغايت هيل. وخطر ببالي أنّه إذا كان الهدف من جريمة قتل سكوتشي لافيل وقاطني منزله توجيه رسالة، فمن المؤكّد أنّها وصلت.

الفصل الثامن

سكوتلانديارد

من حسنات فندق هكسام، وهي ليست بالكثيرة، موقعه القريب من وسط لندن. من جديد، كانت قاعة الفطور خالية. حالما أنهيت فطوري، تركت الخادمة والنادل الممتعض، وانطلقت بنيّة السير مع حاجز مياه النهر، وهو ما أوصاني جونز في اليوم السابق بالقيام به.

كان نهر التايمز يتلألأ خلف صفّ طويل من الأشجار التي تجمّل الجادّة، وقد هبّت نسمات ربيعيّة منعشة. وحين خرجتُ من الفندق، رأيت باخرة سوداء تشقّ مياه النهر في اتّجاه مرفأ لندن. توقّفت لأتفرّج عليها، فساورني في تلك اللحظة الشعور الغريب بأنّني تحت المراقبة. كنّا في ساعات النهار الأولى، والأشخاص حولي قليلون: امرأة تدفع عربة طفل، ورجل يعتمر قبّعة مستديرة سوداء يسير وبرفقته كلب. إستدرتُ إلى الخلف ونظرت إلى الفندق، وآنذاك رأيته يقف خلف نافذة في الطابق الثاني وينظر إلى الشارع. أدركت في ثانية أنّه يشغل الغرفة المجاورة لغرفتي. ذاك هو الرجل الذي سمعته يقضي الليل في السعال، لكنّ المسافة البعيدة وقذارة النافذة لم تسمحا لي أن أراه بوضوح. كان شعره أسود ويرتدي ملابس غامقة اللون، ويقف جامدًا بصورة غير طبيعيّة. لعلّ هذا من نتاج مخيّلتي، لكنّني شعرتُ بأنّ عينيه تحملقان فيّ. ثمّ مدّ إحدى يديه وسحب الستارة. حاولت

أن أبعد تفكيري عنه وأواصل طريقي. إلّا أنّني لم أستطع الاستمتاع بالنزهة كما رجوتُ، وشعرتُ بالانزعاج بغير أن أعرف السبب.

بعد مسير خمس عشرة دقيقة، وصلت إلى وجهتي. كانت سكوتلانديارد، كما باتت تُعرف (برغم أنّها تقع في ساحة وايتهول)، عبارة عن بناء هائل الحجم يحتلّ الأرض الواقعة بين حاجز مياه فكتوريا ووستمينستر. كان ذلك البناء قبيحًا جدًّا، أو هذا ما تراءى لي وأنا أجتاز الجادّة باحثًا عن مدخله الرئيسيّ. بدا وكأنّ مهندسه المعماريّ غيّر رأيه بعد الشروع بالبناء. فبعدما بُني الطابقان الأوّلان بحجارة الغرانيت الجافّة والكالحة، زهت الطوابق الأخرى فجأة بحجارة الطوب الحمراء والبيضاء، والشبابيك المزخرفة والأبراج الفلمنكيّة الطراز، وكأنّ بناءين مختلفين تمامًا قد ألقي بأحدهما فوق الآخر. كان في المكان ما يشبه السجن كذلك، فأجنحته الأربعة تحيط بباحة يكاد نور الشمس لا يصل إليها. ولعلّ نزلاء سجن نيوغايت يستمتعون بباحتهم أكثر من رجال الشرطة السيّئي الحظّ المحتجزين هنا.

كان أثيلني جونز ينتظرني. رفع إحدى يديه ترحيبًا بي، وقال:

– لقد وصلتك رسالتي! ممتاز. الاجتماع على وشك أن يبدأ. أمر لافت حقًّا، بل هو حدث فريد لم أشهد له مثيلًا طوال فترة خدمتي هنا. ما لا يقلّ عن أربعة عشر من كبار مفتّشي التحرّي يجتمعون على أثر جرائم هايغايت. لن نتغاضى عن هذا يا تشايس. إنّه أمر لا يمكننا القبول به.

– وهل يُسمح لي بحضور الاجتماع؟

– لن أزعم بأنّ ذلك كان سهلًا. لسترايد عارض الفكرة، وكذلك غريغسون. قلت لك في لقائنا الأوّل إنّ كثيرين هنا يعتقدون أنّ علينا ألّا نتعامل مع وكالة تحرٍّ خاصّة مثل بينكرتون. برأيي أنّ عدم التعاون حين تكون أهدافنا واحدة أمر فيه غباء. لكنّني استطعتُ هذه المرّة إقناعهم بأهمّية حضورك. تعال، يجب أن ندخل.

صعدنا درجًا عريضًا ودخلنا ردهة حيث وقف عدّة رجال شرطة بزيّهم الرسميّ خلف مكاتب عالية، يتفحّصون رسائل التعريف وجوازات السفر الخاصّة بالذين يرغبون في الدخول. كان جونز قد رتّب أمر دخولي، فشققنا

معًا وبصعوبة طريقنا عبر درج يزدحم برجال الشرطة والموظّفين وحملة الرسائل الذين يتدافعون صعودًا ونزولًا.

قال جونز متذمّرًا:

– لقد بات المبنى صغيرًا بالنسبة إلينا، ولم يمضِ عام بعد على وجودنا هنا! كما أنّهم وجدوا في القبو خلال البناء جثّة امرأة مقتولة.

– مَن قتلها؟

– لا نعلم. لا أحد يعرف هويّتها أو كيف وصلت إلى هنا. ألا تستغرب يا تشايس أنّ أفضل قوّة شرطة في أوروبا اختارت أن تقيم مقرّها في موقع جريمة لم تُحلّ؟

وصلنا إلى الطابق الثالث، ومررنا بعدد من الأبواب، تفصل بينها مسافات متوازية. أشار جونز برأسه إلى أحدها لدى مرورنا به وقال:

– هذا مكتبي. أفضل الغرف تطلّ على النهر.

– ومكتبك؟

– مكتبي يطلّ على الباحة الداخليّة، قال مبتسمًا، وأضاف: ربّما حين ننتهي، أنت وأنا، من هذه القضيّة، سيفكّرون في نقلي. لكنّني على الأقلّ قريب من غرفة المحفوظات ومن غرفة التلغراف!

مررنا بباب مفتوح، ورأينا من خلاله نحو عشرة رجال في ملابس غامقة اللون يجلسون إلى طاولات أو خلف مكتب مرتفع، منحنين فوق آلات التلغراف تحيط بهم الأوراق والأشرطة المطبوعة.

– بأيّة سرعة يمكن الاتّصال بأميركا؟ سألته.

– يمكن إرسال البرقيّة العاديّة في دقائق، أجاب جونز. أمّا الطباعة فتستغرق وقتًا أطول، وإذا كان الازدحام شديدًا، فقد يستغرق الاتّصال أيّامًا. هل ترغب في مراسلة مكتبك؟

– يجب أن أرسل إليهم تقريرًا، فهم لم يتلقّوا خبرًا منّي منذ أن سافرت.

– في الحقيقة، أنصحك بالذهاب إلى مكتب التلغراف الرئيسيّ في شارع نيوغايت. فقد تجد لدى موظّفيه خدمة أفضل.

دخلنا عبر عدد من الأبواب، حتّى وصلنا إلى قاعة رحبة تفتقر إلى الهواء، وذات نوافذ تبدو بداخل تجاويفها الجداريّة وكأنّها تعيق النور من الدخول. احتلّت طاولة كبيرة، مقوّسة عند طرفيها، كلّ المساحة المتاحة. وبدا وكأنّها مصمّمة لا لتجمع الأشخاص بل لتفرّق بينهم. لم يسبق لي قطّ أن رأيت مساحة كتلك من الخشب المصقول. كان في القاعة تسعة أو عشرة رجال، يتبادلون الأحاديث بأصوات منخفضة، وواحد منهم أو اثنان يدخّنان الغليون. قدّرت أنّ أعمارهم تتراوح بين الخامسة والعشرين والخمسين تقريبًا. لم يكونوا يرتدون زيّ الشرطة. وبرغم أنّ غالبيّتهم كانت في سترات رسميّة طويلة، فقد رأيت أحدهم ببزّة من نسيج التويد، فيما ارتدى آخر معطف بحّارة أخضر وربطة عنق.

كان هذا الرجل أوّل مَن رآنا حين دخلنا، فسار نحونا مسرعًا وكأنّه على وشك القيام بعمليّة اعتقال. إنطباعي الأوّل كان أنّ من الصعب تخيّله يعمل في مهنة غير مهنة الشرطة. كان نحيفًا وجدّيًا وذا عينين سوداوين متفحّصتين دقّقتا فيّ وكأنّني – وكّل مَن يقابله – أخفي بلا شكّ شيئًا ما. وحين تكلّم، كان ذلك بنبرة توحي بأنّه يتعمّد عدم الودّ.

– حسنًا يا جونز، قال. أظنّه السيّد النبيل الذي تحدّثت عنه.

– أنا فريدريك تشايس، قلت، ومددتُ يدي نحوه.

صافحني بصورة مقتضبة، وقال وعيناه تلتمعان:

– لسترايد. أوّد الترحيب بك في اجتماعنا الصغير يا سيّد تشايس، غير أنّني لستُ واثقًا من أنّ «الترحيب» هي الكلمة المناسبة. هذه فترة غريبة، وتلك الجريمة في منزل بلايدستون... قذرة للغاية. وأنا أجهل ما قد تنذر بحدوثه.

– أنا هنا لتقديم أيّة مساعدة أستطيعها، قلت بصدق.

– ومَن يا ترى هو الأكثر حاجة إلى المساعدة؟ حسنًا، سوف نرى.

دخل مزيد من المفتّشين القاعة، وفي النهاية أقفِل الباب. أشار إليّ جونز لأجلس بجانبه، وقال لي بصوت خافت:

– إبقَ صامتًا لبعض الوقت، واحذر لسترايد وغريغسون.

– لماذا؟

– لا يمكنك أن تتّفق مع أحدهما بدون أن تستعدي الآخر. يوغال، ذاك الجالس هناك رجل شجاع لكنّه لم يعتد سكوتلانديارد بعد، وبجانبه...
ونظر جونز إلى رجل ذي جبهة عالية ومكوّرة ونظرات قوّية يجلس إلى رأس المائدة. وبرغم أنّه لم يكن من بين أوسم الرجال في القاعة، إلّا أنّ شيئًا ما فيه كان يوحي بقوّة داخليّة عظيمة. وتابع: إنّه أليك ماكدونالد. أعتقد أنّه الأذكى بيننا، وهو مَن يستطيع توجيه هذا التحقيق في الاتّجاه المناسب..

ثمّ جلس رجل ضخم الجثّة مقطوع الأنفاس على الكرسيّ بجانبي. كان يرتدي سترة بِعُرى مزخرفة ظاهرة، ومشدودة على صدره. قال لي متمتمًا:

– برادستريت.

– فريدريك تشايس.

– شررتُ بلقائك.

ثمّ أخذ غليونه الفارغ، ونقره على الطاولة أمامه.

إفتتح اِلمفتّش لسترايد الاجتماع متسلّحًا بسُلطة طبيعيّة بدا أنّها تميّزه عن المشاركين الآخرين فقال:

– أيّها السادة، قبل المباشرة ببحث المسألة الخطرة جدًّا والتي استدعت اجتماعنا اليوم، من اللائق أن نوجّه عبارة احترام لذكرى صديق وزميل عزيز فقدناه مؤخّرًا. أعني طبعًا السيّد شرلوك هولمز، الذي عرفه كثيرون من بيننا معرفة شخصيّة، مثلما اشتُهر لدى الجمهور العريض. وأقرّ بأنّه قدّم إليّ مساعدة كبيرة في غير مناسبة، بدءًا بقضيّة حدائق لوريستون منذ بضع سنوات. صحيح أنّ أسلوبه كان غريبًا، حيث دأب على أن يفاجئنا بنظريّاته المميّزة، التي ينسج من العدم خيوطها اللامتناهية في دقّتها. وبرغم أنّ بعضها لم يكن سوى محض تخمين، فإنّ أحدًا منّا لن ينكر أنّ النجاح غالبًا ما حالف هولمز. ولا شكّ عندي بأنّنا سنفتقده كلّنا بعد حادثة موته المؤسفة في شلّالات رايشنباخ.

– أما من احتمال بنجاته؟ سأل أحد الجالسين عند منتصف الطاولة، وكان شابًّا أنيق الملابس. ففي النهاية، لم يتمّ العثور على جثّته قطّ.

– هذا صحيح يا فورستر، أجاب لسترايد. لكنّنا قرأنا الرسالة كلّنا.

– أنا ذهبت إلى ذلك المكان المخيف، قال جونز. وإذا كان قد سقط في عراكه وموريارتي، أخشى أنّ احتمال نجاته ضئيل جدًّا.

هزّ لسترايد رأسه برصانة علامة النفي، وأضاف:

– أعترف بأنّني أخطأت في بعض الأمور في الماضي، وخصوصًا في ما يتعلّق بشرلوك هولمز. لكنّني تفحّصت الأدلّة هذه المرّة، وبوسعي تأكيد موته لكم بدون أدنى شكّ. وأراهن بسمعتي على ذلك.

– علينا ألّا نتظاهر بأنّ خسارة شرلوك هولمز ليست بالكارثة، قال الرجل الجالس قبالتي. وكان طويل القامة أشقر الشعر، وهمس لي جونز باسمه: «غريغسون». تابع هذا الأخير يقول: تحدّثت عن حدائق لوريستون يا لسترايد. ولولا هولمز لما وجدت تلك القضيّة حلًا. كنت تنوي أن تفتّش لندن كلّها بحثًا عن فتاة تدعى «راشيل» في حين أنّ الكلمة هي «راشيه»، أي المرادفة الألمانيّة لكلمة «ثأر»، والتي تركتها الضحيّة بمثابة دليل أخير.

إرتسمت الابتسامات على وجوه بعض الحاضرين، وقهقه مفتّش أو اثنان بصوت مرتفع. ثمّ قال المفتّش يوغال:

– ربّ ضارّة نافعة. فبعد اليوم لن نجد أنفسنا محلّ سخرية بقلم شريكه الدكتور واطسون. أنا ممّن يرون أنّ كتاباته أساءت جدًّا إلى سمعتنا.

– كان هولمز رجلًا غريب الأطوار. هتف رجل خامس، راح فيما يتكلّم يمسح نظّارته بين إبهامه وسبّابته وكأنّما ليرى الآخرين على نحو أفضل. وأضاف: كما تعلمون، عملت معه في قضيّة الحصان المفقود سيلفر بلايز. إنّه غريب جدًّا، وأعني هولمز، لا الحصان. كانت لديه عادة التكلّم بالأحاجي. الكلاب التي تنبح في الليل، طبعًا! كنت أقدّره، ومعجبًا به، لكنّني غير واثق أبدًا من أنّني سأشتاق إليه.

– لطالما شككتُ بأساليبه، قال فورستر موافقًا. كان يتكلّم فيبدو كلّ شيء سهلًا جدًّا، وكنّا نأخذ كلامه بحرفيّته. لكن، هل من المعقول حقًّا تحديد عمر رجل بواسطة خطّه؟ أو طوله بواسطة طول خطوته؟ معظم ما قاله لا أساس

له، وغير علميّ، ومنافٍ للعقل أحيانًا. صدّقناه لأنّه حقّق نتائج، لكنّ عمله لا يشكّل قاعدة سليمة لعمل التحرّي المعاصر.

– لقد جعل منّا جميعًا أضحوكة! قال مفتّش آخر. صحيح أنّني استفدتُ في إحدى المرّات من خبرته. لكن، أليس الواقع أنّنا بتنا نعتمد على السيّد هولمز أكثر من اللازم؟ هل حللنا أيّة قضيّة من دونه؟ والتفت إلى زملائه الجالسين إلى يساره ويمينه، وأضاف: برغم أنّ ما سأقوله سيبدو قاسيًا وجاحدًا، إلّا أنّ علينا ربّما أن نرى في رحيله فرصة لنا لتحقيق النتائج بالاعتماد على أنفسنا.

– أحسنت قولًا، حضرة المفتّش لانر. كان ماكدونالد هو الذي تكلّم هذه المرّة، فشخصت كلّ الأبصار إليه. وتابع يقول بلكنته السكوتلنديّة: أنا نفسي لم ألتقِ السيّد هولمز قطّ. لكن أظنّنا متّفقين على أنّنا مدينون له بالشكر والاحترام، إلّا أنّ الوقت حان للمضيّ قُدُمًا. مهما كان ما ينتظرنا، فقد تركنا لنعتمد على ذاتنا. فلنأخذ علمًا بهذه الحقيقة، ولنفكّر في المسألة التي بين أيدينا. وأخذ ورقة كانت أمامه، وقرأها: «السيد سكوت لافيل، قُتل ذبحًا بعد التعذيب. هنرييتا بارلو، قُتلت خنقًا بوسادة. بيتر كلايتون، مجرم صغير معروف منّا، قُتل طعنًا. طوماس جيرولد ولوسي وينترز، قُتلا خنقًا بحبل». ساكنو منزل في ضاحية محترمة قُتلوا جميعًا في ليلة واحدة. لا يمكننا القبول بذلك أيّها السادة، لا يمكننا السماح به.

تصاعدت همسات الموافقة من كلّ الحاضرين.

– وحسبما فهمت، تابع يقول، لم تكن تلك أولى الجرائم الفظيعة التي حدثت مؤخّرًا في هايغايت. لسترايد تفضّل.

– أنت على حقّ. فمنذ أقلّ من شهر قُتل شابّ يدعى جوناثان بيلغريم برصاصة في الرأس، بعدما قُيّدت يداه.

حدّق لسترايد فيّ، وكأنّني المسؤول عن تلك الجريمة، وشعرت لبرهة بالغضب يتصاعد في داخلي. كنت قريبًا من بيلغريم. وموته هو الذي دفعني أكثر من أيّ شيء آخر للمضيّ في ملاحقة كلارنس ديفرو. لكنّني فهمتُ أنّ ذلك هو ببساطة أسلوب لسترايد، وأنّه لم يقصد شيئًا. وتابع يقول:

– أوراق بيلغريم الثبوتيّة أشارت إلى كونه أميركيًا دخل البلد قبل فترة قصيرة فقط. لا بدّ من أنّ لافيل أثار اهتمامه، لأنّ جثّته عُثر عليها على مسافة غير بعيدة من منزل بلايدستون.

شعرتُ بأنّ الوقت حان لكي أتكلّم، فقلتُ:

– كان بيلغريم يحقّق في أمر كلارنس ديفرو، وأنا نفسي أرسلته إلى إنكلترا لهذه الغاية. كان ديفرو ولافيل يتعاونان، ولا بدّ من أنّهما اكتشفا أمر عميلي بطريقة ما. وهما مَن قتلاه.

– ولكن في هذه الحال، مَن قتل لافيل؟ سأل برادستريت.

رفع ماكدونالد يده وقال:

– سيّد تشايس، قدّم إلينا المفتّش جونز تفسيرًا وافيًا لوجودك في لندن، وعليّ القول إنّ الظروف الاستثنائيّة لهذه القضيّة، هي وحدها التي سمحت بوجودك هنا اليوم.

– أنا أشكر لكم هذا.

– عليك أن تشكره هو. سنسمع روايتك بعد قليل. لكن يبدو لي أنّ علينا، ومن أجل فهم تلك الجرائم المروّعة، العودة إلى البداية... وحتّى إلى شلّالات رايشنباخ.

ثمّ التفت إلى مفتّش لم يكن قد تكلّم حتّى ذلك الحين. وكان رجلًا نحيلًا ذا شعر أشيب، يقضم أظافره بعصبيّة، بدا كشخص لا يريد أن يلاحظ وجوده أحد. قال له:

– حضرة المفتّش باترسون، أنت كنت مسؤولًا عن اعتقال أفراد عصابة موريارتي، وتدخّلك هو الذي دفعه إلى الفرار إلى الخارج. أظنّ أنّ عليك إطلاعنا على تفاصيل ما حدث.

– بالطبع، قال باترسون، من دون أن يرفع بصره، وكأنّ تقريره منقوش في الطاولة. تدركون كلّكم أنّ السيّد هولمز قصدني في شهر شباط الفائت، مع أنّ نيّته كانت برأيي لقاء لسترايد.

– كنت أعمل على قضيّة أخرى، قال لسترايد عابسًا.

– في ووكينغ كما أظنّ. نعم. في أثناء غيابك، قصدني السيّد هولمز وطلب تعاوني في التعرّف إلى عصابة مضى بعض الوقت على عملها في لندن، كما قال، واعتقال أفرادها، وعلى الأخصّ، واحد منهم.

– البروفسور موريارتي، قال جونز.

– هو نفسه. أعترف أنّني كنت أجهل اسمه حينذاك. وحين شرح لي هولمز أنّه اشتهر في أوروبا بنظريّة هو واضعها، وأنّه إضافة إلى ذلك شغل كرسيّ الرياضيّات في إحدى أرقى جامعاتنا، ظننتُه يهزأ بي. لكنّه كان جدّيًا كلّ الجدّ، وتحدّث عن موريارتي بأخطر الأوصاف، وزوّدني بأدلّة لا يمكنها أن تدع مجالًا للشكّ في ما قاله.

ومع بداية الشهر الماضي، رسمتُ بمساعدة المفتّش بارتون الموجود هنا، صورة أو خريطة للندن تظهر فيها شبكة الإجرام الاستثنائية والمعقّدة.

– وفي وسطها موريارتي، أضاف بارتون، وهو ينفخ بغليونه.

– صحيح. يمكنني القول إنّنا تلقّينا مساعدة عدد كبير من المخبرين، الذين اختاروا فجأة أن يتطوّعوا لذلك. بدا الأمر وكأنّهم شعروا بضعف موريارتي فاغتنموا الفرصة للثأر منه. لا شكّ بأنّه سيطر عليهم بالترهيب والتهديد. تلقّينا رسائل مغفلة، وظهرت فجأة إلى الضوء أدلّة إلى جرائمه السابقة التي لم تتوفّر لدينا أيّة معلومات عنها. كان انتقال موريارتي من الظلمة إلى وسط المسرح سريعًا جدًّا. ولذلك قمنا بالهجوم، بناء على إشارة من هولمز لأنّه كان يولي التوقيت أهمّية قصوى. وفي نهاية أسبوع واحدة قمنا باعتقالات في هولبورن، وكليركنويل، وآيلينغتون، وويستمينستر، وبيكاديلي. ووصلنا حتّى إلى أماكن نائية مثل رويزليب ونوربوري. وألقينا القبض على أشخاص يحظون باحترام واسع، من بينهم أساتذة، وسماسرة بورصة، ورئيس شمامسة حتّى. ويوم الاثنين، استطعت إرسال برقيّة إلى هولمز الذي كان في ستراسبورغ آنذاك، وإبلاغه بأنّنا اعتقلنا العصابة كلّها.

– ما عدا رئيسها، قال بارتون موافقًا، فيما راح المفتّشون الجالسون حول الطاولة والمصغون بإمعان، يهزّون رؤوسهم موافقين في صمت كئيب.

– نعلم الآن أنّ موريارتي انطلق في أثر هولمز، قال باترسون منهيًا كلامه. وأضاف: أحمّل نفسي مسؤوليّة جزئيّة عمّا حدث لاحقًا، لكنّني في الوقت عينه لا أصدّق أنّ هولمز لم يتوقّع ذلك. أيّ سبب آخر يجعله يغادر البلد بغتة؟ بأيّة حال، هذا واقع الأمر. بارتون وأنا نعمل، حتّى في الوقت الراهن، على إعداد لائحة التهم، وستحال القضايا إلى المحكمة في وقت قريب جدًّا.

– عمل ممتاز، قال ماكدونالد. لكنّه صمت لبعض الوقت وقطّب جبينه قبل أن يضيف: لكن، ألا أحد سواي يرى في هذه الرواية أمرًا غير طبيعيّ؟ في شباط من هذا العام، بدأتَ وشرلوك هولمز تقتربان من موريارتي. وفي الوقت عينه تقريبًا يصل إلى لندن مجرم أميركيّ يدعى كلارنس ديفرو سعيًا إلى التحالف مع موريارتي نفسه. كيف يمكن حدوث هذا؟

– لم يكن ديفرو يعرف أنّ موريارتي انتهى أمره، قال مفتّش آخر. رأينا كلّنا الرسالة المرمّزة. كما أنّهما لم يتّفقا على اللقاء إلّا في نيسان، أبريل.

– كان بوسع ديفرو أن يكون مفيدًا جدًّا لموريارتي، أشار غريغسون. وقد جاء وصوله في توقيت مثاليّ. فموريارتي هارب، ويستطيع ديفرو مساعدته على إعادة بناء أمبراطوريّته.

– لا أوافق على هذا! قال لسترايد وضرب بقبضته على الطاولة ونظر من حوله متذمّرًا، وأضاف: كلارنس ديفرو! كلارنس ديفرو! هذه ثرثرة لا جدوى منها. نحن لا نعرف شيئًا عن كلارنس ديفرو. من هو؟ أين يقيم؟ ألا يزال في لندن؟ هل هو موجود حتّى؟

– لم نكن نعرف شيئًا عن موريارتي إلى أن لفت هولمز انتباهنا إليه.

– موريارتي كان حقيقيًّا. لكنّني أقترح الاستعلام لدى وكالة بينكرتون في نيويورك. أودّ رؤية كلّ دليل لديهم في ما يخصّ ذلك الرجل.

– لا داعي إلى ذلك، قلت. أحضرت نسخًا من كلّ الملفّات معي ويسرّني أن أضعها في تصرّفك.

– غادرتَ أميركا منذ ثلاثة أسابيع، ردّ عليّ لسترايد. وربّما حدثت أمور كثيرة في تلك الفترة. ومع كلّ الاحترام لشخصك يا سيّد تشايس، أنت

محقّق شابّ في هذه المهنة. ومن أجل أن أطّلع على كلّ المستجدّات، أفضّل ألّا أتكلّم مع محقّق عاديّ، بل مع مَن أرسلك إلى هنا.

– أنا محقّق أعلى يا سيّدي، لكنّني لن أجادلك، قلتُ وقد رأيت أنّ استعداء هذا الرجل أمر لا طائل منه. عليك أن تتوجّه إلى السيّد روبرت بينكرتون بنفسه. هو مَن كلّفني هذه القضيّة، ويهتمّ عن كثب بكلّ تطوّر يطرأ عليها.

– سنفعل ذلك، قال ماكدونالد وهو يكتب شيئًا على ورقة أمامه.

– كلارنس ديفرو هنا في لندن. أنا أكيد من هذا الأمر. فقد سمعتُ اسمه يُذكر وشعرتُ بوجوده.

كان صاحب هذا الكلام أصغر مَن في القاعة سنًّا. وقد لاحظتُه يجلس مستقيمًا ومتوتّرًا في كرسيّه خلال المداخلات الطويلة، وكأنّه يكاد لا يستطيع لجم نفسه من المقاطعة. كان ذا شعر أشقر وقصير، ووجه طفوليّ ذكيّ، وعمره بالتأكيد لا يتجاوز خمسة وعشرين أو ستّة وعشرين عامًا. تابع يقول وهو يقدّم نفسه إليّ:

– أدعى ستانلي هوبكنز. وبرغم أنّني لم أحظَ قطّ بشرف لقاء السيّد هولمز، لكنّني أتمنّى لو أنّه لا يزال معنا. فأنا أعتقد أنّنا نواجه تحدّيًا لم يواجهه أيّ من الجالسين في هذه القاعة قطّ. أنا على اتّصال وثيق بعصابات المجرمين. ولكوني حديث العهد في هذه المهنة، وأحدث عهدًا حتّى في هذه الرتبة، أحرص على البقاء في شوارع لندن. في فرايرز ماونت، في نيكولاس رو، وفي بلوغايت فيلدز...

في الأسابيع القليلة الماضية، لاحظت وجود صمت، وخواء... وشعور بالخطر. توقّفت كلّ مصالح المراهنات عن العمل، وكذلك المُقرضون لقاء الرهون ونصّابو الثلاث ورقات عند أرصفة الطرق. كما أنّ شابّات هايماركت وجسر واترلو غبن عن أرصفتهنّ. ثم أضاف وبعض حمرة الخجل تعلو وجهه: أنا أكلّمهنّ أحيانًا، لأنّهن قد يفدنني، لكنّهن جميعًا متواريات عن الأنظار هذه الأيام. طبعًا قد يظنّ المرء أنّ العمل المذهل الذي قام به السيّدان بارتون وباترسون هو ما أدّى إلى هذه الحال التي كنّا كلّنا نتمنّاها، ولو في أحلامنا. أعني لندن خالية من الجريمة، حيث عزيمة أتباع موريارتي قد أُثبطت بعدما

انتهينا منه وعادوا زاحفين إلى مجارير القذارة التي خرجوا منها. لكنّني وللأسف أعرف أنّ ذلك غير صحيح. والطبيعة، كما قال أحد الفلاسفة، تكره الخواء. لعلّ ديفرو أتى إلى هنا ليتحالف مع موريارتي. ولكنّه، وبعدما اكتشف رحيل هذا الأخير، حلّ بكلّ بساطة مكانه.

– أنا أيضًا أعتقد ذلك، قال أحدهم... أظنّه كان لانر. وأضاف: الدليل هنا، في الشوارع.

– إندلاع أعمال العنف، تمتم برادستريت. كتلك المسألة في وايت سوان.

– والحريق في شارع هارو، وموت ستّة أشخاص...

– بيمليكو...

– عمّ تتحدّثون؟ قاطعهم لسترايد متوجّهًا إلى هوبكنز. لماذا علينا أن نعتقد بأنّ شيئًا ما قد تغيّر؟ أين الدليل؟

– كان لديّ مخبر مستعدّ لأن يكلّمني. ولقد شعرتُ نحوه ببعض الحبّ. فهو ومنذ غادر مهده ما انفكّ يواجه المتاعب. وبات صاحب سرقات صغيرة، ومتهرّبًا من دفع أثمان التذاكر، وألعبان كشاتبين... إلّا أنّه ترقّى مؤخّرًا في مدرسة الجريمة. فقد التقى بزمرة سوء وقلّت لقاءاتنا كثيرًا. منذ أسبوع رتّبتُ لقاء به في مكان كثيف الأشجار بقرب شارع دين. وفي الحال رأيتُ أنّه لم يرد أن يكون هناك، وأنّه لم يأتِ إلّا وفاءً لما كان بيننا في الماضي. فقد سبق أن ساعدته مرّة أو مرّتين. قال لي: «لا يمكنني أن أراك يا سيّد هوبكنز. كلّ شيء تغيّر الآن. فلم يعد بإمكاننا أن نلتقي». سألته: «ما الأمر يا تشارلي؟» لكنّني لاحظت شحوبه، وارتعاده، فقال لي: «أنت لا تفهم..».

وآنذاك سمعنا حركة في الزقاق، وظهر طيف رجل يقف في ضوء مصباح الغاز. لم أستطع أن أراه، وبأيّة حال كان يبتعد. لا يمكنني حتّى التأكّد من أنّه كان يراقبنا. لكنّ ذلك كان كافيًا بالنسبة إلى تشارلي. فهو لم يجرؤ على ذكر الاسم أمامي، بل قال لي: «الأميركيّ، لقد أصبح هنا، وهذه هي النهاية». سألتُه: «ماذا تعني؟ أيّ أميركيّ؟» أجابني: «قلت لك كلّ ما أستطيع قوله يا سيّد هوبكنز. ما كان يجب أن آتي. سيعلمون!» وسارع إلى الابتعاد، متواريًا

في الظلمة قبل أن أستطيع إيقافه. وكانت تلك آخر مرّة أراه فيها. وصمت هوبكنز ليتابع قائلًا: بعد يومين، انتُشلت جثّة تشارلي من نهر التايمز. وقد مات غرقًا، مقيّد اليدين. لن أصف جروحه الأخرى، لكنّني سأقول هذا فقط: لا أشكّ بتاتًا في أنّ ما يقوله لنا السيّد تشايس هو الحقيقة. لقد اجتاحتنا موجة من الشرّ، علينا أن نتصرّف قبل أن تغمرنا جميعنا.

تلا ذلك صمت طويل. ثمّ استدار المفتّش ماكدونالد إلى أثيلني جونز وسأله:

– ماذا وجدت في منزل بلايدستون؟ هل من أدلّة يمكنك متابعتها في التحقيق؟

– دليلان، أجاب جونز. لكنّي سأكون صريحًا وأقول إنّ جانبًا كبيرًا متعلّقًا بتلك الجرائم لا يزال مبهمًا. الأدلّة تقودني في اتّجاه، والحسّ السليم يقودني في اتّجاه آخر مختلف تمامًا. ومع ذلك، فقد وجدت في مفكّرة لافيل اسمًا ورقمًا: «هورنر 13». وقد كُتبا بالأحرف الكبيرة، وأحيطا بدائرة. ولم يكن على الصفحة أيّ شيء آخر. وفكّرتُ آنذاك في أنّ الأمر غريب جدًّا.

– إعتقلت رجلًا يدعى هورنر، قال برادستريت وهو يقلّب غليونه بين يديه. وأضاف: جون هورنر، كان سمكريًّا في فندق كوزموبوليتان. وطبعًا، فقد قبضت على الرجل غير المناسب، وساعدني السيّد هولمز على تصحيح خطأي.

– في كراوش إند مقهى كانت تديره امرأة تدعى السيّدة هورنر، على ما أظنّ. لكنّه أُقفِل منذ زمن بعيد، قال يوغال.

– كان في الدرج عينه صابونة، قلتُ، وتساءلت عمّا إذا كان لها أيّ معنى. وأمام صمت الجميع واصلت كلامي: أيمكن أن يكون هورنر بائع عقاقير أو صيدليًّا؟

ومن جديد لم أسمع أيّ إجابة على سؤالي.

– ماذا أيضًا، حضرة المفتّش جونز؟

– إلتقينا رجلًا غير ودود يدعى إدغار مورتلايك. كان السيّد تشايس يعرفه من نيويورك، وأوضح أنّه من شركاء ديفرو. وهو يملك ناديًا في مايفير يدعى «بوسطنيان».

أثار ذكر الاسم جلبة حول الطاولة.

– أعرفه، قال المفتّش غريغسون. إنّه باهظ الثمن وتافه، وقد افتُتح منذ فترة قصيرة.

– لقد زرت ذلك المكان، قال لسترايد. كان بيلغريم يقطن غرفة استأجرها فيه حين قُتل. بحثت في أغراضه لكنّني لم أجد شيئًا ذا أهميّة.

– لقد راسلني من هناك، قلتُ. وبفضله علمت بأمر الرسالة التي بعث بها ديفرو إلى موريارتي.

– «بوسطنيان» هو ملاذ كلّ الأميركيّين الأثرياء في لندن تقريبًا، تابع غريغسون يقول. يملكه الشقيقان ليلاند وإدغار مورتلايك. ولديهما طاهٍ خاصّ، ويعدّان كوكتيلات خاصّة بهما. وهو مؤلّف من طابقين، يُستخدَم الأوّل للعب القمار.

– أليس الأمر واضحًا؟ قال برادستريت هاتفًا. إذا كان كلارنس ديفرو في لندن، فمن المؤكّد أنّنا سنجده هناك. نادٍ أميركيّ باسم أميركيّ، يديره مجرم معروف.

– في تلك الحال، أظنّه آخر مكان قد يظهر فيه ديفرو، قال هوبكنز بهدوء. من البديهيّ أنّه لا يريد كشف نفسه.

– علينا أن نداهم المبنى، قال لسترايد، متجاهلًا زميله. وتابع يقول: سأجهّز للعمليّة بنفسي. وستكون زيارة مفاجئة يرافقني فيها اثنا عشر شرطيًّا أو أكثر، اليوم.

– أقترح أن يتمّ ذلك بداية المساء، حين يكون عدد الروّاد هو الأكبر، قال غريغسون.

– قد نجد كلارنس ديفرو هذا إلى طاولة الورق، وآنذاك نقبض عليه. لن نسمح بأن يستوطن بلادنا مجرمون من بلدان أجنبيّة. عنف العصابات هذا يجب أن يتوقّف.

ما لبث الاجتماع أن انتهى. إنصرفت وجونز معًا، وفي خلال نزولنا الدرج، التفت إليّ وقال:

– لقد تقرّر الأمر. سنداهم النادي ذي الصلة الكبيرة بالرجل الذي نبحث عنه، والذي يميل عدد من زملائي إلى الشكّ في وجوده. ولكن، حتّى لو كان كلارنس ديفرو هناك، فلن نستطيع التعرّف إليه. كما أنّ ذهابنا إلى هناك لن يفيد إلّا في تنبيهه إلى أنّنا نتعقّبه. ما رأيك يا تشايس؟ ألا تظنّها مضيعة كبيرة للوقت؟

– لا أملك الجرأة لقول هذا، أجبت.

– تردّدك يشرّفك. عليّ العودة إلى مكتبي. يمكنك قضاء بعد الظهر في مشاهدة بعض أنحاء المدينة. سأبعث لك برسالة إلى الفندق، ونلتقي مجددًا هذا المساء.

الفصل التاسع

نادي بوسطنيان

الواقع أنّ جونز أخطأ، فقد تبيّن أنّ لمداهمة نادي بوسطنيان فائدة في ناحية صغيرة ولكنّها ذات أهمّية.

كان الظلام قد حلّ حين غادرت غرفتي في الفندق، وحالما سرت في الممشى أدركت أنّ باب الغرفة المحاذية لغرفتي يُغلَق. وأيضًا لم أرَ من شاغل الغرفة سوى ظلّ سرعان ما توارى حين أقفِل الباب. لكنّني فطنت إلى أنّني لم أسمعه يمرّ بالقرب من غرفتي، فلو فعل لا بدّ من أن أسمعه لأنّ السجّادة كانت ممزّقة. هل كان ينتظر في الخارج فيما تهيّأتُ للخروج؟ هل انصرف حين سمعني أقترب؟ شعرت برغبة في أن أتحدّاه، لكنّني عدلت عن رأيي، فجونز شدّد على موعد لقائنا. لعلّ هناك تفسيرًا بريئًا تمامًا لسلوك جاري الغامض. بأيّة حال، بوسعه أن ينتظر.

بعد ساعة كنتُ وجونز نقف تحت مصباح غازيّ على زاوية شارع تريبيك، في انتظار إشارة بدء المغامرة، أي صوت الصفّارة ووقع اثنتي عشرة جزمة. كان النادي أمامنا عند إحدى زوايا الشارع، وهو عبارة عن مبنى ذي واجهة بيضاء، ضيّق وعاديّ جدًّا، يليق بأن يكون مصرفًا لولا الستائر الثقيلة المسدلة على النوافذ وموسيقى البيانو التي تنبعث بين الحين والآخر في عتمة الليل. كان جونز في مزاج غريب، فالصمت لم يبارحه تقريبًا منذ وافيتُه وبدا مستغرقًا في تفكير عميق. كان الطقس يشهد بردًا ورطوبة في

غير موسمهما. بدا وكأنّ الصيف لن يأتي أبدًا، وكان كلانا يرتدي معطفًا ثقيلًا. تساءلتُ عمّا إذا كان هذا الطقس يزيد من حدّة الألم في ساقه. فجأة استدار نحوي وسألني:

– أما وجدتَ في شهادة لسترايد ما يثير الاهتمام بوجه خاص؟

– في أيّ جزء منها؟ رددتُ عليه، وقد فاجأني سؤاله.

– كيف علم بأنّ عميلكم، جوناثان بيلغريم، كان ينزل في غرفة في «بوسطنيان»؟

فكّرتُ لبعض الوقت، ثمّ قلت:

– لا أعلم. لعلّ بيلغريم كان يحمل مفتاح غرفته، أو يحتفظ بعنوان إقامته بين أوراقه.

– هل كان رجلًا غير مبالٍ؟

– كان متعنّتًا، وقد يصل به الأمر إلى التهوّر. لكنّه كان يدرك تمامًا خطر الانكشاف.

– هذا ما ظننتُه تمامًا. وكأنّه أرادنا أن نأتي إلى هنا. أرجو ألّا نكون في صدد ارتكاب خطأ فادح.

ثمّ عاد ليغرق في الصمت. أخرجت ساعتي، ورأيت أنّ المداهمة لن تبدأ إلّا بعد خمس دقائق، فتمنّيتُ لو أنّنا لم نصل مبكرين بهذا القدر. شعرتُ بأنّ رفيقي يتجنّب نظراتي. صحيح أنّه كان دائم الوقوف بصورة غريبة، وعلمت أنّه دائم الإحساس بالألم وبحاجة إلى عصاه، لكنّه ومع وقوفنا هناك ننتظر، بدا أغرب سلوكًا من أيّ وقت خلا.

– هل من خطب يا جونز؟ سألته في النهاية.

– لا، أبدًا، أجاب. ثمّ أضاف: في الواقع، هناك سؤال أودّ طرحه عليك.

– أرجوك، سلني.

– أرجو ألّا ترى في الأمر ادّعاءً، لكنّ زوجتي تودّ دعوتك إلى مشاركتنا العشاء غدًا.

عجبت لأن يكون أمر بهذه البساطة قد سبّب له هذا القدر من الإرباك. لكنّه لم يدعني أجيب، وتابع بسرعة:

– طبعًا، كلّمتُها عنك، وهي في غاية الشوق للقائك وسماع أخبار حياتك في أميركا.

– يسرّني أن آتي، أجبت.

– إلْسِبِثْ تقلق لأمري كثيرًا، تابع يقول. بيني وبينك، ستكون أكثر سعادة لو وجدتُ لنفسي مهنة أخرى، وقد عبّرتْ مرارًا عن ذلك. لا داعي إلى القول إنّها تجهل كلّ ما يتعلّق بقضيّة منزل بلايدستون. أخبرتها فقط أنّني أحقّق في جريمة قتل، بدون الغوص في التفاصيل، وأرجو منك أن تحذو حذوي. لحسن الحظّ أنّها لا تقرأ الجرائد كثيرًا. إلسبث ذات طبيعة حسّاسة جدًّا، ولو عرفتْ أيّ نوع من الأشخاص نواجههم، لاضطربت اضطرابًا عظيمًا.

– دعوتك إيّاي مصدر سعادة كبيرة لي. كما يجب أن أعترف لك بأنّ الطعام في فندق هكسام سيّئ جدًّا. لا تقلق، حضرة المفتّش. سأحذو حذوك وأجيب عن أيّة أسئلة تطرحها السيّدة جونز بمنتهى التحفّظ. رفعتُ نظري قليلًا نحو المصباح الغازيّ، وتابعت: أمّي العزيزة لم تناقش شؤون العمل معي قطّ، فقد كانت تسبّب لها الضيق. ويكفيني ذلك السبب لكي أكون في غاية الحذر.

– إذًا اتّفقنا، قال جونز وقد بدا عليه الارتياح. وأضاف. يمكننا أن نلتقي في سكوتلانديارد، ونمضي معًا إلى كامبرويل. سوف تلتقي أيضًا ابنتي بياتريس. عمرها ستّة أعوام، وحماستها لمعرفة شؤون عملي توازي حماسة زوجتي لتجنّب ذلك.

كنت على علم بأنّ له ابنة. لا شكّ إذًا بأنّ بياتريس هي من حمل إليها الدمية من باريس. وسألته:

– أيجب أن أرتدي ملابس رسميّة؟

– تعال كما أنت. لا داعي إلى الشكليّات.

قطع علينا صوت الصفّارة الحادّ حديثنا، وفي الحال امتلأ الشارع الهادئ برجال شرطة يركضون نحو باب واحد. كنتُ وجونز مجرّد متفرّجين، فقد تولّى لسترايد إدارة العمليّة، وهو أوّل من صعد الدرج وأمسك بمقبض الباب. كان الباب مقفلًا، فتراجع وبحث عن الجرس وقرعه بإلحاح. في النهاية فُتح الباب، ليندفع لسترايد ورجال الشرطة إلى الداخل، وتبعناهم.

لم أتوقّع أن يكون «بوسطنيان» من الداخل على هذا القدر من مظاهر البذخ، برغم ما قاله لنا المفتّش غريغسون. كان شارع تريبيك ضيّقًا وضعيف الإنارة، لكنّ باب النادي قادنا إلى عالم متألّق من المرايا، والثريّات، والأرضيّات الرخاميّة، والسقوف المزخرفة. اكتست جدرانه بالكامل بلوحات ذات إطار مذهّب، كثير منها لفنّانين أميركيّين مشهورين مثل ألبرت بينكهام رايدر وطوماس كول... وكلّ من زار يومًا «نادي يونيون» في جادّة بارك أفنيو أو «نادي متروبوليتان» في الشارع 60 في نيويورك، سيشعر هنا أنّه في منزله، وهذا ما كان مطلوبًا تمامًا. كانت في المدخل حاملة جرائد ليس فيها سوى مطبوعات أميركيّة. أمّا عشرات الزجاجات المصفوفة على الرفوف الزجاجيّة اللمّاعة والنظيفة فكانت في معظمها من الماركات الأميركيّة مثل «جيم بيم»، و«أولد فيتزجيرالد»، و«فلايشمان إكسترا دراي جين». كان في الصالة الأماميّة خمسون شخصًا على الأقلّ، وسمعت لكنات من الساحل الشرقيّ، وتكساس، وميلووكي. وكان شابّ بسترة ذات ذيل يعزف على بيانو أزيلت واجهته الأماميّة لتظهر أوتاره ومطارقه. لحظة دخلنا إلى هناك، توقّف ذلك الشاب عن العزف ولبث جالسًا، ونظراته مسمّرة بالمفاتيح.

بدأ رجال الشرطة يتجوّلون في القاعة، وشعرت باستهجان الحاضرين وهم يتفرّقون، رجالًا ونساءً يرتدون أفخم ملابس السهرة، ليتيحوا لهم مجالًا للمرور. سار لسترايد توًّا إلى البار وكأنّما ليطلب شرابًا، وكان الساقي يحدّق فيه فاغرًا فمه. مكثت وجونز في الخلف، فلم يكن أيّ منّا متأكّدًا من حكمة هذه العمليّة، ورحنا نتساءل أين نبدأ. صعد رجلا شرطة الدرج نحو الطابق الثاني، فيما سدّ الباقون الأبواب لئلّا يتمكّن أحد من دخول النادي أو الخروج منه بدون أن يعترضوه. أعترف بأنّ شرطة لندن أثارت فيّ إعجابًا كبيرًا. فقد كان أفرادها على تنظيم وانضباط عاليين حتّى ولو لم يكونوا يعرفون سبب وجودهم هناك، حسبما بدا لي.

كان لسترايد يواصل إلقاء محاضرته على الساقي حين فُتح باب جانبيّ وخرج منه رجلان عرفتهما في الحال. أحدهما إدغار مورتلايك الذي سبق أن التقيناه، والثاني شقيقه الذي كان معه هذه المرّة. وتمامًا كما أخبرتنا

الخادمة في منزل بلايدستون، كانا متشابهين تمامًا ويرتديان الملابس الرسميّة السوداء عينها، ومع ذلك كانا مختلفين على نحو غريب، وكأنّ رسّامًا أو نحّاتًا تعمّد أن يستلهم أحدهما ليكوّن نسخة ثانية عنه، أكثر وحشيّة وعنفًا. كان لليلاند مورتلايك الشعر الأسود والعينان الصغيرتان كما لشقيقه، لكن من دون شاربين. وكان يكبره سنًا بأعوام قليلة، إلّا أنّ وطأتها ظهرت عليه بوضوح. فوجهه أسمن، وشفتاه أسمك، وعلى محيّاه تعبير ازدراء عميق. كما كان أقصر من إدغار بعدّة سنتمترات، لكن بدا واضحًا لي حتّى قبل أن يتكلّم أنّه يسيطر عليه. كان إدغار يقف خلفه بخطوات قليلة، في موقعه الطبيعيّ.

لم يكونا قد رأيا لسترايد، أو ربّما رأياه وتجاهلاه. سوى أنّ إدغار تعرفَ إلى جونز وإليّ، فلكز شقيقه وقاده نحونا.

– ما هذا؟ سأل ليلاند، بصوت أجشّ وأنفاس ثقيلة وكأنّ فعل الكلام يرهقه.

– أعرفهما، قال إدغار شارحًا. هذا محقّق لدى بينكرتون، ولم يكلّف نفسه عناء إطلاع شقيقه على اسمي. والآخر هو آلان جونز أو ما يشبه ذلك، من سكوتلانديارد. إلتقيتهما في منزل بلايدستون.

– ماذا تريد؟ قال موجّهًا سؤاله إلى جونز، الذي أجاب:

– نبحث عن رجل يدعى كلارنس ديفرو.

– لا أعرفه، ليس هنا.

– قلت لك إنّني لا أعرفه، أضاف إدغار. فلماذا أتيت إلى هنا؟ إذا أردت الانتساب إلى النادي، كان عليك سؤالي حين التقينا في هايغايت. لكنّي أظنّ أنّ رسم الانتساب السنوي إلى نادينا يتجاوز قدراتك قليلًا.

آنذاك أتى لسترايد الذي لاحظ المحادثة، وهو يسير نحونا بخطوات كبيرة، وسأل:

– هل أنت ليلاند مورتلايك؟

– أنا إدغار مورتلايك، وليلاند هو شقيقي، إذا كنت ترغب في مكالمته.

– نبحث عن...

– أعرف عمّن تبحثون. سبق أن قلت إنّه ليس هنا.

– لن يغادر أحد هذا المكان الليلة قبل أن أطّلع على هويّته، قال لسترايد. أرغب في رؤية سجلّ نزلائك ومعرفة أسمائهم وعناوينهم. وأريد تفتيش هذا النادي من الطابق الأعلى وحتّى القبو.

– لا تستطيع ذلك.

– بل أظنّني أستطيع، سيّد مورتلايك، وسأفعل.

– لقد أقام هنا رجل في بداية العام، قلتُ. وبقي حتّى نهاية نيسان، أبريل. كان اسمه جوناثان بيلغريم.

– وما به؟

– هل تتذكّره؟

نظر ليلاند إلى الفراغ، بعينيه الصغيرتين المفعمتين بالامتعاض. لكنّ شقيقه هو الذي أجاب على سؤالي:

– نعم، أعتقد أنّه كان لدينا نزيل بهذا الاسم.

– في أيّة غرفة؟

– غرفة «ريفير»، في الطابق الثاني، أجاب متردّدًا.

– وهل شغلها أحد منذ ذلك الحين؟

– لا، إنّها فارغة.

– أودّ رؤيتها.

إستدار ليلاند نحو شقيقه، وخلت لبرهة أنّهما سيعترضان. لكن قبل أن يستطيع أحدهما التفوّه بكلمة، تقدّم جونز وقال:

– السيّد تشايس يرافقني، وهو يحمل تفويضًا من سكوتلانديارد. قدنا إلى الغرفة.

– كما تريد، قال إدغار مورتلايك وهو ينظر إلينا بحنق استطاع احتواءه. ولو لم نكن في لندن محاطين بأفراد الشرطة البريطانيّة، أجهل ما كان ليجري. ثمّ أضاف: إنها المرّة الثانية التي تصدر فيها إليّ الأوامر. ذلك لا يعجبني يا سيّد جونز، وأؤكّد لك أنّه لن تكون ثمّة مرّة ثالثة.

– هل تهدّدنا؟ هل نسيتَ من نحن؟ سألته.

– أنا فقط أقول إنّني لن أتحمّل ذلك، قال إدغار وهو يرفع إصبعًا. ولعلّك أنت الذي نسيت مَن تتعامل معه، يا سيّد بينكرتون. وقد تندم على اليوم الذي اخترتَ فيه أن تتدخّل.

– صمتًا يا إدغار! قال ليلاند.

– كما تشاء يا ليلاند، ردّ عليه إدغار.

– هذه فضيحة!، تابع الشقيق الأكبر. لكن افعلوا ما تريدون، ليس لدينا ما نخفيه.

تركنا لسترايد معهم، وقد بدأت الشرطة إجراءاتها الطويلة والمضنية في استجواب كلّ من الضيوف على حدة، وتدوين تفاصيل هويّاتهم. ومعًا صعدنا الدرج لنصل إلى ممرّ ضيّق يمتدّ يمينًا ويسارًا. رأينا عن إحدى الجهتين قاعة كبيرة أخرى تضيئها الشمعدانات، وفيها عدّة طاولات مغطّاة بالجوخ الأخضر. كان واضحًا أنّها صالة لألعاب القمار. لكنّنا لم ندخلها وسرنا في الممشى بالاتّجاه الآخر مرورًا بعدّة غرف نوم، كلّ منها باسم أحد مشاهير بوسطن. كانت غرفة «ريفير» في منتصف الممشى، ولم يكن بابها مقفلًا.

– ليس بوسعي أن أتخيّل ما ترجو العثور عليه، تمتم جونز ونحن ندخلها.

– لست أكيدًا من أنّني أتوقّع العثور على شيء، أجبته. قال المفتّش لسترايد إنّه قد أتى إلى هنا. ومع ذلك فقد كان بيلغريم رجلًا ذكيًّا. ولئن ظنّ نفسه في خطر، فهناك احتمال بأن يكون قد حاول ترك دليل ما.

– هناك أمر واحد مؤكّد، وهو أنّنا لن نكتشف شيئًا في الأسفل.

– أوافقك الرأي تمامًا.

للوهلة الأولى بدت الغرفة غير واعدة. ففيها سرير رُتّب حديثًا، وخزانة فارغة. وكان باب آخر يؤدّي إلى حمّام يحتوي مرحاضًا ومغطسًا بالماء الساخن. لا شكّ بأنّ «بوسطنيان» كان يعرف كيف يعتني بنزلائه، ولم يسعني سوى الشعور بالحسد، وأنا أتذكّر فندقي البائس. كان ورق الجدران والأثاث والستائر من أفضل النوعيّات. بدأنا البحث، ففتحنا الأدراج ورفعنا الفراش عن السرير، وقلبنا اللوحات حتّى. لكن كان واضحًا أنّ الغرفة نُظّفت تمامًا بعد رحيل بيلغريم.

– هذه مضيعة للوقت، قلت.

– هذا ما يبدو. ومع ذلك... ماذا لدينا هنا؟

كان جونز يتكلّم، ويقلّب عددًا من المجلّات ملقاة على طاولة عند كعب السرير.

– لا شيء هنا، سبق أن نظرتُ، قلت.

كان ذلك صحيحًا، فقد تصفّحت المجلّات بسرعة. «سنتشوري»، «أتلانتيك مانثلي»، «نورث أميركان ريفيو». لكنّ تلك المطبوعات ليست ما أثار اهتمام جونز، فقد أخرج من إحداها بطاقة إعلانيّة وأراني إيّاها، وقد كُتب عليها:

أفضل مقوٍّ للشعر على الإطلاق

«لاكجوريانت» من هورنر

العلاج المشهور عالميًّا

للصلع والشيب والشوارب غير الكثيفة

يؤكّد الأطبّاء والمحلّلون أنّه آمن تمامًا

وخالٍ من أيّ مكوّنات معدنيّة أو مضرّة

يصنعه حصريًّا ألبرت هورنر

طريق تشانسري، لندن إي 1

– لم يكن جوناثان بيلغريم أصلع، بل كان له شعر جميل.

– أنت ترى لكنّك لا تلاحظ، قال جونز مبتسمًا. أنظر إلى الاسم: هورنر، والعنوان: الرقم 13.

– هورنر 13! هتفتُ. إنّها العبارة التي عثرنا عليها في المفكّرة في دُرج مكتب سكوتشي لافيل.

– تمامًا. وإذا كان عميلكم بالكفاءة التي تتحدّث عنها، فمن المحتمل جدًّا أنّه ترك هذه الورقة هنا على أمل أن يتمّ العثور عليها. وهي طبعًا لن تعني شيئًا لمَن نظّف الغرفة.

– إنّها كذلك لا تعني لي شيئًا! ما صلة مقوّي الشعر بكلارنس ديفرو أو بجرائم منزل بلايدستون؟

– سوف نرى. للمرّة الأولى، يبدو أنّ لسترايد قد أفادنا في تحقيقنا رغمًا عنه، وهذا أمر استثنائيّ. دسّ جونز البطاقة الإعلانيّة في جيبه، وقال لي:

– لن نذكر شيئًا من هذا، هل اتّفقنا يا تشايس؟

– طبعًا.

غادرنا الغرفة بعدما أقفلنا الباب خلفنا، وعدنا للنزول.

الفصل العاشر

هورنر، طريق تشانسري

من حسن حظّنا أنّ هورنر نشر إعلانًا عن نفسه يحمل إشارة عمود الحلّاقين الحمراء والبيضاء، وإلّا لما كنّا عثرنا عليه ربّما. لم يكن العنوان في طريق تشانسري فعلًا، بل في زقاق ضيّق وموحل يصل إلى حدائق ستابلز إن، على زاويته متجر للخردوات اسمه «رايلي وأبناؤه» و«شركة طريق تشانسري للودائع»، يليهما صفّ صغير من المنازل المتواضعة. كان دكّان الحلّاق في الردهة الأماميّة لأحدها. وفوق بابه لافتة، وفي الواجهة إعلان يقول: «الحلاقة ببنس، وقصّ الشعر ببنسين». وعلى أحد جانبيه متجر للتبغ أُقفل، وكذلك كان المنزل في المقابل يبدو مهجورًا أيضًا.

كان عازف أرغن يدويّ يعزف في الشارع، جالسًا على كرسيّ بلا ظهر، معتمرًا قبّعة عاليّة متجعّدة، ويرتدي معطفًا باليًا متهدّلًا. لم يكن عزفه جيّدًا. ولو كنت أعمل في المنطقة لأثار جنوني بقرقعة آلته وأنغامها النشاز. لحظة رآنا، وقف مناديًا: «مقوٍّ للشعر ثمنه نصف بنس أو بنس. جرّبا مقوّي الشعر الخاصّ هورنر! قصّا شعركما واحلقا ذقنيكما هنا!» كان رجلًا غريب الأطوار، نحيلًا جدًّا، ويترنّح في وقفته. مع اقترابنا توقّف عن العزف، وناولنا بطاقة من محفظة معلّقة على كتفه، شبيهة بتلك التي وجدناها في «بوسطنيان».

دخلنا المبنى إلى غرفة ضيّقة وغير مريحة، فيها كرسيّ حلاقة واحد تقابله مرآة متصدّعة جدًّا ويعلوها الغبار حتّى تكاد لا تعكس شيئًا على الإطلاق.

رأينا أيضًا رفّين عليهما زجاجات «لاكجوريانت»، وأدوية لمنع تساقط الشعر، ومستحضرات طبيّة أخرى. بقيت أرض الدكّان من دون كناسة، وانتشرت فوقها خصلات من الشعر القديم. لم يكن ذلك بالمنظر الجميل الذي قد يتمنّى المرء رؤيته، إلّا أنّه لم يكن بسوء قصعة الصابون، التي تحتوي كتلة متجمّدة لا تزال فيها شعيرات من لحى الرجال. وكنت أفكّر في أنّ هذا آخر مكان في لندن كنتَ لأرغب في أن أقصده لأقصّ شعري، حين وصل الحلّاق.

صعد الرجل درجًا في نهاية الردهة وسار نحونا متمايلًا، وماسحًا يديه بمنديل. كان من الصعب تحديد عمره، فقد بدا عجوزًا وشابًّا في الوقت عينه، وذا وجه مستدير وهادئ ومحبّب، وحليق الذقن، ومبتسمًا. إلّا أنّ قصّة شعره كانت في غاية السوء، حتّى ليكاد المرء يخال أنّ هرًّا هاجمه. فشعره كان طويلًا من إحدى الجهتين وقصيرًا من الأخرى، وقد اختفت كتل منه فظهرت مكانها جمجمته. كما أنّه لم يُغسَل منذ بعض الوقت فظهر بلون وشكل أقلّ ما يُقال فيهما إنّهما بشعان. لكنّه كان ودودًا، فقد قال لنا بحماسة:

– صباح الخير أيّها السيّدان! برغم أنّ هذا الطقس اللعين يرفض أن يتغيّر! هل عرفَت لندن طقسًا ماطرًا وسيّئًا كهذا؟ وقد بتنا في أيّار! كيف يمكنني أن أخدمكما؟ هل يرغب أحدكما بقصّ شعره؟ أم كلاكما؟ لحسن حظّكما أنّ الجوّ هادئ جدًّا اليوم.

كان ذلك صحيحًا بكلّ معنى الكلمة، فقد اختار عازف الأرغن اليدويّ في الخارج أن يصمت أخيرًا.

– لم نأتِ إلى هنا لكي تقصّ لنا شعرنا، أجابه جونز، وهو يحمل إحدى الزجاجات ويشمّ محتواها. ثمّ سأله: هل أنت ألبرت هورنر؟

– لا يا سيّدي، والحمد لله! السيّد هورنر مات منذ زمن طويل. لكنّ هذه مؤسّسته، وقد تسلّمتُها.

– منذ وقت قصير على ما يبدو. قال جونز ملاحظًا.

نظرت إليه، متسائلًا كيف استطاع الوصول إلى هذا الاستنتاج. فقد بدا لي أنّ الرجل والدكّان هنا منذ سنوات.

– عمود الحلّاقين قديم، قال جونز بهدف الإيضاح لي. لكنّني لاحظت أنّ البراغي التي تثبّته بالجدار جديدة. لعلّ الرفوف يعلوها الغبار، على عكس الزجاجات. وهو ما ينطبق عليه التفسير عينه.

– أنت على حقّ تمامًا! هتف الحلّاق. مضى على وجودنا هنا أقلّ من ثلاثة أشهر، لكنّنا حافظنا على الاسم القديم. ولمَ لا؟ فالسيّد هورنر العجوز كان مشهورًا ومحلّ إعجاب كبير. وقد بات لدينا زبائن في أوساط المحامين والقضاة العاملين في هذه المنطقة ولو أنّ كثيرين بينهم يصرّون على وضع الشعر المستعار.

– ما اسمك؟ سألته.

– سيلاس بيكيت، في خدمتك.

أبرز جونز الإعلان، وقال له:

– وجدنا هذا في نادٍ يدعى «بوسطنيان». أظنّ أنّ الاسم لا يعني لك شيئًا، ولا الرجل الذي كان ينزل هناك، وهو سيّد أميركيّ اسمه جوناثان بيلغريم.

– أميركيّ يا سيّدي؟ لا أعتقد أنّني استقبلت أميركيّين، وأضاف مشيرًا إليّ: ما عداك أنت.

لم يكن بيكيت محقّقًا، لكنّ لكنتي هي التي كشفت هويّتي.

– واسم سكوتشي لافيل، هل سمعت به؟

– أنا أكلّم زبائني يا سيّدي، لكنّهم نادرًا ما يطلعونني على أسمائهم. هل كان أميركيًّا أيضًا؟

– وكلارنس ديفرو؟

– أنت تسرع كثيرًا يا سيّدي! الأسماء كثيرة جدًّا. هل يمكنني أن أثير اهتمامكما بزجاجة من مقوّي الشعر، سألنا بوقاحة تقريبًا، وكأنّه يستعجل إنهاء المحادثة.

– هل تعرفه؟

– كلارنس ديفرو؟ لا يا سيّدي. لمَ لا تجرّب في متجر الخردوات المقابل. يؤسفني جدًّا ألّا أستطيع مساعدتك. باختصار، يبدو أنّ كلًّا منّا يضيّع وقت الآخر.

– ربّما يا سيّد بيكيت، لكنّ هناك أمرًا آخر يمكنك قوله وقد يثير اهتمامي.

رأيت جونز يتفحّص الحلّاق بدقّة، ثمّ سأله:

– هل أنت رجل متديّن؟

كان السؤال مفاجئًا، حتّى أنّني لا أعرف مَن كان أكثر شعورًا بالمفاجأة: بيكيت أم أنا.

– عفوًا؟ قال بيكيت.

– رجل متديّن. هل تذهب إلى الكنيسة؟

– لماذا تسألني؟

ولمّا لم يجب جونز، تنهّد بيكيت الذي بدا عليه بوضوح أنّه يستعجل التخلّص منّا، وأجاب:

– لا يا سيّدي، لبئس حظّي أنّني لا أرتاد الكنيسة بشكل منتظم.

– هذا ما فكّرتُ فيه، تمتم جونز. لقد أوضحت تمامًا أنّك لا تستطيع مساعدتنا يا سيّد بيكيت. أتمنّى لك يومًا طيّبًا.

غادرنا دكّان الحلّاق، وسرنا عائدين إلى طريق تشانسري. وخلفنا عاد عازف الأرغن اليدويّ إلى آلته. وحالما استدرنا عند المنعطف توقّف جونز ضاحكًا وقال:

– لقد وقعنا على أمر لافت جدًّا هنا يا صديقي، حتّى هولمز نفسه كان ليجد طرافة فيه: حلّاق يجهل قصّ الشعر، وعازف أرغن يدويّ لا يجيد العزف، ومقوٍّ للشعر يحتوي كمّيات كبيرة من البنزوين. لا يمكنني تشبيه الأمر بقضيّة «مشكلة الغلايين الثلاثة»، لكنّه لا يخلو من الأهمّية.

– ما معنى ذلك؟ سألته بلهفة. ولماذا سألت السيّد بيكيت عن معتقداته الدينيّة؟

– أليس الأمر بديهيًّا بالنسبة إليك؟

– لا، على الإطلاق.

– سيتّضح الأمر في وقت قريب. سنتناول العشاء معًا هذا المساء. لماذا لا تأتي إلى سكوتلانديارد عند الثالثة؟ يمكننا اللقاء في الخارج، كما فعلنا المرّة الماضية، وآنذاك سأشرح لك كلّ شيء.

إنّها الساعة الثالثة.

وصلت عند الموعد تمامًا. وترجّلت في وايتهول من العربة ذات العجلتين مع دقّات ساعة بيغ بن. توقّفتُ العربة عند الجهة البعيدة من الطريق، أي المقابلة لسكوتلانديارد، وخرجتُ منها، ثمّ دفعتُ للسائق أجرته. كان طقس بعد ظهر ذلك اليوم مشعًّا خاليًا من الغيوم، برغم أنّه ظلّ باردًا قليلًا.

يجب أن أشرح بدقّة ما حدث.

رأيت فتى يعبر الشارع أمامي، سرعان ما عرفته. إنّه بيري، الذي جالسني في مقهى رويال، وهدّدني بسكّين على عنقي. وقفت هناك وبدا لي أنّ كلّ شيء تجمّد، وكأنّما التقط رسّام المشهد ووضعه في لوحة. حتّى من بعيد، رأيت بيري محاطًا بما لا يمكنني وصفه إلّا بهالة من التهديد. هذه المرّة، كان بزيّ مساعد بحّار. فقد اعتمر قبّعة بحّارة وارتدى سترة زرقاء غامقة لها خطّان من الأزرار، وعلّق على إحدى كتفيه جعبة جلديّة يمتدّ حزامها بشكل مائل على صدره نحو جنبه الثاني. وكما في المرّة الماضية، بدا الزيّ الذي يرتديه ضيّقًا جدًّا عليه، وخصوصًا عند الخصر والعنق. حتّى أنّ شعره بدا أكثر صفرة في شمس بعد الظهر.

لماذا كان هنا؟ ماذا يفعل؟

ظهر أثيلني جونز خارجًا من سكوتلانديارد، وأخذ يجيل نظره باحثًا عنّي. رفعت يدي لتحذيره، رآني فأشرت ناحية الفتى الذي كان يسير بسرعة على الرصيف، وقدماه الممتلئتان الصغيرتان تدفعان به إلى الأمام بخطوات حثيثة.

عرفه جونز، لكنّه كان أبعد من أن يستطيع فعل شيء.

كانت عربة ذات عجلات أربع تنتظر بيري، على مسافة لا تتجاوز الخمسة وأربعين مترًا من حيث أقف. حين اقترب منها فُتح باب، ورأيت بداخلها رجلًا نصف مختبئ في الظلمة. كان طويلًا ونحيلًا، وملابسه سوداء بكاملها. تعذّر عليّ تمييز وجهه، لكن ظننتُني أسمعه يسعل. هل رآه جونز؟

ذلك غير محتمل لأنّه كان على مسافة بعيدة أمامي، وعلى الجهة الثانية من الطريق. صعد الفتى إلى العربة ذات العجلات الأربع، وأغلق الباب خلفه.

في الحال، أسرعت بالركض نحو العربة. ورأيت الحوذيّ يضرب الحصان بسوطه، فاندفعت العربة إلى الأمام. ظننتني أستطيع الوصول إليها. كنت أرى جونز بطرف عيني، وشاهدته يبدأ بالسير، مستعينًا بعصاه. تابعت العربة ذات العجلات الأربع طريقها عبر وايتهول، ثمّ زادت سرعتها مع توجّهها إلى ساحة البرلمان. كنت أعدو بأسرع ما أستطيع، لكنّني لم أستطع الاقتراب منها. وللوصول إليها، كان عليّ عبور طريق وايتهول. لكنّ حركة السير كانت كثيفة، وما لبثت العربة ذات العجلات الأربع أن توارت عند المنعطف.

تركت الرصيف لأجتاز الشارع نحوها.

صاح بي أثيلني جونز محذّرًا. لم أسمعه لكنّني رأيته يناديني، رافعًا يديه.

وفجأة اندفعت نحوي حافلة. في البداية لم أرَ منها سوى حصانين هائلي الحجم، وحشيّين، يفترسانني بأعينهما. بدوا معًا وكأنّهما مخلوق واحد من الأساطير الإغريقيّة. وآنذاك انتبهت إلى العربة التي يجرّانها، والحوذيّ يحاول لجمهما. وعلى سطحها نحو خمسة أشخاص لا حول لهم يشهدون مرتعبين على الدراما التي توشك على الحدوث أمام أعينهم.

صرخ أحدهم. وظلّ الحوذيّ يحاول لجم الحصانين، وسمعت قرع أظلافهما، وصرير العجلات فوق سطح الطريق الصلب، ذلك السطح عينه الذي رأيته يندفع نحوي وأنا أقذف بنفسي إلى الأمام. دار العالم كلّه من حولي، ورأيت السماء فوق عينيّ.

كدت أُقتل، لكنّ الحافلة مرّت على مسافة بوصات قليلة منّي، وانحرفت لتتوقّف على مسافة قصيرة أمامي. أصبتُ في رأسي وركبتي، لكنّني لم أحسّ بالألم. إستدرتُ باحثًا عن العربة ذات العجلات الأربع، لكنّها كانت قد توارت، ونجح الفتى ورفيقه في الهروب.

وصل جونز إليّ. وأنا حتّى اليوم أجهل كيف استطاع اجتياز المسافة بهذه السرعة، وصاح بي:

– تشايس! يا صديقي العزيز! هل أنت بخير؟ كدت تموت دهسًا.

– هل رأيته؟ سألته. بيري! الفتى الذي رأيناه في مقهى رويال! كان هنا، ومعه رجل...

– نعم.

– هل رأيت وجهه؟

– لا. إنّه رجل في نحو عقده الخامس أو السادس ربّما. طويل ونحيل، لكنّه كان مختبئًا في داخل العربة.

– ساعِدني...

إنحنى جونز ليساعدني على الوقوف. شعرت بالدم يسيل على حاجبي، فمسحته بيدي.

– ما كان الأمر؟ لماذا أتيا إلى هنا؟ سألته.

أتى الردّ على سؤالي بعد ثوانٍ.

كان الانفجار قريبًا جدًّا حتّى أنّنا شعرنا به بقدر ما سمعناه، وهبّ نحونا عصف من الهواء والغبار. إرتفع من حولنا صهيل الجياد وخرجت العربات عن السيطرة، فيما جهد حوذيّوها للجمها. رأيت عربتين تتصادمان، فانقلبت إحداهما وتحطّمت أرضًا. توقّف المشاة، رجالًا ونساءً، خائفين، وكلّ منهم يتمسّك بالآخر. ثمّ سقطت علينا كالمطر قطع من الحجارة والزجاج، وامتلأ الهواء برائحة احتراق. نظرت من حولي فرأيت سحابة ضخمة من الدخان ترتفع من داخل سكوتلانديارد. طبعًا! أيّ هدف سوى هذا؟

– الشياطين! هتف جونز.

أسرعنا بعبور الشارع، وكانت العربات قد توقّفت. ومن دون التفكير حتّى في احتمال وجود قنبلة ثانية. إندفعنا إلى داخل المبنى، نشقّ طريقنا في مواجهة الموظّفين ورجال الشرطة والزوّار الذين يحاولون يائسين العثور على مفرّ. بدا الطابق الأسفل على الأقلّ غير متضرّر. ولكنّ شرطيًّا ظهر وهو يهبط الدرج فيما وقفنا هناك، وقد تلطّخ وجهه بالسواد وسال الدم من جرح في رأسه. أمسكه جونز وسأله:

– ماذا جرى؟ في أيّ طابق؟

– في الطابق الثالث، أجاب الرجل. كنت هناك! وكان قريبًا جدًّا...

لم نضيّع وقتنا، هرعنا إلى الدرج وبدأنا التسلّق الطويل، تمامًا كما فعلنا معًا في الأمس فقط. مررنا بكثير من ضبّاط الشرطة والمساعدين الذين يتوكّأ بعضهم على بعض للنزول، والكثيرون منهم مصابون. نَصَحَنا بعضهم بألّا نتابع طريقنا لكنّنا تجاهلناهم. كلما ارتقينا، كنّا نشمّ رائحة حريق تزداد قوّة، حتى بات الدخان كثيفًا فصعب علينا التنفّس. وصلنا أخيرًا إلى الطابق الثالث، وفي الحال صادفنا أحد الذين شاركوا في المؤتمر، وهو المفتّش غريغسون. بدا شعره الأشقر متلبّدًا وأغبر، كما كان بحالة صدمة، إلّا أنّ أيّة إصابة لم تظهر عليه.

– كنت في غرفة التلغراف، صاح. أحضر صبيّ تسليم طردًا ووضعه عند جدار مكتبك يا جونز. لو كنتَ في مكتبك... وصمت غريغسون، والرعب يملأ عينيه، ثمّ أضاف: أخشى أنّ ستيفنز قُتل.

إنقبضت ملامح جونز، وسأل زميله:

– مَن أيضًا؟

– لا أعرف. تلقّينا أمرًا بإخلاء المبنى.

لم نكن ننوي أن نمتثل للأمر، بل تابعنا سيرنا قُدُمًا، متجاهلين المصابين الذين مرّوا بنا وهم يعرجون، بعضهم ممزّق الملابس، والبعض الآخر تسيل منه الدماء. ساد في الطابق الثالث صمت غريب. لم يكن هناك صوت صراخ، لكن ظننتني سمعت فرقعة ألسنة اللهب. تبعت جونز، ووصلنا أخيرًا إلى باب مكتبه، الذي كان مفتوحًا. ثم نظرت إلى الداخل لأرى مشهدًا مرعبًا.

لم يكن المكتب كبيرًا، وكان فيه نافذة واحدة تطلّ على الباحة الداخليّة، مثلما أخبرني جونز. كانت الغرفة ملأى بركام الجدار الأيسر الذي تحطّم بكامله. وفيها مكتب خشبيّ غطّته الحجارة والغبار. في الحال أدركت صحّة ما قاله غريغسون، فلو كان جونز جالسًا هنا لَقُتل بالتأكيد. كما رأيت شابًّا ملقى على الأرض، وقد تقوقع فوقه رجل شرطة بدا عليه العجز والدوار. سارع جونز وجثا بقربهما. بدا جليًّا أنّ الشابّ ميت، ففي جانب رأسه جرح مخيف، ويده ممدودة وأصابعه جامدة.

– ستيفنز! هتف جونز. كان سكرتيري... ومساعدي.

كان الدخان يدخل الغرفة عبر ثقب الجدار، ورأيت أنّ الأضرار في غرفة التلغراف أشدّ سوءًا. فقد كانت تحترق، وقد طالت النيران السقف ووصلت حتّى إلى السطح. رأينا جثّتين أخريين وسط الحطام، بعدما تلقّتا إصابات بليغة وشوّههما الانفجار حتّى تعذّرت معرفة عمريهما. تناثرت الأوراق في كلّ مكان وبدا بعضها يتطاير في الهواء، بفعل الحرارة بلا شكّ. فالحريق كان ينتشر بسرعة.

مضيت إلى جونز وقلت له:

– لا شيء نستطيع القيام به! علينا أن نفعل ما قيل لنا ونغادر المبنى. ثمّ قلت للشرطيّ الشابّ: انصرِف الآن!

إنصرف الشرطي، والتفت جونز نحوي، فرأيت في عينيه دموعًا. إلّا أنّني لم أدرِ ما إذا كانت بسبب الحزن أو الدخان. سألني:

– هل كنت أنا المستهدَف؟

– أنا مقتنع بذلك، أجبته وأنا أهزّ رأسي إيجابًا.

أمسكت به وقدته إلى خارج المكتب. لم تنقضِ أكثر من دقائق قليلة على وقوع الانفجار، لكنّ الطابق الثالث خلا تمامًا. علمت أنّنا قد نموت إذا ما انتشر الحريق، أو غمرنا الدخان. فأرغمت جونز على مرافقتي إلى الدرج للنزول، برغم ممانعته. سمعت خلفي جزءًا من السقف ينهار في غرفة التلغراف. ربّما كان علينا حمل جثّة السكرتير القتيل، أو على الأقلّ تغطيتها احترامًا لحرمة الموت. إلّا أنّ سلامتنا الشخصيّة كانت لها الأولويّة في تلك اللحظة بالنسبة إليّ.

حين خرجنا إلى الهواء الطلق، رأيت شاحنات إطفاء كثيرة قد وصلت، وبدأ الإطفائيّون يتراكضون وهم يمدّون خراطيمهم على الرصيف. كما اختفت حركة السير تمامًا، والشارع الذي كان طبيعيًّا ومزدحمًا منذ هنيهات، بدا فارغًا على نحو مخيف. ساعدت جونز على الابتعاد من المبنى، وأجلسته على مقعد خالٍ. كان يتّكئ بقوّة على عصاه ولم تفارق الدموع عينيه.

– ستيفنز، تمتم قائلًا. إنّه يعمل معي منذ ثلاث سنوات. وقد تزوّج مؤخّرًا! كنت أكلّمه منذ نصف ساعة فقط.

– آسف. قلتُ له بعدما خانتني الكلمات الأخرى.

– حدث هذا الأمر من قبل. فقد انفجرت قنبلة في سكوتلانديارد منذ ستّ أو سبع سنوات. كان الفاعلون من الإيرلنديّين الكاثوليك آنذاك، ولم أكن في لندن. أمّا الآن... بدا عليه الدوار، وسألني: أحقًّا تعتقد أنّني كنت المستهدَف؟

– لقد حذّرتُك، قلت له. إنّهم أشخاص بلا رحمة، وبالأمس فقط هدّدك إدغار مورتلايك.

– إنتقامًا منّا على مداهمتنا نادي «بوسطنيان»؟

– لا يمكننا إثبات ذلك، لكنّني لا أرى أيّ سبب آخر لهذا الهجوم، قلت له. لو لم تخرج للترحيب بي، لبقيتَ جالسًا في مكتبك. ألا ترى يا جونز؟ لقد نجوت بفارق ثوانٍ قليلة.

أمسك بذراعي، وقال لي:

– أنت أنقذت حياتي.

– يسرّني ذلك جدًّا.

نظرنا عبر الشارع إلى رجال الإطفاء وهم يشغّلون مضخّات البخار، فيما راح الآخرون ينصبون السلالم. كان الدخان لا يزال منبعثًا من المبنى، وقد بات أشدّ كثافة وحجب السماء.

– ماذا الآن؟ سألته.

هزّ جونز رأسه بتعب، وارتسمت على عظام خدّيه وجبينه خطوط سوداء، وأظنّني لم أختلف عنه في ذلك. ثم أجابني قائلًا:

– لا أعلم، لكن مهما فعلت، لا تخبر إلسبث!

الفصل الحادي عشر

عشاء في كامبرويل

ركبنا القطار متأخّرين جدًّا عمّا كان مُزمعًا، وغادرنا جسر هولبورن فيادكت مع هبوط الليل، في حين بدت جموع الناس تختلط بالظلمة المفاجئة كبقعة حبر تتمدّد في ورقة. كان جونز في مزاج متعكّر جدًّا. وقد التقى لسترايد وغريغسون وبعض المفتّشين الآخرين في الساعات التي تلت الانفجار، لكنّ أيّ قرار ما كان ليُتّخذ حتّى اليوم التالي. بدا أن لا مفرّ من الاستنتاج بأنّه نجا بفارق ثوانٍ من محاولة لاغتياله. مثّلت كلمات إدغار مورتلايك دليلًا قاطعًا على ذلك، ولا شكّ أيضًا بأنّ توقيت الهجوم لم يأتِ مصادفة. كان لسترايد يؤيّد فكرة اعتقال الشقيقين في الحال، إلّا أنّ جونز هو مَن ألحّ في النهاية على الحذر. فدليله الوحيد ليس إلّا محادثة وجيزة قد ينكران حدوثها. وقال إنّه قد وضع خطّة أفضل، لكنّه لم يكن مستعدًّا للإفصاح عن ماهيّتها. وافقتُه الرأي في ذلك. فلسنوات عدّة تفوّق كلارنس ديفرو وعصابته على وكالة بينكرتون، ولا شكّ بأنّهم سيتفوّقون كذلك على الشرطة البريطانيّة. ولئن أردنا النيل منهم، فعلينا توخّي أقصى درجات الحذر.

– من غير المحتمل أن تكون إلسبث قد سمعت بخبر القنبلة، قال جونز مع وصول قطارنا إلى ناحية من لندن تدعى كامبرويل، واستعدادنا للترجّل منه. وأضاف: سيكون عليّ أن أخبرها لأنّه من غير الممكن إخفاء

معلومات كهذه عنها. لكنّي لن أشير إلى مكان وضع القنبلة واحتمال أنّني كنت أنا المستهدف...

– لن نقول لها شيئًا من هذا، قلتُ.

– سوف تشكّ. إنّها بارعة في اكتشاف الحقائق، قال متنهّدًا. ما زلت لا أفهم أعداءنا. ما الذي أملوا تحقيقه؟ لو قُتلت فسيحلّ محلّي مفتّشون كثيرون. أنت نفسك التقيتَ عددًا منهم. ولو أرادوا موتي حقًّا، فثمّة طرق أخرى أسهل بكثير لتحقيق هدفهم. هنا مثلًا، على رصيف محطّة، قد يستطيع قاتل طعني بخنجر أو خنقي بحبل بلمحة بصر.

– من المحتمل أنّ هدفهم لم يكن قتلك قطّ، قلت له.

– ليس هذا ما قلتَه من قبل.

– قلتَ إنّك الهدف، وما زلت على رأيي. أمّا أن تموت أو تنجو، فذلك ما لا يهمّ كلارنس ديفرو. لم يعدُ الأمر كونه استعراضًا لقوّته ولمناعته في وجه القضاء. إنّه يهزأ بالشرطة البريطانيّة، وفي الوقت عينه يوجّه إليها تحذيرًا: لا تقتربوا منّي، ولا تتدخّلوا في شؤوني.

– إذًا فهو يسيء فهمنا. فبعد ما جرى، سنضاعف جهودنا.

مكث جونز صامتًا إلى أن غادرنا المحطّة، وحينذاك تابع قائلًا:

– صدّقني يا تشايس، لا منطق في الأمر. مَن كان الرجل في العربة ذات العجلات الأربع؟ ماذا نفهم من اجتماع موريارتي وديفرو، ودور ذلك الصبيّ بيري، وجريمة قتل لافيل، وحتّى من أمر هورنر في طريق تشانسري؟ أستطيع أن أفهم كلّ مسألة على حدة، لكنّني وحين أحاول الجمع بينها، أجدها تنافي الحسّ السليم. الأمر أشبه بقراءة كتاب نُشرت فصوله بتسلسل غير صحيح، أو تعمّد كاتبه إثارة إرباك القارئ.

– لن نجد معنى الأمر إلّا حين نعثر على كلارنس ديفرو.

– بدأت أتساءل عمّا إذا كنّا سنجده فعلًا. كان لسترايد على حقّ. يبدو أنّه شبح، ولا حضور له.

– ألم تكن تلك حال موريارتي؟

– صحيح. موريارتي كان اسمًا، وحضورًا، وكيانًا ظللت أجهله حتّى النهاية. ولعلّ ديفرو أخذ منه العبرة. بدأ جونز يعرج في مشيته، متّكئًا بقوّة على عصاه. وقال لي: أنا متعب. أعذرني إن توقّفنا عن الكلام، عليّ أن أهيّئ نفسي لما ينتظرني في المنزل.

– هل كنت تفضّل ألّا آتي؟

– لا، لا يا صديقي. تأجيل العشاء سيجعل إلسبث تخشى أن تكون الأمور قد ساءت أكثر مما هي عليه. سنتناول العشاء معًا كما هو مخطّط له.

كانت المسافة بين هولبورن وكامبرويل قصيرة، ومع ذلك فقد بدت أطول في الظلام. وحين وصلنا، كان ضباب كثيف يغطّي الشوارع، فيخنق كلّ صوت، ويحوّل آخر المارّة إلى أشباح. مرّت بنا عربة ببطء ثقيل، وسمعت وقع نعال حصانها وصرير عجلاتها، غير أنّ العربة نفسها لم تبدُ لي سوى ظلّ معتم، توارى عند أحد المنعطفات.

كان جونز يقيم على مقربة من المحطّة. وبدا منزله كما تخيّلته، جميلًا في صفّ من المنازل المتشابهة والمتّصلة بجدران مشتركة، وذا نوافذ ناتئة وباب من الخشب الثقيل الأسود يحيط به عمودان من الجصّ الأبيض. كان طراز البناء إنكليزيًّا نموذجيًّا، يوحي بالهدوء والأمان. يرتفع المنزل عن الشارع ثلاث درجات، ساورني وأنا أرتقيها إحساس غريب بأنّني أدع خلفي كلّ مخاطر النهار. لعلّ ذلك يعود إلى دفء الضوء المتسرّب من أطراف النوافذ المحجوبة بالستائر، أو إلى رائحة اللحم والخضار المنبعثة من المطبخ الواقع في مكان ما في الأسفل. لكنّني شعرتُ بالسرور لوجودي هناك. دخلنا ردهة ضيّقة، يقابلها درج يغطّيه السجّاد. سار جونز أمامي ودخلنا القاعة الأماميّة، التي كانت تمتدّ بعمق المنزل، وفيها حاجب بأقسام قابلة للطيّ، طُوي لتظهر أمامنا مباشرة مائدة طعام أُعِدّت لثلاثة أشخاص، وفي الخلف مكتبة وبيانو. كان في المدفأة نار مشتعلة، من غير حاجة حقيقيّة إليها. فبوجود الأثاث الوفير، والعلب والسلال المطرّزة، وورق الجدران الأحمر الغامق، والستائر الثقيلة، بدت الغرفة باعثة على الدفء والارتياح حتى من دون نار المدفأة.

كانت السيّدة جونز جالسة في أريكة وثيرة، وتتّكئ إليها فتاة في السادسة من عمرها ذات جمال أخّاذ، وعلى ذراعها دمية الشرطيّ الفرنسيّ. كانت أمّها تقرأ لها كتابًا، لكنّها أغلقته مع دخولنا، والتفتت إلينا الفتاة مغتبطة برؤيتنا. لم تكن تشبه والدها، بل بدت بشعرها البنّي الفاتح اللون والمتجعّد، وبعينيها الخضراوين المشعّتين، وبابتسامتها، أشبه بوالدتها. وكان واضحًا أنّ إلسبث جونز هي انعكاس لصورة هذه الفتاة مرّت عليه الأعوام.

– ألست في سريرك يا بياتريس؟ سألها جونز.

– لا يا أبي، سمحت لي أمّي بالسهر.

– حسنًا، هذا هو السيّد الذي أردتِ لقاءه. إنّه صديقي السيّد فريدريك تشايس.

– طاب مساؤك يا سيّدي، قالت الفتاة، وهي تريني الدمية. هذا الشرطيّ أتى من باريس. أبي أعطاني إيّاه.

– يبدو رجلًا لطيفًا، قلت لها، محاولًا ألّا أظهر الشعور الذي يراودني دائمًا بعدم الارتياح في حضور الأولاد.

– لم يسبق لي أن التقيتُ أميركيًّا قطّ.

– أرجو ألّا تجديني مختلفًا جدًّا عنك. فلم تنقضِ بعد سنوات كثيرة جدًّا على مغادرة أجدادي هذا البلد. جدّي الأوّل أتى من لندن، من مكان يدعى باو.

– هل نيويورك صاخبة جدًّا؟

– صاخبة؟ سألتُها مبتسمًا للاختيار الغريب لهذه الكلمة. وأضفت: نعم، لا شكّ بأنّها شديدة الازدحام، كما أنّ أبنيتها مرتفعة جدًّا، وبعضها مرتفع جدًّا لدرجة أنّنا نسمّيها ناطحات سحاب.

– ألأنّها تنطح السحاب؟

– لأنّها تبدو كذلك.

– كفى يا بياتريس. مربّيتك تنتظرك في الأعلى، قالت السيّدة جونز. ثمّ التفتت إليّ لتضيف: إنّها فضوليّة جدًّا، لدرجة أنني أتوقّع أن تصبح مفتّشة تحرٍّ كأبيها في أحد الأيّام..

– أخشى أنّ وقتًا طويلًا سينقضي قبل أن تصبح شرطة لندن مستعدّة لقبول النساء في صفوفها، قال جونز ملاحظًا.

– وآنذاك ستصبح مفتّشة تحرٍّ، مثل السيّدة غلادين في روايات السيّد فورستر الرائعة. وقالت وهي تبتسم لابنتها: يمكنك أن تتمنّي ليلة طيّبة للسيّد تشايس.

– طابت ليلتك يا سيّد تشايس، قالت الفتاة وأسرعت بمغادرة الغرفة طائعة.

حوّلت انتباهي ناحية إلسبث جونز. ووجدتُ أنّ انطباعي الأوّل كان في محلّه، فشبهها بابنتها كبير مع فارق أنّ شعر الأمّ قصير فوق جبينها ومرفوع على الطراز الإغريقيّ. بدت لي امرأة تولي مَن حولها اهتمامًا كبيرًا، وتتّسم أفعالها بالذكاء الرصين. إقتصرت ملابسها البسيطة على فستان ورديّ فاتح مشدود بحزام وذي ياقة عالية، ولم تتزيّن بأيّة حلية.

بعدما انصرفت بياتريس حوّلت إليّ انتباهها الكامل، فقالت:

– سيّد تشايس، يسرّني جدًّا لقاؤك.

– ولقاؤك يسرّني أيضًا، سيّدتي.

– أترغب في شرب شيء من الغروغ؟ سألتني وهي تشير إلى إبريق وثلاثة أكواب وُضعت على طاولة نحاسيّة بالقرب من المدفأة. يبدو أنّ ليالي الشتاء هذه لن تنتهي أبدًا، وأحب الاحتفاظ بشراب دافئ لزوجي حين يعود إلى المنزل.

صبّت ثلاثة أكواب من شراب الرّم المخفّف بالماء، وجلسنا نحن الثلاثة يخيّم علينا الصمت الغريب قليلًا الذي يحلّ حين يتلاقى أشخاص للمرّة الأولى، ولا أحد منهم يعرف كيف يتصرّف. ثمّ ظهرت الخادمة لتعلن لنا أنّ العشاء جاهز. وحالما جلسنا إلى المائدة، ساد جوّ أكبر من الارتياح.

أحضرت الخادمة يخنة لذيذة الطعم، مصنوعة من لحم عنق الضأن المسلوق مع الجزر واللفت المسحوق، كانت بلا شكّ أفضل بكثير من أيّ طعام قُدّم لي في هكسام. وفيما راح أثيلني جونز يصبّ النبيذ، كانت زوجته توجّه الحديث في الاتّجاه الذي تريده. الواقع أنّ مهارتها تبدّت في أنّ حديثها

بدا طبيعيًا وعفويًا، لكنّني أدركت في الساعة التالية أنّنا لم نتطرّق لأيّ شأن يمتّ إلى الشرطة بصلة ولو حتّى مرّة واحدة. طرحت عليّ أسئلة كثيرة تتعلّق بأميركا: الطعام، والثقافة، وطبيعة الأشخاص. أرادت أن تعرف ما إذا كنت قد رأيت الآلة التي اخترعها طوماس إديسون لعرض الصور المتحرّكة، والتي تناولتها الصحافة البريطانيّة كثيرًا، لكنّها لم تُعرض بعد في بريطانيا. لكنّني لم أكن قد رأيتها للأسف.

– كيف تجد إنكلترا؟ سألتني.

– أحببت لندن كثيرًا، أجبتها. وهي تذكّرني ببوسطن أكثر ممّا بنيويورك، خصوصًا من حيث عدد المعارض الفنيّة، والمتاحف، والعمارة الجميلة، والمتاجر. تاريخكم هنا أعرق بلا شكّ، وأحسدكم على ذلك، متمنّيًا لو أنّ لديّ وقتًا أطول للمتعة. فكلّما سرتُ في الشوارع أجد ألوانًا شتّى من الترفيه.

– قد تغريك فكرة البقاء هنا وقتًا أطول.

– هذا غير مستبعَد يا سيّدة جونز. لطالما رغبتُ في السفر إلى أوروبا، شأني شأن كثير من الأميركيّين. في النهاية، أصول معظمنا من هنا. إذا حالفني الحظّ في هذا التحقيق الذي أشارك زوجك به، قد أستطيع إقناع رؤسائي بمنحي إجازة لمدة سنة.

كانت تلك المرّة الأولى التي أشير فيها إلى العمل الذي يجمعني بأثيلني جونز. ومع وصول البودينغ الساخن بالخبز والزبدة، تحمله الخادمة الصغيرة القامة التي بدا أنّها تظهر من المجهول لتعود وتختفي فجأة مثلما ظهرت، انتقلت محادثتنا إلى أمور أخطر.

– يجب أن أخبرك أمرًا سيثير قلقك يا عزيزتي، بدأ جونز حديثه. لن تلبثي أن تعرفيه بواسطة الجرائد، برغم أنّك نادرًا ما تقرأينها...

وبدأ يروي لها أحداث بعد الظهر، والهجوم على سكوتلانديارد، ودوري في ما حدث. وكما اتّفقنا لم يذكر مكان القنبلة ولا موت سكرتيره ستيفنز. أصغت إلسبث جونز بصمت إلى أن انتهى، ثمّ سألته:

– كم شخصًا قُتل؟

– ثلاثة، غير أنّ عددًا كبيرًا من الأشخاص قد جُرحوا. أجاب جونز.

– يبدو لي أمرًا لا يصدَّق أن يفكّر أحدهم في هجوم كهذا على شرطة لندن، ناهيك عن تنفيذه، قالت. وذلك بعد وقت قصير جدًا من الأحداث المروّعة التي وقعت في هايغايت! ثمّ التفتت إليّ محدّقة بي بعينيها الذكيّتين المتفحّصتين، وقالت: سيّد تشايس، أعذرني إن قلت إنّ قوى شرّيرة جدًّا لحقت بك من أميركا.

– أخالفك الرأي في نقطة أساسيّة يا سيّدة جونز. أنا مَن لحقتُ بها.

– ومع ذلك، فقد وصلتما في وقت واحد.

– المسؤوليّة لا تقع على عاتق السيّد تشايس، تمتم جونز في نبرة لوم.

– أعرف ذلك يا أثيلني، وأعتذر إذا كان كلامي قد أوحى بشيء آخر. لكنّني بدأت أتساءل عمّا إذا كانت هذه المسألة تخصّ الشرطة حقًّا. لعلّ الوقت قد حان لتتدخّل سلطات عليا.

– لعلّها تدخّلت.

– «لعلّها» لا تكفي. لقد تعرّض رجال شرطة للقتل! قالت، لتضيف بعد تريّث: هل كانت القنبلة قريبة جدًّا من مكتبك؟

– كانت في الطابق عينه، قال جونز بعد تردّد.

– هل كنت أنت المستهدف؟

رأيته يفكّر قبل أن يجيب قائلًا:

– لا يزال الوقت مبكرًا جدًّا للجزم بذلك، فمكاتب عدّة مفتّشين قريبة من مكان القنبلة. لعلّ أيًّا منّا هو الهدف. أستحلفك يا عزيزتي أن نكفّ عن الحديث في هذا.

لحسن الحظّ أنّ الخادمة اختارت تلك اللحظة لتظهر حاملة القهوة، فقال جونز:

– هلّا ننتقل إلى الغرفة الأخرى؟

نهضنا عن المائدة، وعدنا إلى غرفة الجلوس حيث وهنت نار المدفأة. آنذاك أعطت الخادمة السيّدة جونز رزمة ملفوفة بورق أسمر، أعطتها بدورها لزوجها فيما كنّا نهمّ بالجلوس، وقالت له:

– آسفة لإزعاجك يا أثيلني، لكن، أتمانع الذهاب إلى منزل السيّدة ميلز؟
– الآن؟
– هذه ملابسها المغسولة، وبعض الكتب لتقرأها. ثمّ التفتت نحوي وتابعت تقول: السيّدة ميلز من أبناء رعيّتنا، وقد فقدت زوجها مؤخّرًا. وما زاد الطين بلّة أنّ صحّتها اعتلّت، لذلك نفعل ما بوسعنا فعله لنكون جيرانًا صالحين.
– أليست الساعة متأخّرة؟ سأل جونز زوجته والرزمة لا تزال في يده.
– لا أبدًا. فهي لا تنام باكرًا، كما أنني أخبرتها أنّك ستزورها، وقد سرّها سماع ذلك. أنت تعرف كم تحبّك. بأيّة حال، النزهة قبل النوم ستفيدك.
– حسنًا. ألعلّ تشايس يرافقني...؟
– السيّد تشايس لم ينهِ قهوته. سيبقى معي في غيابك.
كانت خطّتها واضحة. أرادت أن تكلّمني على انفراد، ورتّبت الأمور في سبيل ذلك. تمتّعتُ طوال تلك الأمسية بالتفرّج على صديقي أثيلني جونز في حميميّة منزله. ذلك الرجل الحازم والمندفع حين يحقّق في قضيّة ما، يصبح في حضور زوجته أكثر هدوءًا وانطواءً. كانا متقاربين بما لا يقبل الشكّ، كما أنّ كلًّا منهما يملأ صمت الآخر، ويستبق طلباته. ومع ذلك شعرت بأنّها الأقوى بين الاثنين. فبحضورها يفقد جونز الكثير من سلطته، وهذا ما جعلني أفكّر في أنّ شرلوك هولمز حتّى، قد يكون رجل تحرٍّ أقلّ براعة لو أنّه اختار الزواج.

وقف زوجها وأخذ الرزمة، ثمّ قبّلها برفق على جبينها وغادر الغرفة. إنتظرتْ حتّى سمعت صوت الباب الأماميّ يُغلق، ثمّ نظرت إليّ بطريقة مختلفة تمامًا. لم تعد ربّة المنزل المضيفة، وأدركت أنّها تقيّمني لتقرّر ما إذا كان بوسعها الوثوق بي. وبدأت حديثها بالقول:
– أخبرني زوجي أنّك تعمل رجل تحرٍّ لدى وكالة بينكرتون منذ فترة طويلة.

– منذ فترة طويلة جدًّا حتّى أنّني لم أعد أتذكّر يا سيّدة جونز، أجبتها. برغم أنّ الدقّة تقتضي القول أنّني محقّق لا رجل تحرّ. وبين هذا وذاك اختلاف.
– كيف؟

– أساليبنا في العمل مباشرة أكثر. حين تقع جريمة، نقوم بالتحقيق فيها. لكنّ المسألة في معظم الحالات لا تعدو كونها مسألة إجراءات، أي أنّنا، وبعكس البريطانيّين، لا نعتمد المواربة والخداع.

– هل تستمتع بعملك؟

فكّرتُ قليلًا ثمّ أجبتها:

– نعم. في هذا العالم أشخاص شرّيرون جدًّا، لا يحملون إلى الآخرين سوى البؤس، وأعتبر أنّ القضاء عليهم أمر محق.

– ألست متزوّجًا؟

– لا

– ألم يغرِك الزواج قطّ؟

– أنت صريحة جدًّا.

– أرجو ألّا تشعر بالإساءة. أرغب فقط في أن أعرفك على نحو أفضل قليلًا. هذا مهمّ بالنسبة إليّ.

– بهذه الحال، سأجيب على سؤالك. طبعًا أغراني الزواج. لكنّني بطبيعتي أحبّ الوحدة منذ أن كنت طفلًا. وفي السنوات الأخيرة سمحت لعملي بأن يستغرق وقتي كلّه. أحبّ فكرة الزواج لكنّني غير أكيد من أنّها ستناسبني.

هذا الاتّجاه الذي سلكه الحديث جعلني أشعر بعدم الارتياح، فحاولتُ تغيير الموضوع، وتابعتُ:

– لديك منزل جميل وعائلة ساحرة يا سيّدة جونز.

– زوجي مأخوذ جدًّا بك.

– هذا يسعدني.

– أتساءل عن رأيك فيه.

وضعت فنجان القهوة من يدي، وقلت لها:

– لست واثقًا من أنّني أفهم ما تعنين.

– هل تحبّه؟

– أحقًّا تريدينني أن أجيب على هذا السؤال؟

– لو لم أُرِد ذلك لما سألتك.

– أحبّه كثيرًا. رحّب بي وكنت غريبًا في هذا البلد، فعاملني بغاية اللطف في وقت كان الآخرون ليعيقوا فيه عملي بلا شكّ. كما أنّه رجل لامع جدًّا إذا جاز لي التعبير. وسأذهب إلى أبعد ممّا قلت: لم ألتقِ قطّ رجل تحرٍّ مثله، فأساليبه في العمل غير عاديّة.

– هل يذكّرك بأحد؟

تريّثتُ وقلت:

– يذكّرني بشرلوك هولمز.

– نعم، قالت بصوت اتّسم بالبرودة فجأة. شرلوك هولمز.

– سيّدة جونز، من الواضح جدًّا أنّك تعمّدتِ إخراج زوجك من المنزل. لكنّني أجهل سبب ذلك، كما أشعر بأنّ من غير اللائق الحديث عنه في غيابه. لذلك، لماذا لا تخبرينني بصراحة. ما الذي يدور في بالك؟

لم تقل شيئًا، لكنّها تفحّصتني بكثير من الدقّة. وفجأة خطر لي، وأنا أراها جالسة هناك والنار تنعكس برفق على وجهها، أنّها جميلة جدًّا. في النهاية قالت:

– لزوجي مكتب في الطابق الأعلى، يلجأ إليه أحيانًا حين يحقّق في قضيّة. أيهمّك أن تراه؟

– طبعًا.

– وأنا أودّ كثيرًا أن أريك إيّاه. لا تقلق، فهو يسمح لي بدخوله متى شئت، كما أنّنا لن نبقى فيه أكثر من دقيقة أو اثنتين.

تبعتها إلى خارج الغرفة، وصعدنا درجًا غُطّي جداره بورق مقلّم، وعُلّقت عليه لوحات بالألوان المائيّة – معظمها لعصافير وفراشات – في أطر من الخشب الثقيل. وصلنا إلى منبسَط الدرج، ودخلنا غرفة صغيرة لا سجّاد فيها، تطلّ على الحديقة الخلفيّة. في الحال علمت أنّ ذاك هو المكان حيث يعمل جونز، ومع ذلك فلم يكن حضوره فيه هو الطاغي.

كان أوّل ما وقعت عيناي عليه كان كدسة كبيرة من أعداد مجلّة «ستراند»، مصفوفة بإتقان فوق طاولة، حوفظ على كلّ منها بعناية حتّى

كادت تبدو جديدة. لم أكن بحاجة إلى أن أفتحها لأعرف محتواها. كانت كلّها تضمّ روايات لمغامرات شرلوك هولمز، بقلم الدكتور جون هـ. واطسون. كان المحقّق الشهير حاضرًا في كلّ زوايا الغرفة، بالصور الفوتوغرافيّة، وبأخرى شمسيّة على ألواح من الفضّة، وعناوين جرائد عُلّقت على الجدار: «**إستعادة حجر العقيق الأزرق**»، «**إحباط عمليّة السطو على مصرف في ساحة كوبورغ**». تفحّصتُ الكتب والدراسات الموجودة على الرفوف، فوجدت أنّ كثيرًا منها ألّفه هولمز. ومن بينها كتاب ضخم حول التحليل العلميّ لبقع الدم، وآخر حول النصوص المرمّزة بعنوان «**دراسة مئة وستّين طريقة في الكتابة المرمّزة**»، وثالث حول الأنواع المختلفة من رماد التبغ، ذكّرني برحلة العودة بالقطار من مايرنغن. رأيت كتبًا أخرى لوينوود ريد، ووينديل هولمز، وإميل غوباريو، وإدغار ألن بو، وعدّة موسوعات وفهارس جغرافيّة. كذلك رأيت نسخة من «جريدة أصول الإنسان» مفتوحة على مقالة تتعلّق بشكل أذن الإنسان. بدت الغرفة متقشّفة في منظرها العامّ، فما خلا رفوف الكتب، ليس فيها سوى مكتب وكرسيّ وطاولتين صغيرتين. لكنّ الفوضى كانت تعمّها، ففي كلّ شبر منها رأيت شيئًا غريبًا: عدسة مكبّرة، وموقد بنسن، وزجاجات ملأى بموادّ كيميائيّة، وأفعى محنّطة، أظنّها أفعى مستنقعات، وعددًا من العظام، وخريطة لنوروود العليا، وشيئًا ما ربّما كان جذرًا لنبتة مخدّرة، وخفًّا تركيًا.

وقفت عند عتبة الباب، والتفتت إليّ إلسبث جونز التي تقدّمتني، وقالت:

– هنا يعمل زوجي، ويمضي وقتًا أطول ممّا يمضيه في أيّ غرفة أخرى في المنزل. لا داعي لأن أخبرك مَن هو مصدر إلهامه.

– الأمر واضح تمامًا.

– سبق أن ذكرنا اسمه، قالت مشرئبّة. أتمنّى أحيانًا لو أنّني لم أسمع باسمه قطّ! كانت غاضبة، وجعلها غضبها مختلفة تمامًا عن الأمّ التي كانت تقرأ لابنتها، وعن الزوجة التي جالستني إلى مائدة الطعام. وأضافت: هذا ما أردت قوله لك يا سيّد تشايس. إذا كنت ستعمل مع زوجي من المهمّ جدًّا أن تفهم. اللقاء الأوّل بين زوجي وهولمز كان على أثر جريمة قتل شخص يدعى

بارتولوميو شولتو، وانتهى التحقيق بخسارة كنز أغرا العظيم. وقد نُسب إليه دور ما في تلك القضيّة، برغم أنّه لم يرَ الأمر على ذلك النحو قطّ. لكنّ الرواية التي نشرها الدكتور واطسون رسمت عنه صورة مسيئة للغاية.

كان جونز قد لمّح إليّ عن ذلك، لكنّني لم أقل شيئًا.

– إلتقى الاثنان مجدّدًا في مسألة أثارت ضجّة أقلّ، وهي حادثة سطو في شمال لندن والسرقة الغريبة لثلاثة تماثيل من البورسلين.

– قضيّة أبرنيتي.

– هل أخبرك؟

– لمّح إلى ذلك. لكنّني لا أعرف شيئًا من تفاصيلها.

– نادرًا ما يذكر أثيلني تلك القضيّة، ولسبب وجيه، قالت قبل أن تتريّث لتستعيد هدوءها. ثمّ أضافت: من جديد فشل. ومن جديد حوّله الدكتور واطسون إلى أضحوكة، برغم أنّه لم ينشر تلك الرواية بعد لحسن الحظّ. بعد انتهاء القضيّة، أمضى زوجي أسابيع في جَلد ذاته. لماذا لم يلاحظ أنّ الرجل الميت كان في السجن؟ فقد وجدوا تحت أظافره مُشاقة حبال، وهذا دليل واضح إذا فكّرنا فيه. لماذا فاته إدراك مغزى التماثيل المتطابقة الثلاثة في حين أنّ ذلك بدا واضحًا بسرعة للسيّد هولمز؟ لقد أغفل كل الأدلّة المهمّة... آثار الأقدام، الجارة النائمة، وحتّى الطيّنة في جورب الرجل الميت. كيف يمكنه أن يعتبر نفسه رجل تحرٍّ حين يظهر بمظهر هاوٍ متعثّر؟

– أنت تقسين جدًّا في الحكم عليه.

– هو مَن قسا جدًّا على نفسه! أنا أكلّمك بكلّ ثقة يا سيّد تشايس، راجية من كلّ قلبي أن تكون حقًّا صديق زوجي، كما تؤكّد. بعد قضيّة أبرنيتي، مرض زوجي مرضًا شديدًا. وراح يشكو تعبًا وألمًا في الأسنان وإحساسًا بالضعف في عظامه. كما تورّم معصماه وكاحلاه. في البداية ظننتُه مرهقًا بسبب العمل، ولا يحتاج إلّا إلى بعض الراحة ونور الشمس. إلّا أنّ الطبيب سرعان ما شخّص إصابته بشيء أشدّ خطورة. كان مصابًا بالكساح، وهو مرض أصابه لفترة وجيزة في طفولته، غير أنّه عاد بشكل أقوى وأشدّ تأثيرًا.

إضطرّ إلى أخذ إجازة من العمل لمدّة عام، ورعيتُه طوال تلك الفترة ليل نهار. في البداية، لم أرجُ إلّا شفاءه. ولكن وبانقضاء الأشهر واستعادته بعض قوّته، بدأت أرجو أن يتخلّى عن مهنة الشرطة. شقيقه بيتر مفتّش أيضًا، وأبوه ارتقى إلى رتبة مراقب أعلى في الشرطة. هم يشعرون بأنّ هذه المهنة تقليد عائليّ. ولكن بوجود طفلة صغيرة وزوجة تخشى على حياته يوميًا تقريبًا، ومع يقيني بأنّه قد لا يستعيد قوّته السابقة أبدًا، سمحت لنفسي بالاعتقاد بأنّه قد يختار أن يبدأ حياة جديدة في مكان آخر.

إلّا أنّ ظنّي خاب. فقد كرّس زوجي مدّة انقطاعه عن العمل لتحسين مهاراته في التحرّي. سبق له أن التقى شرلوك هولمز مرّتين، وقد تفوّق عليه هذا الأخير مرّتين. كان مصمّمًا على ألّا يكرّر التاريخ نفسه مرّة ثالثة، إذا ما التقيا مجدّدًا. باختصار، أراد أثيلني جونز أن يصبح ندًّا لأشهر رجل تحرٍّ خاصّ في العالم، ولأجل تلك الغاية ألقى بنفسه في العمل من جديد بحماسة تخفي المرض الذي أقعده. أنت ترى حولك بعض الأدلّة على ما أقول، لكن صدّقني حين أقول لك إنّ هذا كلّه ليس سوى غيض من فيض. لقد قرأ كلّ مؤلّفات السيّد هولمز بالكامل، ودرس أساليبه وأعاد القيام باختباراته. كما استشار كلّ مفتّش عمل مع هولمز. باختصار، لقد جعل من شرلوك هولمز المثال الأعلى له في حياته.

بدا كلّ ما قالته منطقيًا بالنسبة إليّ. فمنذ التقيتُ أثيلني جونز أدركت اهتمامه برجل التحرّي الشهير. لكنّني لم أقدّر كم أثّر شرلوك هولمز في أعماقه، قلبًا وروحًا.

– عاد زوجي إلى مكتبه منذ أشهر قليلة، قالت إلسبث جونز في ختام حديثها. ويظنّ نفسه قد تعافى من مرضه. لكنّ ما يشدّ عضده في الحقيقة هو المعرفة التي اكتسبها حول عمل هولمز واقتناعه بأنّه بات ندًّا له. وتوقّفت السيّدة جونز عن الكلام، محدثة صمتًا رهيبًا، قطعته بصوت متهدّج: لا أشاركه اعتقاده ذلك، سامحني الله على ما أقول. أحبّ زوجي وأكنّ له إعجابًا شديدًا. إلّا أنّ بقاءه الأعمى على اعتداده الوحشيّ بنفسه يجعلني أخاف عليه.

– أنت على خطأ... قلت لها.

– لا تحاول أن تكون لطيفًا معي. أنظر حولك. هذا هو الدليل. الله وحده يعرف أين سيقوده هوسه هذا.

– ماذا تريدينني أن أفعل؟

– إحمِه. أجهل مَن هم أولئك الذين يواجههم، لكنّ خوفي عليه عظيم. يبدون بلا رحمة، وهو لا يعرف المكر. هل خطأ أن أكلّمك على هذا النحو؟ لا أعرف كيف قد أعيش من دونه. وحين أتذكّر تلك الجرائم المروّعة، وهجوم اليوم...

ثمّ توقّفت. وخيّم الصمت على المنزل كلّه.

– سيّدة جونز، قلت لها. أعدك بأن أبذل كلّ ما بوسعي ليخرج كلانا سالمًا من هذه القضيّة. صحيح أنّنا في مواجهة عدوّ شديد البأس، لكنّني لا أشاطرك وساوسك. لقد برهن لي زوجك مرارًا عن ذكائه غير العاديّ. لعلّي أكبره بسنوات قليلة، ومع ذلك أدرك أنّني الشريك الصغير في هذا التحقيق. وفي النهاية، أعدك من كلّ قلبي بأنّني سأعتني به، وأبقى بجانبه. وإذا ما وجدنا أنفسنا في خطر، فسأبذل قصارى جهدي لحمايته.

– أنت بغاية اللطف يا سيّد تشايس. لا يمكنني أن أطلب أكثر من هذا.

– لن يلبث أن يعود، قلتُ لها. علينا النزول.

تأبّطتْ ذراعي ونزلنا معًا. وما هي إلّا دقائق حتّى عاد جونز ليجدنا جالسين بقرب النار، نتناقش في الهندسة المعماريّة التي تتميّز بها مدينة نيويورك. لم يشكّ بشيء، كما لم أقل أنا شيئًا.

في طريق عودتي إلى محطّة كامبرويل، تجاذبتني أفكار عدّة. كانت الظلمة شديدة، والضباب الكثيف يغطّي الأرصفة. وفي مكان ما في البعيد، راح كلب يعوي في عتمة الليل، محذّرًا إيّاي من أشياء لم أرغب في معرفتها.

الفصل الثاني عشر

أرض أجنبيّة

كان جونز في مزاج أكثر حيويّة حين التقينا في اليوم التالي، وظهر عليه اتّقاد الذهن الغريب، والذي بتّ أعرف أنّه استلهمه من المثال الذي وضعه أعظم رجال التحرّي على الإطلاق.

– سيسرّك أن تعرف أنّنا وأخيرًا حقّقنا تقدّمًا! قال لي حين التقينا خارج فندقي.

– هل عدت إلى طريق تشانسري؟ سألتُه.

– يستطيع سيلاس بيكيت وشركاؤه الانتظار. برأيي أنّ أسبوعًا على الأقلّ سينقضي قبل أن يلوذوا بالفرار.

– أنّى لك أن تتأكّد وأنت لم تعد إلى هناك؟

– عرفتُ ذلك قبل انصرافنا، يا عزيزي تشايس. ألم تلاحظ موقع عازف الأرغن اليدويّ؟ كان يقف على مسافة ثماني خطوات تمامًا من باب دكّان الحلّاق.

– أخشى أنّني لا أفهمك على الإطلاق.

– بدأت أظنّ أنّه قد يكون لنا مستقبل معًا، أنت وأنا. ستترك وكالة بينكرتون، وأستقيل أنا من سكوتلانديارد. وستستمتع بالعيش في لندن. لا! أنا جدّيّ تمامًا. المدينة بحاجة إلى رجل تحرٍّ خاصّ جديد. يمكننا حتّى أن نستأجر مكتبًا في شارع بايكر! ماذا تقول؟

– أجهل ما أقول.

– لدينا الآن أمور أكثر إلحاحًا. أوّلًا، صديقنا بيري. بتنا نعلم أنّه دخل سكوتلانديارد عند الثالثة إلّا عشر دقائق، زاعمًا أنّه يحمل طردًا لي، وهو كناية عن علبة كبيرة ملفوفة بورق أسمر، فأرشدوه إلى مكتبي في الطابق الثالث.

– لماذا لم يتركه في مكتبك؟

– ما كان بوسعه أن يفعل ذلك. فقد كنت أجلس إلى مكتبي، وسأتعرّف إليه بالتأكيد. لذا وضعه في أقرب مكان ممكن، أي الجهة الخارجيّة لجدار غرفة التلغراف. فقد اعتادوا هناك رؤية السعاة والمتدرّبين والبحّارة يدخلون ويخرجون، وما كان غلام آخر ليشكّل أيّ فرق بالنسبة إليهم.

– لكنّك غادرت المكتب.

– غادرته للقائك، كما اتّفقنا. لا بدّ من أنّ بيري سبقني بدقيقة أو اثنتين. لقد نجوت بهذا الفارق الضئيل حقًّا! أنت رأيته يدخل العربة. هل خطرت لك أفكار حول هويّة رفيقه؟

– لا.

– غير مهمّ. ربّما ارتكب أعداؤنا خطأهم الفادح الأوّل يا تشايس. لو أنّهم اختاروا عربة ذات عجلتين للقيام بمغامرتهم، لاستحال علينا العثور عليهم. فشوارع لندن حافلة بالعربات ذوات العجلتين، المرخّص لها وغير المرخّص لها. وربّما ما كان سائقها ليتقدّم منّا للشهادة قطّ. لكنّ العربات ذوات العجلات الأربع أندر وجودًا، حتّى أنّ سائقها بين أيدينا الآن.

– كيف عثرتم عليه؟

– أرسلنا ثلاث فرق إلى الشوارع، عديدها نحو مئة رجل. أحقًّا تظنّنا سندع عملًا مشينًا كالذي وقع أمس يمرّ من دون عقاب؟ لم يوفّر بحثنا نزلًا ولا زقاقًا ولا خان عربات ولا إسطبلًا. أمضى الرجال الليل كلّه في التفتيش، وفي النهاية عثرنا على سائق يتذكّر أنّه نقل راكبًا إلى وايتهول، وصعد معه راكب ثانٍ قبيل وقوع الانفجار.

– أين ذهبا؟

– لم أستجوب السائق بعد. لكن إذا استطاع أن يقول لنا أين أخذهما، أو من أين أَقَلَّ الرجل، فآنذاك تنتهي مهمّتنا، وقد يقع ديفرو بين أيدينا.

كانت عربة الأجرة التي وصل بها جونز تنتظرنا. ثمّ سارت بنا عبر لندن، تشقّ طريقها وسط حركة سير كثيفة لا تنتهي، من دون أن نتبادل الحديث. شعرتُ بالارتياح لهذا الصمت الذي أتاح لي التفكير في ما قالته لي إلسبث جونز في العشيّة، متسائلًا عمّا إذا كان حدسها حول ما ينتظرنا قد يتحقّق. من جهته، لم يلمّح جونز إلى العشاء برغم إدراكه بلا شكّ ما سعت إليه زوجته لكي تحادثني على انفراد لنصف ساعة. هل علم أنّنا دخلنا مكتبه؟ عندما فكّرت في الأمر لاحقًا، وجدت أنّ اللقاء بيننا كان مقلقًا. وتمنّيتُ لو أنّنا تكلّمنا أكثر... أو ربّما أقلّ.

وصلنا أخيرًا إلى موقف لعربات الأجرة بالقرب من سيرك بيكاديلي، في قلب الطرف الغربيّ للمدينة، إي ما يوازي ساحة تايمز سكواير في نيويورك. وفي الحال رأيت عربة ذات عجلات أربع بديعة وبرّاقة، متوقّفة هناك وبجانبها شرطيّ. كان سائقها وهو رجل ضخم الجثّة، يرتدي معطفًا منفوخًا كشراع سفينة، يجلس في مكانه وعنان الجواد فوق ركبتيه، وهو عابس الوجه.

ترجّلنا، وسأله جونز وهو يسير نحوه:

– سيّد غوثري؟

– نعم، أنا هو. مضى على وجودي هنا أكثر من ساعة. ما معنى أن يُمنع رجل نزيه من كسب رزقه على هذا الشكل؟

لم يتحرّك من مكانه، بل نظر إلينا من مقعده المرتفع، وكأنّه مقيّد إليه بإحكام، كما حصانه مقيّد بأربطته. كان حقًّا رجلًا هائل الحجم، سمين الخدّين، وله سالفان كبيران وبشرة قرمزيّة اللون بفعل تعرّضه للهواء في كلّ أحوال الطقس، أو على الأرجح بفعل إصابته بتصلّب الأنسجة.

– أنا أكيد من أنّنا نستطيع مكافأتك، قال له جونز.

– لا أريد مكافآتك أيّها السيّد، أريد تعويضًا ماليًا محقًّا فحسب.

– ستتقاضى ما يحقّ لك من المال. لكنّ عليك أن تخبرني أوّلًا كلّ ما أريد معرفته. لقد أقلّيتَ أمس رجلًا.

– أقلّيتُ أمس عدّة رجال.

– لكنّك أخذت أحدهم إلى وايتهول، بالقرب من سكوتلانديارد. عند نحو الثالثة من بعد الظهر.

– لا أعرف كم كانت الساعة. الوقت لا يعني لي شيئًا. وهزّ رأسه الضخم قبل أن يستطيع جونز مقاطعته. وبدا لي أنّ الحصان فعل الأمر نفسه تعاطفًا معه. ثمّ تابع يقول: حسنًا، حسنًا، أعرف ما تقول. سيّد طويل القامة، أعرف ذلك لأنّه اضطرّ إلى الانحناء ليتمكّن من دخول العربة. إنّه زبون غريب، هذا ما ظننته.

– ما عمره؟

– ثلاثون أو أربعون عامًا. ثمّ فكّر قليلًا وأضاف: أو ربّما خمسون. لا أستطيع الجزم. لكنّه يبدو عجوزًا أكثر منه شابًا. وله عينان قذرتان، ليستا من العيون التي قد يودّ المرء أن تنظر إليه.

– من أين أخذته؟

– من ستراند.

– هذا لن يفيدنا، قال جونز بهدوء وهو يلتفت إليّ. ستراند هو أحد مواقف عربات الأجرة الأكثر ازدحامًا في لندن. وقريب من إحدى محطّات القطار الأساسيّة، يقصده كلّ السائقين لأنّه بعيد عن معظم طرق الحافلات.

– أي أنّ الراكب الغامض ربّما أتى من أيّ مكان.

– تمامًا. أخبرني يا سيّد غوثري. هل قدتّه مباشرة إلى وايتهول؟

– بالقدر الذي سمحت لي به حركة السير.

– هل كان وحيدًا؟

– كان وحيدًا تمامًا. وقد بقي بعيدًا ومتقوقعًا في الزاوية وقبّعته فوق عينيه، خافضًا عينيه إلى ياقته. سعل بضع مرّات لكنّه لم يقل لي كلمة واحدة.

– لا بدّ من أنّه أطلعك على وجهته.

– حين دخل قال «وايتهول». وحين أراد الخروج قال «قف!» لقد قال كلمتين. ولم يقل شيئًا آخر، ولا حتّى «من فضلك»، أو «شكرًا».

– قدتّه إلى وايتهول. وماذا حدث؟

– طلب منّي أن أنتظر. ثمّ تنفّس السائق بصوت مرتفع، مدركًا خطأه. لقد قال كلمة ثالثة، أيّها السيّد. «إنتظر!» هذا كلّ شيء. حتّى حصاني أكثر كلامًا معي!

– وماذا حدث؟

– أنت تعرف ما حدث! لندن كلّها تعرف ما حدث. شمع صوت انفجار بقوّة طلقة مدفع يابانيّ في حدائق فوكسهول. فكّرتُ في سرّي: «ما هذا؟» لكنّ الرجل لم يبالِ، بل بقي والفتى جالسين فيما انطلقنا مبتعدين. لم يريدا أن يتوقّفا، ولم يلتفتا حتّى. كنّا نحن الثلاثة، الرجل المتأنّق والساعي وأنا. صدّقني أنّني كنت مسرورًا بالخروج من هناك.

– هل تحادث الرجل والفتى؟

– لقد تحادثا، لكنّني لم أسمعهما. لا يمكنني سماعهما وأنا في المقدّمة ونوافذ العربة مغلقة.

– أين قدتهما؟ سألته.

– إلى مكان غير بعيد، عبر ساحة البرلمان ثمّ إلى فكتوريا.

– إلى منزل خاصّ؟

– لا أعرف ما كان، لكن يمكنني إطلاعك على الرقم. في العادة أنا لا أتذكّر الأرقام. رأسي مليء بالأرقام فلماذا أزيدها رقمًا؟ لكنّ ذلك الرقم كان سهلًا مثل واحد فاثنين فثلاثة. وفي الواقع لقد كان واحدًا فاثنين فثلاثة. كان العنوان 123 شارع فكتوريا. وإذا كنّا قد انتهينا، فعندي لك أرقام من نوع آخر. كلفة ربع ساعة من الانتظار هي ستّة بنسات، وأنا هنا منذ ساعتين على الأقلّ. ما رأيك في ذلك؟

نقد جونز الرجل بعض المال، وابتعدنا مسرعين سيرًا على الرصيف متجاوزين «فورتنوم ومايسون»، وصولًا إلى غرين بارك. إستوقفنا عربة أجرة أخرى وأعطى جونز سائقها العنوان. ثمّ قال لي:

– نلنا منهم! حتّى ولو ليسوا يقيمون في شارع فكتوريا، سيقودنا ذلك المنزل إليهم.

– الرجل في العربة ذات العجلات الأربع، قلت له، لا يمكنه أن يكون كلارنس ديفرو. فهو لن يغامر أبـدًا بالخروج في عربة من دون أن يغطّي نوافذها أوّلًا.

– قال السائق إنّه كان متقوقعًا، وأخفى رأسه في ياقته.

– برأيي أنّ ذلك غير كافٍ بالنسبة إلى شخص مثله يعاني رهاب الساحات. ثمّة شيء آخر يا جونز. الأمر غريب جدًّا لكنّني أشعر بأنّني أعرف العنوان 123، شارع فكتوريا.

– كيف؟

– لا يمكنني الجزم. رأيته في مكان ما، قرأته... لا أعلم. ثمّ سكتُّ. ومرّة جديدة سرنا في صمت حتّى وصلنا أخيرًا إلى شارع فكتوريا، وهو شارع رئيسيّ عريض ومأهول بكثافة، تؤمّه جموع الناس فتدخل وتخرج أفواجًا من متاجره ومبانيه الأنيقة. وجدنا المنزل الذي نبحث عنه، وكان بناء مهيبًا غير فائق الجمال، شُيّد حديثًا ومن الواضح أنّه أكبر من أن يكون منزلًا خاصًّا. ذكّرني في الحال بمنزل بلايدستون ورأيت أنّه يوحي باستحالة اختراقه، فنوافذه محميّة بقضبان حديديّة، وله بوّابة، ودرب ضيّقة تقود إلى باب أماميّ ضخم. رأيت جونز ينظر إلى الأعلى، وتابعت نظرة عينيه إلى أن وصلنا إلى العلم الأميركيّ الذي يرفرف على السطح، ثمّ إلى الأسفل، حيث اللوحة المعلّقة قرب البوّابة الرئيسيّة.

– إنّه مقرّ البعثة الدبلوماسيّة للولايات المتّحدة الأميركيّة! هتفتُ قائلًا، وأضفت: طبعًا! جرت مراسلات كثيرة بيننا وبين موظّفي البعثة، كما أنّ روبرت بينكرتون أقام هنا حين أتى إلى لندن. لهذا أعرف العنوان!

«البعثة الدبلوماسيّة...» كرّر جونز بصوت بدا فجأة متوتّرًا. سكتُّ لبعض الوقت لاستشفاف نتيجة ما يقوله. ففهمتُ أنّه ومن حيث الفائدة التي قد نجنيها، لا فرق بين أن يكون سائق العربة قد قادنا إلى القمر أو إلى هنا.

قال لي جونز:

– هذا المكان محظور علينا. لا يمكن لأيّ شرطيّ دخول مقرّ بعثة دبلوماسيّة.

– لكنّهما أتيا إلى هنا، هتفت. بيري وشريكه. هل هذا معقول؟ ثمّ أمسكت بحاجز الباب وكأنّني أستطيع أن أفتحه بالقوّة وأضفت: هل استجار كلارنس ديفرو بالبعثة الدبلوماسيّة الخاصّة ببلاده؟ يجب أن ندخل!

– هذا غير ممكن، صدّقني، أكّد لي جونز. علينا أن نتوجّه بالطلب إلى وزارة الخارجيّة.

– إذًا فهذا ما علينا أن نفعله!

– لا أظنّنا نملك أدلّة تكفي لدعم طلب كهذا. لا نملك سوى شهادة السيّد غوثري بأنّه أحضر راكبيه إلى هنا، ولا يمكننا التأكد من أنّهما دخلا هذا المبنى حتّى. هذا تمامًا ما حدث في هايغايت. تبعت الفتى حتّى منزل بلايدستون، ومع ذلك لا يمكنني أن أؤكّد دخوله المكان.

– منزل بلايدستون! أتذكر؟ لقد تباهى سكوتشي لافيل بأنّه يتمتّع بحماية البعثة الدبلوماسيّة.

– هذا أوّل ما خطر ببالي يا تشايس، وقد استغربتُ الأمر حينذاك.

– كان في مكتبه دعوة. تلقّى وتلك المرأة دعوة إلى هذا المكان.

– إنّها لديّ في مكتبي... أو في ما تبقّى منه.

كان جونز قد أخذ من منزل بلايدستون كلّ ما اعتبره مهمًّا، بما في ذلك المفكّرة والصابونة التي قادتنا إلى هورنر في طريق تشانسري. وأضاف يقول:

– حفلة استقبال خاصّة برجال الأعمال.

– هل تتذكّر تاريخها؟

رماني جونز بنظرة، وفهم حالًا ما أفكّر فيه، فأجابني:

– أعتقد أنّ موعدها مساء غد.

– أمر واحد هو مؤكد، قلت. سكوتشي لافيل لن يحضر الحفلة.

– إنّ دخول أيٍّ منّا هذا المكان هو أمر بمنتهى الخطورة.

– بالنسبة إليك ربّما، لكن ليس بالنسبة إليّ. فأنا في النهاية مواطن أميركيّ.

– لن أدعك تدخل وحيدًا.

– أيّ خطر في الأمـر؟ هـذه حفلة استقبال لرجال الأعمال الإنكليز والأميركيّين... وأضفت مبتسمًا: أحقًّا كان سكوتشي يعتبر نفسه رجل أعمال؟ لعلّ الجرائم هي نوع من أنواع الأعمال أيضًا.

إلتفتُّ إلى أثيلني جونز الذي رأى أنّني مصمّم، وقلت له:

– لا يمكننا أن ندع هذه الفرصة تفوتنا. إذا قدّمنا طلبًا إلى وزارة الخارجيّة، فسيتنبّه كلارنس ديفرو إلى نوايانا.

– أنت تفترض أنّه هنا.

– ألا تشير الأدلّة إلى ذلك؟ يمكننا على الأقلّ إلقاء نظرة في الداخل، تابعتُ بسرعة. لا شكّ بأنّ الخطر ضئيل، سنكون ضيفين من بين عدّة ضيوف.

وقف جونز متّكئًا على عصاه، محدّقًا بالبوّابة والباب اللذين بقيا مقفلين في وجهه. هدأت الريح وتراخى العلم، وكأنّه خجل من إظهار ألوانه.

– حسنًا، سنذهب، قال.

الفصل الثالث عشر

السكرتير الثالث

ظهر مقرّ البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة بمظهر مختلف من أجل حفلة الاستقبال التي يقيمها الوزير المفوّض. فقد فُتحت البوّابة، وأنارت المشاعل التي عُلّقت في صفّين طريق الوصول إلى الباب الأماميّ. كما وقف نحو خمسة خدّام، يتألّقون هم أيضًا في ستراتهم الحمراء الزاهية وشعورهم المستعارة القديمة الطراز، ينحنون للضيوف وهم يترجّلون من عرباتهم التي تجمّعت في الخارج. مع الأنوار التي شعّت خلف النوافذ، وموسيقى البيانو التي عُزفت في الداخل، وألسنة اللهب التي ألقت على حجارة المبنى ظلالًا برتقاليّة غامقة، كان سهلًا جدًّا أن ننسى أنّ مبنى البعثة هذا باهت، وأنّنا في لندن لا في نيويورك. حتّى العلم الأميركيّ كان يرفرف.

وصلتُ وأثيلني جونز معًا، وكلانا يرتدي سترة ذات ذيل وربطة عنق بيضاء. لاحظت أنّه استبدل عصاه الاعتياديّة بأخرى ذات مقبض عاجيّ، وتساءلتُ عمّا إذا كان يملك عصا لكلّ مناسبة. بدا متوتّر الأعصاب وغابت عنه ثقته المعهودة بنفسه، وتذكّرتُ حجم الخطر الذي يعرّض نفسه له بقدومه إلى هنا. فدخول مقرّ بعثة دبلوماسيّة أجنبيّة بهويّة مزيّفة لإجراء تحقيق جنائيّ قد يكلّف ضابط شرطة بريطانيّ نهاية حياته المهنيّة. رأيته يتأمّل الباب المفتوح متردّدًا، ثمّ التقت نظراتنا فأومأ برأسه نحوي ومضينا قُدُمًا.

حمل جونز معه بطاقة الدعوة التي وجدها في منزل بلايدستون. لحسن الحظّ أنّها نجت من الانفجار والحريق، برغم أنّ مَن يدقّق فيها يرَ عليها آثار حروق طفيفة. «إنّ المبعوث فوق العادة، والوزير المفوّض، السيّد روبرت ت. لينكولن، يسرّه حضور...» كُتبت تلك الكلمات بخطّ منمّق في غاية الإتقان، وأضيفت إليها عبارة «السيّد سكوتلاند لافيل وضيفه». لحسن الحظّ أنّ المرأة التي عرفناها ولفترة وجيزة جدًّا باسم هِن لم تُذكَر صراحة. إتّفقتُ وجونز على أن أزعم، إذا ما سُئلنا، أنّني سكوت، أو سكوتشي، أو السيّد سكوتلاند، كما ذُكر. ويكون جونز الضيف المُغْفَل الاسم، ويذكر اسمه الحقيقيّ إذا ما سُئل عنه.

لكنّ الواقع أنّ أحدًا لم يدقّق في هويّتينا، بل اكتفى خادم بإلقاء نظرة إلى بطاقة دعوتنا، وأشار إلينا لندخل إلى ردهة دخول رحبة، فيها مكتبة تحتوي كتبًا مزيّفة - ليس الغرض منها سوى الزخرفة - ونسختان من الجصّ لإلهتين إغريقيّتين كلاسيكيّتين عند طَرَفَي الردهة. كانت الحفلة في الطابق الثاني، ومن هناك انبعث صوت الموسيقى. ويمكن الوصول إليها عبر درج مغطًى بسجّاد سميك. لكنّ الضيوف كان عليهم، وقبل صعود الدرج، المرور بأربعة رجال وامرأة تعمّدوا الوقوف حيث يستطيعون الترحيب بكلّ ضيف على حدة.

لم ألاحظ الرجل الأوّل إلّا قليلًا، لأنّه وقف مديرًا ظهره إلى الباب. كان أشيب الشعر، ومرتخي الجفنين، وفي محيّاه شيء من البلادة وغياب المعاني حتّى أنّه بدا غير مناسب أبدًا ليكون أحد أفراد لجنة ترحيب. كما كان الأقصر قامة بين الرجال الأربعة، بل وبدت المرأة حتّى أطول منه.

ظهر جليًّا أنّ تلك السيّدة هي زوجة المبعوث. وكانت غير جميلة، بارزة الأنف، شاحبة البشرة، وشعرها مصفوف في جعدات ضيّقة جدًّا، وقد ارتدت فستانًا في غاية البساطة من القماش القطنيّ البنيّ، منفوخ الذراعين، وطوّقت عنقها بشريطة. تَمَيَّز تصرّفها بأبّهة واضحة، ورحّبت بضيوفها وكأنّها وحدها سبب قدومهم إلى هذا المكان. حين أخذتُ يدها وانحنيت، شممتُ عطر ماء الخزامى.

– سكوتلاند لافيل، قلت لها بصوت خافت.

– أهلًا وسهلًا بك، سيّد لافيل، قالت بصوت كانت ملكة إنكلترا حتّى لتضفي حماسة أكبر عليه.

لكنّ زوجها الذي وقف بجانبها كان أكثر كياسة. وهو رجل طويل القامة، عريض الكتفين ذو شعر أسود فاحم يمتدّ فوق رأسه في موجتين متعارضتين. كانت ابتسامة وجهه تخوض معركة خاسرة ضدّ النظرة الجدّية في عينيه، وحركاته كلّها رسميّة إلى حدٍّ بدا معه متكلّفًا. كما احتجب خدّاه وفمه خلف لحية ضخمة وشاربين يمتدّان حتّى أذنيه، اللتين تكادان توصفان بأنّهما لا تتناسقان ووجهه، أو حتّى بالمهمَلَتين. رأيته يخاطب الأشخاص الواقفين أمامنا، وخطر ببالي أنّه وزوجته يخفيان شيئًا ما، بدون أن ينجحا تمامًا في ذلك، وكأنّ حزنًا ألمّ بهما مؤخّرًا، ولم يبارحهما حتّى هنا في هذه الغرفة.

وصلتُ إليه فذكرتُ له اسمي المزيّف، وكنت آنذاك قد اعتدته. فشدّ على يدي بقوّة مصافحًا، وقال:

– أنا روبرت لينكولن.

– سيّد لينكولن...

طبعًا كنت أعرف الاسم حقّ المعرفة.

– يسرّني جدًّا استقبالك في مقرّي بلندن يا سيّد لافيل. اسمح لي بأن أقدّمك إلى مستشاري، السيّد وايت.

كان هذا الأخير هو الرجل الثالث في صفّ المرحّبين، ذا لحية أيضًا، ويصغر المبعوث سنًّا بنحو عشر سنوات. إنحنى الرجل وقال:

– أرجو أن تجد في هذه الأمسية المتعة والفائدة معًا.

إنتظرت انتهاء جونز من شكليّات التعارف، وصعدنا الدرج معًا.

– لينكولن..؟ سألني.

– إنّه ابن أبراهام لينكولن، أجبته.

كيف يمكنني أن أنسى أنّ سليل إحدى أشهر العائلات الأميركيّة هذا قد أرسِل إلى بلاط الملك جايمس؟ والواقع أنّ مقعدًا قد حُجز لروبرت لينكولن في مسرح فورد ليلة اغتيال أبيه. كما تُرجم تعاطف الكثيرين معه

إلى دعم شديد القوّة. وقيل إنّ لينكولن نفسه قد يترشّح لرئاسة الجمهوريّة في الانتخابات المقبلة.

– هذه الهويّة المزيّفة التي أنتحلها ستقودني إلى نهايتي، قال جونز، بنبرة نصف جادّة.

– لقد دخلنا، وبدون أيّة صعوبة حتّى الآن، قلت له.

– لا أستطيع أن أصدّق أنّ عصابة مجرمين تستطيع الاختباء في حرم بعثة دبلوماسيّة. الفكرة نفسها تبدو غير قابلة للتصوّر.

– لقد دعوا سكوتشي، قلت له لتذكيره. لنرَ إن كان بوسعنا العثور على ذلك الفتى السمين والرجل الذي كان في العربة ذات العجلات الأربع.

مررنا تحت قنطرة لنصل إلى قاعة تمتدّ بعمق المبنى كلّه، وذات نوافذ ترتفع من الأرض وحتّى السقف، كانت لتسمح برؤية الحدائق الخلفيّة لولا أنّها شدّت بستائر كثيفة. إجتمع نحو مئة شخص في تلك القاعة، حيث كان شابّ جالس إلى البيانو يعزف ألحانًا مختصرة، لا شكّ بأنّها غير مألوفة بالنسبة إلى أثيلني جونز، لكنّني عرفت أنّ مصدرها شوارع نيو أورلينز. وكان في القاعة مائدة طويلة عليها كؤوس وأوعية من بانش الفاكهة، وقد بدأ النُدُل يتجوّلون حاملين أطباق الطعام من محار نيء وكبيس وفجل، وكرات من لحم السمك، وعجائن محشوّة، وما إلى ذلك. وجدتُه طريفًا أن أرى أنّ عددًا من الأطباق حمل بطاقات ترويجيّة للمكوّنات. ومن بينها كاتشب الطماطم من «إي.سي. هازرد»، وخلّ «بالتيمور»، وخردل «كولبورن فيلادلفيا». ولاحقًا، عُرضت على إحدى الموائد أفضل أنواع قهوة «تشايس وسانبورن». نظرًا إلى كون هذا اللقاء اجتماعًا لرجال الأعمال، لعلّ البعثة الدبلوماسيّة اعتبرت تلك الإعلانات جزءًا من آداب الاستقبال.

لم يكن بوسعنا القيام بالكثير. فحفلة الاستقبال تقتصر على تلك القاعة، ومن المُحال التفكير في التسلّل إلى أرجاء المبنى بحثًا عن كلارنس ديفرو. إن كان هنا، فثمّة احتمال بأن نصادفه – أو على الأقلّ بأن نصادف شخصًا يعرفه. وإلّا فقد أهدرنا وقتنا.

شربنا بعض الويسكي المثلّجة بالنعناع (بوربون من فور روزز، كنتاكي، كما كُتب على البطاقة)، واختلطنا بالضيوف الآخرين. لم تلبث القاعة أن امتلأت بنحو مئتي شخص، يرتدون كلّهم أفخم ملابس السهرة، بينهم الرجل القصير القامة الذي كان عند الباب. ولاحظتُ أنّه صرف بحدّة نادلًا اقترب منه حاملًا طبقًا من النقانق بالكاري، صائحًا به «أنا لا آكل لحمًا!»، وبدت كلماته التي قالها بصوت حادّ فظّة وعدائيّة. في النهاية، أتى المبعوث وزوجته ومستشاره من ردهة الدخول، معلنين اكتمال عقد الحفل. وبدءًا من تلك اللحظة، وحيثما تنقّل روبرت لينكولن كان جمع صغير يتحلّق حوله. وقد تميّز بحضور طاغٍ في تلك الغرفة لدرجة أنّني وجدتُني وجونز مشدودَين إلى إحدى تلك الحلقات.

– ما العمل بمسألة صيد الفقمة؟ سأله أحدهم. بدا لي، وأنا أرى سالِفي السائل وعينيه الشبيهتين بكلّتين، أنّه نفسه يشبه الفقمة. وأضاف: هل سنخوض حربًا للسيطرة على بحر بيرنغ؟

– لا أظنّ ذلك يا سيّدي، أجاب لينكولن بهدوء. أنا واثق بأنّنا سنصل بالتفاوض إلى اتّفاق.

– لكنّ الفقمات أميركيّة!

– لست مقتنعًا بأنّ الفقمات تعتبر نفسها أميركيّة أو كنديّة أو تنتمي إلى أيّة جنسيّة أخرى. خصوصًا حين ينتهي بها الأمر لتصبح حقائب يد. والتمعت عينا المبعوث لبرهة، ثمّ استدار نحوي فوقفنا فجأة وجهًا لوجه، وسألني: ماذا جاء بك إلى لندن يا سيّد لافيل؟

شعرتُ بإعجاب كبير لأنّه تذكّر اسمي – أو على الأقلّ، الاسم الذي ذكرته له – لدرجة أنّني ارتبكت، فتولّى جونز الإجابة بدلًا منّي، وقال:

– نحن نعمل معًا كمستشارَي استثمارات يا سيّدي.

– ومَن أنت؟

– أدعى جونز.

– يسرّني أن أراك هنا. وأومأ برأسه إلى الرجل الواقف بقربه، وأضاف: صديقي السيّد وايت يعتقد أنّ علينا اعتبار أميركا الوسطى وأميركا الجنوبيّة

شريكتينا الطبيعيّتين في التجارة. لكنّني أعتقد أنّ أوروبّا هي المستقبل. وإذا استطعتُ وفريقي أن نقدّم أيّة مساعدة لمؤسّستك...

وقبل أن يتابع كلامه، قلت فجأة من غير تفكير:

– أنت تستطيع فعلًا مساعدتنا يا سيّدي.

– فيمَ؟ سألني وهو يتأرجح قليلًا في وقفته.

– نريد أن نتعرّف بكلارنس ديفرو.

تعمّدت قول تلك الكلمات بصوت مرتفع. وربّما كنت أتخيّل، لكنّني شعرتُ بأنّ شيئًا من الصمت خيّم على الغرفة.

تفرّس المبعوث فيّ محتارًا، وقال لي:

– كلارنس ديفرو؟ لا يمكنني القول إنّني أعرف الاسم. مَن هو؟

– رجل أعمال من نيويورك، أجبته.

– ما هو نوع الأعمال التي يمارسها؟

وقبل أن أتمكّن من إجابته، تدخّل المستشار قائلًا:

– إذا كان ذاك السيّد قد سجّل عنوانه في البعثة، فلا شكّ عندي بأنّ أحد أمناء السرّ في السفارة سيستطيع مساعدتك. يمكنك زيارتنا في أيّ وقت تشاء.

وبعد ذلك، ابتعد بالمبعوث برقّة، بدون أن يبدو عليه أنّه يبعده. وبقيت وجونز وحدنا.

– سيّد جونز! سيّد بينكرتون!

غار قلبي في أحشائي وأنا أسمع مَن يناديني بذلك الاسم. إستدرت لأرى نفسي أمام إدغار وليلاند مورتلايك. وبرغم ملابسهما الرسميّة وربطة العنق البيضاء، كما تقتضي المناسبة، فقد بَدَوا تمامًا كما في نادي «بوسطنيان»، وكأنّما حدث ذلك منذ لحظات ليس إلّا.

– ربّما كنت مخطئًا، قال إدغار مورتلايك. لكنّني متأكّد من أنّ المبعوث خاطبك باسم سكوتلاند لافيل. وعلمت حين سمعت الاسم أنّ ذلك لا يمكن أن يكون صحيحًا، لأنّ سكوتشي المسكين لا يستطيع الحضور.

– هذا مشين! قال ليلاند مورتلايك بفظاظة، زامًّا شفتيه في تجهّم.

– يبدو لي أنّه لا يحقّ لكما أن تكونا هنا، فلستما مدعوّين. كما أنّ حضوركما هو فعل سرقة، فأنتما سرقتما الدعوة، أليس كذلك؟ وأيضًا كذبتما على المبعوث الدبلوماسيّ للولايات المتّحدة الأميركيّة.

– أتينا لمواصلة تحقيقاتنا، على أثر هجوم على مكتبي أدّى إلى موت شرطيّين، قال جونز. ستتظاهر طبعًا بأنّك لا تعرف شيئًا من ذلك، لكنّ بوسعنا مناقشة الأمر لاحقًا. سننصرف.

– لا أظنّ ذلك.

رفع إدغار يده، فأتى شابّ يبدو عليه الغرور، لم يسبق لي أن رأيته في الأسفل، مسرعًا نحونا، وكأنّه استشعر وجود مشكلة. فقال له إدغار:

– هذان السيّدان رجلا تحرٍّ. أحدهما يعمل لدى وكالة بينكرتون، والآخر من سكوتلانديارد. وقد دخلا إلى البعثة بهويّتين مزيّفتين واستجوبا المبعوث شخصيًّا.

حملق فينا الموظّف الرسميّ، وسألنا:

– هل هذا صحيح؟

– صحيح أنّني ضابط شرطة، أجاب جونز. وقد كلّمت السيّد لينكولن منذ قليل. لكنّني لم أكن أنوي لقاءه، وبالطبع لم أستجوبه.

– يجب عليك طردهما، قال إدغار بحدّة.

– بل اعتقالهما، أضاف ليلاند، الذي وكعادته بدا لا يستطيع التلفّظ بأكثر من كلمة واحدة.

بدا الانزعاج واضحًا على الدبلوماسيّ، فهذا الحديث يجري في قاعة تغصّ بالناس، على مسافة خطوات قليلة فقط من المبعوث وزوجته. حافظ جونز على هدوئه لكنّني شعرتُ باضطرابه العميق. في هذا الوقت، كان سرور الشماتة يبدو واضحًا على الشقيقين، المستمتعين بورطتنا.

– أيّها السيّدان، الأفضل أن ترافقاني، قال الدبلوماسيّ.

– بكلّ سرور.

تبعته وجونز إلى خارج القاعة، ولم يتكلّم أيّ منّا حتّى بلغنا الرواق، وأغلِقت الأبواب. وحين بتنا بمفردنا، التفت جونز إلى مرافقنا وقال:

– لا أنكر أنّه لا يجب أن نكون هنا، وهذا الأمر هو في أقلّ وصف له خرق خطير جدًّا للبروتوكول. ولا يسعني سوى الاعتذار عن هذا الأمر. لكنّني أؤكّد لك أنّ رؤسائي سيعالجون الأمر. والآن، أستأذنك الانصراف وصديقي.

– آسف، أجاب الدبلوماسيّ. لا أملك السلطة لاتّخاذ قرار كهذا. يجب أن أكلّم رؤسائي قبل أن أستطيع السماح لكما بالذهاب. وقال وهو يشير بيده: إنتظرا في تلك الغرفة، لن نعيقكما لفترة طويلة.

لم يكن بوسعنا المجادلة. قادنا الدبلوماسيّ إلى مكتب، أفترض أنّه معدّ لاستقبال الزوّار من الجمهور، فأثاثه القليل يقتصر على طاولة وثلاثة كراسٍ. وعُلّقت على جداره صورة لبنجامين هاريسون، الرئيس الثالث والعشرين للولايات المتّحدة، كما كانت فيه نافذة كبيرة تطلّ على شارع فكتوريا حيث المصابيح لا تزال مضاءة في الأسفل. أقفِل الباب، وتُركنا بمفردنا. جلس جونز متثاقلًا، وقال ملاحظًا:

– هذه ورطة فظيعة.

– والخطأ كلّه خطأي، قلت. وأضفت: لا يسعني التعبير لك عن ندمي على تهوّري الذي قادنا إلى هنا هذا المساء.

– لعلّ الأمر بكامله كان بغير جدوى. لكنّني لن ألومك يا تشايس. كان القرار لي، كما أنّ وجود الشقيقين مورتلايك كليهما هنا أمر له مغزى. وأضاف بعدما هزّ رأسه: بعدما قلت هذا، لا أجرؤ على التفكير في ما سيلي.

– لن يطردوك من عملك.

– قد لا يملكون خيارًا آخر.

– وأيّة أهمّية للأمر؟ هتفت. أنت صاحب ألمع عقل عرفته على الإطلاق. منذ التقينا في مايرنغن، رأيت أنّك تتميّز عن لسترايد والآخرين. خلال السنوات كلّها التي قضيتُها في وكالة بينكرتون، لم ألتقِ محقّقًا مثلك قطّ. إذا اختارت سكوتلانديارد الاستغناء عنك، صدّقني يا عزيزي جونز، سيعودون باحثين عنك حيثما كنت. لندن بحاجة إلى رجل تحرٍّ خاصّ جديد. أنت نفسك قلت هذا أمس.

– صحيح. كنت أفكّر في الأمر.

– إذًا عليك تحقيقه. وقد أبقى هنا فترة أطول، أنا أيضًا، كما اقترحت زوجتك. نعم. لمَ لا؟ يمكنني أن أصبح «واطسون» الخاصّ بك، لكنّني أعدك بأنّني سأرسم عنك صورة مشرّفة!

إبتسم جونز لهذا. ذهبت إلى النافذة، ورحت أنظر إلى الخدم والعربات المنتظرة. ثمّ سألته:

– لماذا علينا الانتظار هنا؟ تبًا يا جونز، لنذهب. يمكننا أن نواجه النتائج غدًا.

لكن قبل أن يتمكّن جونز من الإجابة، فُتح الباب وعاد الدبلوماسيّ، الذي سار نحوي وأغلق الستارة، متعمّدًا حجب المنظر الخارجيّ.

– هل سيؤذَن لنا بالانصراف؟ سألته.

– لا يا سيّدي. السكرتير الثالث يرغب في لقائكما على انفراد.

– أين هو؟

– لن يلبث أن يصل.

ما كاد ينهي جملته حتى سمعت حركة عند الباب، ودخل السكرتير الثالث. وفي الحال عرفت الرجل القصير القامة الأشيب الشعر الذي سبق أن رأيته في ردهة الدخول. باقترابه منّي، بدا لي أكثر هزالًا حتّى ممّا ظننتُ في البداية، فذكّرني بالدمية التي اشتراها جونز لابنته. كان وجهه مستديرًا جدًّا، تقاربت فيه العينان والأنف والفم بصورة منفّرة. وظهرت تحت شعره الرقيق والمبعثر جمجمة مبقّعة ببقع الشيخوخة. الأغرب فيه كان أصابعه التي بدت وبرغم شكلها السليم، صغيرة جدًّا بالنسبة إلى يديه، وربّما بنصف الطول الطبيعيّ للأصابع.

– شكرًا، سيّد آيشام، قال وهو يصرف الدبلوماسيّ بصوته الغريب والحادّ الذي لاحظته من قبل. وأضاف: هلّا نجلس أيّها السيّدان؟ هذه مسألة مؤسفة، ويجب أن أشرحها باقتضاب.

جلسنا.

– دعاني أعرّف عن نفسي. إسمي كولمان دوفريس، وأعمل سكرتيرًا ثالثًا هنا في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. أنت المفتّش أثيلني جونز من سكوتلانديارد؟ وحين هزّ جونز رأسه بالموافقة، التفت إليّ، وسألني: وأنت...؟

– إسمي فريدريك تشايس. أنا مواطن أميركيّ، وأعمل محقّقًا لدى وكالة بينكرتون في نيويورك.

– ما سبب وجودكما هنا؟

كان جونز هو مَن أجاب، فقال:

– أنت على علم بالاعتداء المشين الذي حدث منذ يومين في سكوتلانديارد. أظنّني كنت المستهدف في هجوم خلّف ثلاثة قتلى وكثيرًا من الجرحى.

– وهل قادتك تحقيقاتك إلى هنا؟

– نعتقد أنّ المسؤول عن الجريمة يحتمي بالبعثة الدبلوماسيّة، نعم.

– ومَن قد يكون ذلك الرجل؟

– إسمه كلارنس ديفرو.

هزّ دوفريس رأسه سلبًا وقال:

– إلى جانب المبعوث وزوجته، في البعثة اثنا عشر موظّفًا دائمًا فقط. أؤكّد لك أنّني لم ألتقِ قطّ الرجل الذي تتحدّث عنه. وطبعًا علمنا ما حدث في سكوتلانديارد، كيف تظنّ ما يخالف ذلك؟ السيّد لينكولن نفسه بعث برسالة تعزية إلى مفوّض سكوتلانديارد. وأفهم رغبتك في القبض على الفاعل بكلّ الوسائل المتاحة لك. لكنّني في الوقت عينه، أعجز عن وصف فداحة الخطأ الذي ارتكبتَه بقدومك إلى هنا هذا المساء. أنت تدرك يا سيّدي مبدأ الأرض الأجنبيّة، وبأنّ مقرّ المبعوث يحميه القانون البريطانيّ، وقدوم شرطيّ إلى هنا يشكّل إساءة فاضحة للبروتوكول الدوليّ.

– مهلًا! صحت. رأينا رجلين في هذا المبنى هذا المساء، وهما إدغار وليلاند مورتلايك. ونعرف أنّهما من أسوأ رجال العصابات. رأيت ملفّيهما في وكالة بينكرتون، وأعرفهما على حقيقتهما. صحيح أنّني والمفتّش جونز قد

تجاوزنا حرفيّة القانون، لكن هل ستقوم بحمايتهما وإعاقتنا نحن، وخصوصًا في ضوء ما جرى؟

– من مسؤوليّة البعثة الدبلوماسيّة حماية المواطنين الأميركيّين، أجاب دوفريس بصوت لم يتغيّر، إلّا أنّ الغضب ظهر في عينيه. وأضاف: حسبما أعلم، فإنّ السيّدين اللذين تتحدّث عنهما رجلا أعمال لا أكثر. أتملك دليلًا على ارتكابهما أيّة جريمة في هذا البلد؟ هل من سبب وجيه لطلب استردادهما؟ لا. لا أظنّ ذلك. ومن بعد إذنكما، دعاني أقول أن لا جدوى في إضافة القدح والذمّ إلى لائحة التهم التي ستوجّه إليكما.

– ما الذي تنوي عمله؟ سأله جونز.

– أنا أتعاطف معك، حضرة المفتّش جونز.

لكنّ النظرة التي علت وجهه لم توحِ بالتعاطف قطّ. ضمّ الرجل يديه فوق ركبتيه، شابكًا بين أصابعه التي لم تبلغ أطرافها براجم اليد المقابلة. وتابع يقول:

– أنوي تقديم شكوى رسميّة إلى رؤسائك صباح غد، ولن أقبل بأقلّ من إقالتك من الشرطة. أمّا بالنسبة إلى صديقك، فليس بوسعنا عمل الكثير للجم محقّقي وكالة بينكرتون. إنّهم مشهورون بمبالغاتهم وسلوكهم اللامسؤول. سأعمل على إبعادك من هذا البلد يا سيّد تشايس، وقد تجد نفسك تواجه تهمًا قضائيّة في محكمة أميركيّة. هذا كلّ شيء أيّها السيّدان. يجب أن أعود إلى الحفلة. سأرسل من يقودكما إلى الخارج.

وقف جونز، وقال:

– لديّ سؤال واحد.

– وما هو؟

– حين أتيتَ إلى هذه الغرفة، ناديتني باسمي الكامل، أي أثيلني جونز. أتساءل كيف عرفت ذلك في حين أنّ أيًّا من الشقيقين مورتلايك لا يعرف اسمي.

– لا أرى ما الصلة...

– أمّا أنا فأعرف!

وأمام ذهولي، سار جونز عبر الغرفة، واستخدم عصاه ليقبض على طرف الستارة ويسحبها إلى الخلف، كاشفًا عن المنظر في الخارج. ظننت للوهلة الأولى أنّه أرادنا أن نرى شيئًا، ثمّ أدركت أنّ ما في ذهنه أمر مختلف تمامًا. كان لما فعله وقع هائل على السكرتير الثالث، الذي بدا وكأنّه تلقّى لكمة في وجهه. فقد تسمّر لبرهة في الكرسيّ، زائغ النظرات، محاولًا التقاط أنفاسه. ثمّ استدار، عاجزًا عن النظر إلى الخارج دقيقة واحدة أخرى.

– أنصحك بألّا تشي بي لأحد يا كلارنس ديفرو! صاح جونز.

– ديفرو...؟ قلتُ وانتصبتُ واقفًا أتفرّس في الوجه المنكمش.

– الآن اتّضح كلّ شيء، تابع جونز يقول. العلاقة بين لافيل والشقيقين مورتلايك والبعثة الدبلوماسيّة، وسبب مجيء العربة إلى هذا المكان، وسبب عدم العثور عليك أبدًا. أتساءل عمّا إذا كان السيّد لينكولن يدرك مَن وظّفه سكرتيرًا ثالثًا له.

– الستائر! قال الرجل الذي يدعو نفسه كولمان دوفريس بصوت يشبه الهمس الحادّ. أسدِلها، اللعنة عليك!

– لن أفعل ذلك. إعترف بهويّتك الحقيقيّة!

– لا يحقّ لك أن تكون هنا. أخرج!

– سنرحل، بإرادتنا. لكني دعني أقول لك إنّنا بتنا نعرف مَن أنت يا ديفرو، ونعرف أين أنت. وبرغم أنّك قد تختبئ في البعثة الدبلوماسيّة لفترة من الوقت، لم يعد بوسعك الاعتماد على حمايتها. لقد عثرنا عليك ولن نسمح لك بالخروج!

– ستموت قبل أن تقترب منّي.

– لا أظنّ ذلك!

– لا يمكنك لمسي. أقسم لك على أنّك ستندم على هذا اليوم!

كان جونز مستعدًّا للانصراف، بعكسي. فقلت منفعلًا وأنا أنظر واقفًا إلى ذلك الرجل القصير القامة المرتعد:

– أنت ديفرو؟ أنت العقل الإجراميّ المدبّر الذي خشيناه طويلًا؟ أنت مَن أتيت إلى لندن معتقدًا أنّ بوسعك إخضاع عالم الجريمة كلّه لرغباتك؟ ما

كنت لأصدّق هذا لولا ما أراه من دليل، وما أراه أدنى من أن يستحقّ الازدراء حتّى.

إنقضّ ديفرو نحوي مزمجرًا كالوحش، وكاد يمسك بي لو لم يبعدني جونز.

– ألا يمكننا اعتقاله؟ صحتُ. لقد عبرت نصف العالم لأجد هذا الرجل. لا يمكننا أن ندعه ونذهب.

– لا نستطيع أن نفعل شيئًا. لا سلطة لنا هنا.

– جونز...

– أعذرني يا تشايس. أعرف ما تشعر به، لكننا لا نملك خيارًا. علينا الانصراف حالًا. يجب ألّا يُعثر علينا هنا.

وبرغم ذلك، ظللتُ راغبًا في القبض على ديفرو أو دوفريس، أو مهما كان يدعو نفسه. كان الرجل يرتعد وعيناه نصف مغمضتين. فكّرت في أثر الدم الذي قادنا إلى هنا، وفي مصير جوناثان بيلغريم، الذي قتله بلا رحمة هذا المخلوق، أو جماعته. وتذكّرت كلّ العذاب الذي سبّبه للآخرين. وفكّرت في أنّني لو لم أترك مديتي في الفندق حين غيّرت ملابسي، لطعنته بها بدون أيّ تردّد، لكنّ جونز أمسك بي وقال:

– تعال.

– لا نستطيع الذهاب.

– يجب علينا أن نذهب. لا نملك دليلًا ضدّه، سوى حالة نفسيّة غريبة جعلته على هذه الحال.

– ستموت بسبب هذا، قال ديفرو بصوت يشبه فحيح الأفعى، وهو يحجب عينيه بيديه، وقد انكمش جسده كلّه. وسيكون موتك بطيئًا. سأجعلك تدفع الثمن.

أردتُ أن أردّ لكنّ جونز جرّني إلى خارج الغرفة. كان الرواق خاليًا ولم يحاول أحد اعتراضنا ونحن نهبط الدرج ونخرج إلى الشارع. وحين وصلنا إلى الخارج، بعيدًا عن بوّابة البعثة الدبلوماسيّة، حرّرتُ نفسي من قبضة صديقي وأنا أتنفّس هواء المساء بملء رئتيّ. وهتفتُ:

– كان هذا ديفرو! كلارنس ديفرو!

– هو بعينه. ألم يكن الأمر بديهيًا؟ حين دخلنا إلى القاعة في البداية، كان يدير ظهره ناحية الباب. إنّه رهاب الساحات: لم يكن يجرؤ على النظر إلى الخارج! وقبل دخوله الغرفة، أرسل خادمه لإغلاق الستائر، للسبب عينه. ضحك جونز، ثمّ أضاف: واسمه! إليك مثالًا على التباهي. كولمان دوفريس. «ك» و«د». إختار أن يتخفّى باسم له الحرفان الأوّلان كاسمه الحقيقيّ.

– هل كان علينا حقًّا أن نتركه؟ بربّك يا جونز، لقد اكتشفنا مكان أعظم مجرم في عصره، وخرجنا من دون اعتقاله، ومن دون أن نضيف كلمة واحدة.

– لو حاولنا اعتقاله، لضاع منّا كلّ شيء. كما كنّا في وضع دقيق لأنّنا دخلنا بهويّة مزيّفة. لا شكّ عندي بأنّ السيّد لينكولن وأصدقاءه لا يعرفون مَن هو الرجل الذي يحمونه، وبرغم ذلك فإنّ ردّة فعلهم الطبيعيّة ستكون حمايته، مساندين بذلك فردًا من أفراد بعثتهم. ثمّ ابتسم جونز ابتسامة كئيبة وأضاف: حسنًا، لقد تغيّرت اللعبة. بلغنا الحريّة الآن، يمكننا استجماع قوانا والإعداد لخطوتنا المقبلة.

– لاعتقاله!

– طبعًا.

إلتفتّ لأنظر إلى البعثة الدبلوماسيّة، والعربات، والخدم، والأضواء المرتعشة. صحيح. لقد عثرنا على كلارنس ديفرو، لكنّ ثمّة مشكلة واحدة. كيف سنتمكّن من إخراجه من البعثة؟

الفصل الرابع عشر

الفخّ

كان نومي مضطربًا ذلك المساء. ومن جديد أقلق راحتي جاري المتعِب الذي لا يغادر غرفته قطّ، ويبدو كشبح يسكن الفندق. ما كان يتناول فطورًا ولا عشاء. وقد تزامن وصول كلينا إلى الفندق، كما أخبرتني الخادمة، لكنّه لم يخرج قطّ. فكّرتُ في مواجهته لكنّني عدلتُ عن رأيي. فلعلّه كان مسافرًا بريئًا تمامًا، حوّلته مخيّلتي إلى تهديد. والواقع أنّني ما كنت لأنتبه حتّى لوجوده لولا ضجيج سعاله، وتلك اللمحة الوجيزة عند النافذة.

أمّا أحلامي الغريبة والمضطربة عن كلارنس ديفرو فقد كانت أشدّ إثارة للإزعاج في تلك الليلة. رأيت فيها وجهه وعينيه الشرّيرتين، وأصابعه السخيفة الصغيرة جدًّا بالنسبة إلى أيّ رجل. وسمعته يصيح «لا آكل اللحم!»، ثمّ رأيتُني نائمًا على طبق ضخم، بين سكّين وشوكة، وكنت متأكّدًا من أنّه سيأكلني. كما حلمتُ بأنّني عدت إلى مقرّ البعثة الدبلوماسيّة مع روبرت لينكولن وزوجته. وبأنّني في منزل بلايدستون، وحول قدميّ بركة دم. وفي النهاية حلمتُ بأنّني عند شلّالات رايشنباخ، أغوص إلى ما لا نهاية والمياه تتحطّم من حولي، ثمّ أفتح عينيّ لأجدني في السرير، والشراشف مجعّدة، وفي الخارج أمطار عاصفة تضرب النوافذ.

صباحًا، تناولت فطورًا صغيرًا، ومن دون شهية، من شدّة لهفتي لسماع خبر ما من جونز حول نتائج مغامرة المساء. وحين التقينا حمل إليّ أخبارًا غير

سارّة. فخلافًا لتوقّعاتي، قدّمت البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة شكوى رسميّة إلى المفوّض، وجّهت فيها اللوم إلى جونز.

– كان لصديقنا كولمان دوفريس وقاحة توقيع الشكوى بنفسه، قال جونز ونحن نجلس معًا في عربة أجرة أخرى تندفع لتتطاير معها مياه البرك الصغيرة التي خلّفتها العاصفة القصيرة. وأضاف: سُلّمت الشكوى عند التاسعة من صباح اليوم. ألا تجد معي أنّهم يعملون بسرعة؟

– ماذا سيحدث؟ سألته.

– من شبه المؤكّد أنني سأخسر منصبي.

– أنا المذنب...

– دعك يا رجل، هذا غير مهمّ. أوّلًا، زوجتي الحبيبة إلسبث ستفرح كثيرًا بهذا الخبر. وبأيّة حال أمامنا عدّة أيّام قبل انتهاء الإجراءات. ففي البداية سأخضع للاستجواب، وبعد ذلك أمثل أمام لجنة، ثمّ يُرفع تقرير، يقدَّم للمراجعة لتصدر في النهاية توصية. هكذا تعمل الشرطة البريطانيّة. وفي هذه الفترة قد تحدث أشياء كثيرة.

– لكن، ماذا نستطيع عمله؟

– نحن أمام معضلة، هذا صحيح. لا نستطيع اعتقال كلارنس ديفرو. سيكون من الصعب استجوابه حتّى من دون إذن المبعوث الدبلوماسيّ، وأشكّ في الحصول على إذن كهذا، خصوصًا في ضوء أحداث الليلة الماضية. أيّ دليل لدينا إلى تورّطه في أيّ عمل إجراميّ؟

– رأيتَ الملفّات التي أحضرتُها من نيويورك. وسمعتَ ما قاله زميلك ستانلي هوبكنز. إسم ديفرو ذاع في لندن كلّها.

– بعكس اسم كولمان دوفريس. عليّ الاعتراف بأنّ فكرة اختباء مجرم تحت عباءة الحصانة الدبلوماسيّة فكرة عبقريّة، قال جونز، الذي لم يبدُ عليه الإحباط الشديد، وهو يضحك. وأضاف: لا، هناك طريقة واحدة يمكننا القبض بها على السيّد ديفرو، وهي الإمساك به متلبّسًا. علينا أن ننصب له فخًّا. ولحظة يظهر خارج مقرّ البعثة الدبلوماسيّة، نلقي القبض عليه.

– أين نبدأ؟

– الإجابة في غاية الوضوح. وفعلًا... رويدًا أيّها السائق! أعتقد أنّنا وصلنا.

كانت رحلتنا بعربة الأجرة قصيرة. نظرتُ حولي، فرأيتُنا قد عدنا إلى أوّل طريق تشانسري. كان تسارع الأحداث قد جعلني أنسى تقريبًا سيلاس بيكيت ودكّان الحلاقة القذر الذي يديره. لكنّني رأيت لدى نزولنا عددًا من رجال الشرطة ينتظروننا، حيث لا يراهم مَن في الدكّان ولا عازف الأرغن اليدويّ الذي أمكننا سماع موسيقاه الرديئة حول المنعطف.

– إبقَ قريبًا منّي، قال لي جونز. ثمّ لأقرب رجال الشرطة منه: أتعرف ما عليك فعله؟

– نعم، سيّدي.

– مهما حدث، لا تَظهروا حتّى نصبح بداخل الدكّان.

كان هذا أمر آخر ورثه جونز من شرلوك هولمز، وأعني العادة المثيرة للجنون بألّا يفصح عمّا ينوي عمله حتّى الدقيقة الأخيرة. وحتّى آنذاك قد لا يفصح عن نواياه، لأنّه لم ينبس ببنت شفة حين انعطفنا وبدأنا نسير فوق الدرب المحفّرة التي تقودنا إلى حدائق ستابلز إن. لحظة ظهرنا، توقّف موسيقيّ الأرغن اليدويّ عن العزف، وتذكّرت أنّه كان أيضًا قد توقّف في زيارتنا السابقة إلى هنا. توقّعتُ أن يسير جونز مباشرة إلى دكّان الحلّاق – أما أتينا إلى هنا لهذا السبب؟ – لكنّه سار بدلًا من ذلك إلى عازف الأرغن اليدويّ الذي صمت، فسأله هذا الأخير:

– أتريد مقوّيًا للشعر يا سيّدي؟ أو أن تقصّ شعرك أو أن تحلق ذقنك؟

– لا أريد شيئًا اليوم، شكرًا، أجاب جونز. لكن بما أنّك ذكرت الشعر، يهمّني أن أرى شعرك.

وقبل أن يستطيع الرجل إيقافه، نزع قبّعة العازف، فظهر تحتها شعر أحمر لامع. وقال جونز:

– هذا تمامًا ما ظننته.

– ماذا تعني؟ سألتُه.

– شعر أحمر!

– أيّ صلة للون شعره بالقضيّة؟

– بل له كلّ الصلة.

ثمّ استدار إلى الموسيقيّ المستاء، وقال له:

– أظنّني أخاطب السيّد دونكان روس. على الأقلّ، هذا هو الاسم الذي كنت تستخدمه منذ عامين. سوى أنّ اسمك الحقيقيّ هو آرتشي كوك. وهذه ليست المرّة الأولى التي تقوم فيها بعمل كهذا!

همّ الرجل بالهروب، لكنّ وزن آلته الموسيقيّة جعله لا يتزحزح. فأمسك جونز بذراعه وقال له:

– أنت وأنا سندخل دكّان الحلّاق معًا. أنصحك بألّا تثير المتاعب، فقد يفيدك هذا في النهاية.

– أنا رجل نزيه! قال كوك محتجًّا. أعزف الموسيقى للترويج للدكّان، ولا أعرف شيئًا غير هذا.

– كفى يا آرتشي. أنا أعرف كلّ شيء. تبرّأ من شريكك إذا أردت، لكن لا تضيّع المزيد من وقتي.

عبرنا نحن الثلاثة الشارع، ودخلنا مجدّدًا الردهة القذرة حيث التقينا سيلاس بيكيت للمرّة الأولى. لاحظتُ أنّ آرتشي يعرج بشدّة. حين أغلِق الباب خلفنا ظهر الحلّاق، وهو يصعد من الطابق السفليّ كالمرّة الماضية. دُهش لرؤية عازف الأرغن اليدويّ، لكنّ نظرة واحدة إلى جونز أوضحت له أنّ لعبته – أيًّا كانت – قد انتهت. ظننتُه سيستدير ويهرب عبر مخرج آخر ربّما كان للمبنى. لكنّ جونز كان قد استبق هذا الاحتمال.

– إبقَ حيث أنت يا جون كلاي! صاح به، ثم أفلت الرجل الآخر، ودفعه إلى الكرسيّ الجلديّ البالي. وأضاف: نعم! أنا أعرف اسمك الحقيقيّ، وأعرف تمامًا ما تفعله هنا. لا تحاول الهروب، رجال الشرطة في طرفَي الشارع. لكن إذا وثقت بي، وفعلت ما أريده منك. فمن المحتمل ألّا تنتهي هذه القضيّة على نحو سيّئ جدًّا بالنسبة إليك.

فكّر الحلّاق لبعض الوقت. ثمّ رأيته ينكمش، وكأنّ معطفًا ثقيلًا سقط فوق كتفيه. وبدا أنّه تغيّر ليصبح رجلًا عجوزًا وحكيمًا، حتّى أنّ صوته تغيّر أيضًا حين تكلّم.

– أفضّل أن تناديني بلقب السيّد كلاي.

– يفاجئني أن أراك خرجت من السجن بمثل هذه السرعة.

– لقد أدرك القاضي، وهو سيّد نبيل ومتمدّن حجم الضرر الذي قد تُلحقه عقوبة حبس طويلة ببنية واهية كبنيتي. كان صعبًا عليّ أن أصدّق أنّ مَن يتكلّم هو الرجل نفسه، الذي تابع يقول: ربّما ساعدني أيضًا أنّنا ارتدنا، ومن قبيل الصدفة، المدرسة عينها.

– ماذا..؟ قلتُ.

– دعني أعرّفك إلى السيّد جون كلاي، القاتل والسارق ومزوّر العملات المشهور، مثلما وصفه شرلوك هولمز. إنّه مجرم ذو عبقريّة فذّة يا تشايس، ومؤسّس ما يُعرف بعصبة الرؤوس الصهباء.

– عمليّة السطو في ساحة كوبورغ! قلت هاتفًا. وتذكّرت رؤيتي مقالة جريدة تتناول الموضوع عينه معلّقة على الجدار في مكتب جونز.

– عمليّة السطو التي باءت بالفشل. حين أتيت إلى هنا للمرّة الأولى، صَعُب عليّ أن أصدّق أنّني ألتقي جون كلاي عينه، وأنّه عاد من جديد إلى طريقته في العمل. ومع ذلك فقد أدركت بسرعة أنّ تلك هي الحقيقة. أتسمح لي بالتفسير يا سيّد كلاي؟

– يمكنك أن تفعل ما تشاء، فلا فرق بالنسبة إليّ.

– حسنًا. ما لدينا هنا هو دكّان حلّاق صُمّم خصّيصًا لإبعاد الزبائن. فبالإضافة إلى أنّ الغرفة قذرة، فإنّ شعر الحلّاق مقصوص بصورة بشعة جدًّا. ووحده الأحمق مَن سيدع الموسى تقترب من رأسه في هذا المكان، أو مَن سيشتري مقوّيًا للشعر يبدو أنّ مكوّنه الأساسيّ هو الغراء اللاصق. حتّى دكاكين الحلّاقين السفّاحين في الروايات ستبدو باعثة على الراحة أكثر! لكنّ هذا ما كان مطلوبًا تمامًا، لأنّ للسيّد كلاي أمورًا أكثر إلحاحًا يهتمّ بها. في

الجهة المقابلة من الشارع تقع «شركة طريق تشانسري للودائع»، وهي تضع منذ خمس سنوات خزنات الودائع بتصرّف أثرى العائلات اللندنيّة.

– ستّة آلاف خزنة، تمتم كلاي بحزن.

– كان السيّد كلاي يحفر نفقًا تحت الطريق، بنيّة الدخول إلى قبو الخزنات. أمّا شريكه آرتشي كوك فقد كان جزءًا ضروريًا من العمليّة، حيث قام بوظيفتين. الأولى هي أنّ صوت عزفه الرديء يغطّي على صوت الحفر الجاري تحت قدميه. وقد عرفتُ أين وصل النفق من خلال النقطة التي يقف فوقها في الشارع. وأعتقد أنّك كدت تصل.

– كنّا على وشك أن ننتهي، بعد أيّام قليلة.

– ووظيفته الثانية كانت أن يبعث إنذارًا إذا ما اقترب أحدهم من الدكّان.

– بالتوقّف عن العزف! قلت.

– تمامًا، الصمت يبعث بتحذير إلى السيّد كلاي، ويمنحه الوقت للصعود إلى السطح، ولكن ليس لتغيير سرواله. فقد رأيت في الحال أنّ ركبتيه كانتا متّسختين تمامًا. وذلك كان الدليل عينه الذي لاحظه هولمز المرّة الماضية.

– سألته عمّا إذا كان رجلًا متديّنًا.

– من الواضح أنّه أمضى وقتًا طويلًا في الركوع. لو كان يركع للصلاة، لكانت النتيجة هي عينها على ركبتيه. وحالما قال لي إنّه لا يرتاد الكنيسة، أدركت أنّ استنتاجي في محلّه. المرّة الماضية، استخدم السيّد كلاي خطّة عبقريّة لإقناع تاجر مرهونات لندنيّ بالابتعاد عن متجره. والخدعة الحاليّة تثبت أنّه لم يفقد شيئًا من عبقريّته.

إنحنى جون كلاي. وبدا على ذلك الوجه الغريب الطفوليّ ما يشبه الابتسامة، وقال:

– عليّ الاعتراف يا سيّدي، بأنّني أشعر بشيء من التعزية لأنّني أُعتَقَل على يد الأفضل. شرلوك هولمز المرّة الماضية، والآن أنت! لكن اسمح لي أن أقول إنّني لم أقتل أحدًا. صحيح أنّ حادثة وفاة وقعت، لكنّ كلينا أسرف في شرب الخمر، وسقط الرجل، لكنّه لم يُدفع.

– أنا لا أهتمّ بماضيك يا سيّد كلاي. إذا ساعدتّني فقد تنجو من الاعتقال، أو على الأقلّ تُحسّن وضعك. أيمكنني الاعتماد عليك؟

– سيّدي، أنت تكلّم شخصًا تربطه بجلالة الملكة صلة نسب بعيدة، برغم أنّ تلك الصلة لطالما كانت محلّ تجاهل. إذا كان ممكنًا التوصّل إلى نوع من التفاهم، يساعدني على التخفيف من صعوباتي الحاليّة، فسألتزم بكلمتي.

– هذا ما رجوتُه. دعني أخبرك كيف اكتشفت طريق تشانسري. لقد زرت وصديقي موقعًا شهد عددًا من الجرائم البشعة، وهو منزل بلايدستون في هايغايت. وكان مالك المنزل، سكوت أو سكوتشي لافيل، قد كتب اسم هذا الدكّان، وجزءًا من عنوانه في مفكّرته.

– عرفتُ لافيل، ولم أقتله. لكنّني لا أستطيع القول إنّني شعرتُ بالأسف الشديد لسماع خبر موته.

– هل تعرف اسم جوناثان بيلغريم؟

– لا

– كان عميلًا لوكالة بينكرتون الأميركيّة للتحقيقات الخاصّة، وقد علم بخطّتك. ومات قتلًا، لكنّه ترك إحدى بطاقات الإعلان الخاصّة بك، وهي ما جاء بنا إلى هنا.

تلا ذلك صمت وجيز. ثمّ استقام كلاي في وقفته، وقال:

– آرتشي، يا صديقي القديم. أعِدَّ لنا بعض الشاي. أيّها السيّدان، هل يمكنني دعوتكما إلى ردهتي الخلفيّة؟ لم أظنّني قطّ سأفرح بزيارة شرطيّين، ولا بتكبيل معصميّ بالقيد، لكن يسرّني أن أراكما. شاركاني الشاي، وسأروي لكما قصّتي. أقسم لكما بدمائي الملكيّة على أنّ لي رغبة جارفة في المساعدة.

دخلنا الغرفة الخلفيّة وجلسنا على كراس متداعية إلى طاولة خشبيّة عارية، فيما راح آرتشي يحرّك الفحم المشتعل. بعد ما قاله له جونز، بدا كلاي وقد استعاد الكثير من هدوئه، كما لوكنّا نحن الثلاثة من قدامى الأصدقاء، ونتناقش أمرًا خطّطنا له منذ زمن.

– كنت في سجن هولواي، قال كلاي. وهو ليس بالمكان المبهج، بل كان بالنسبة إلى سيّد نبيل الأصل، أشبه بزريبة للخنازير. لم يكن بوسعي

حتّى شراء زنزانة خاصّة بي. لا بأس. لكنّ القاضي، وهو رجل ساحر كما ذكرت، كان رحيمًا، وتساءلتُ عمّا سأفعله بعد ذلك. فشل خطّتي مع عصبة الرؤوس الصهباء كان بمثابة صدمة لي. أليس كذلك يا آرتشي؟ تطلّب الأمر قدرًا كبيرًا من الإعداد. من المؤسف أنّ هولمز تدخّل في الأمر، وكنّا على مسافة أيّام فقط من النجاح.

خرجت من السجن في شباط، وفي الحال شعرت بأنّ ثمّة خطبًا ما. كان رفاقي القدماء كلّهم مختبئين، وبدت حانات شورديتش التي انعدم المرح فيها شبيهة بقاعات الجنائز. وكأنّ جاك السفّاح عاد ليغزو كالشبح شوارع لندن. أو ربّما ما هو أسوأ.

في الواقع، كان الأمر أسوأ. فقد وصلت عصابة جديدة، قيل إنّها عصابة أميركيّين. لم أحبّ الأميركيّين قطّ، ما خلاك، سيّد تشايس. برأيي أنّه كان عارًا على جدّي الملك جورج الثالث أن يدع المستعمرات تفلت من بين يديه. لكن، ما لنا وللاستطراد... لقد أتت تلك العصابة من نيويورك، وبعدما تمركز أفرادها في المدينة، تمدّدوا كمرض الزهريّ. خسرتُ أصدقاء كثيرين وزملاء كثيرين. لم يكن الأميركيّون يتّبعون قواعدنا في العمل، وطوال ستّة أسابيع جرت الدماء في الشوارع أنهارًا، وصدّقني أنّ ذلك ليس تعبيرًا مجازيًّا. أنا أعني ما أقول. أولئك الأشخاص كانوا وحوشًا.

غلى الماء في الغلّاية، فملأ آرتشي إبريق الشاي وحمله إلى الطاولة. كان يتحرّك بصعوبة، ورأيت أنّه يتألّم.

– أين كان موريارتي؟ سألته.

– موريارتي؟ لم ألتقه قطّ، لكنني طبعًا أعرف اسمه. جميعنا نعرف اسمه. هو التجسيد الحقيقي لمن يُخشون من الرجال. وكان يأخذ حصّته من الأعمال أيضًا! ما كانت جريمة تقع في لندن بدون أن تكون له حصّة منها، وكنّا كلّنا نتذمّر من ذلك، همسًا. مع أنّ الإنصاف يقتضي القول إنّه كان موجودًا دائمًا عند الحاجة إليه. أشهد له بذلك. لكنّه توارى ليحلّ مكانه كلارنس ديفرو. وديفرو هذا جعل موريارتي يبدو كالساحرة الطيّبة بالمقارنة معه، برغم أنّه لم يُظهر نفسه قطّ، فقد كان يرسل مساعديه للقيام بعمله القذر نيابةً عنه.

كنت وآرتشي جالسين في النزل حيث نقيم، والذي يملكه يهوديّ في بيتيكوت لاين، حين أتى لزيارتنا سكوتشي لافيل، وهو رجل قذر له عينان كعيون الخنازير، تحيط به زمرة من الفتيان الأشقياء، كانوا، اللعنة عليهم، من الإنكليز. تلك كانت طريقة عمل القادمين الجدد، يجنّدون أشقياءهم من بين حثالة المدينة. وفي جحور الجريمة وأوكار تدخين الأفيون، يجدون جيشًا ممّن هم مستعدّون لفعل أيّ شيء من أجل مبلغ زهيد. لا ولاء، ولا وطنيّة. ولديهم معلومات وافرة. فهم يعرفون كلّ شيء عن المدينة والاحترافيّين العاملين فيها من مخرّبين ولصوص وقتلة بالخناجر. وكانوا على علم بأمري.

دخلوا علينا فجأة فيما كنّا نتناول الفطور، وقيّدوا آرتشي إلى كرسيّ. لم يفعل سكوتشي شيئًا، بل راح يتبختر، فيما أزلامه يقومون بالعمل القذر. في النهاية، قدّم اقتراحه. لا أدري لما اخترتُ كلمة «اقتراح»، فذلك كان مطلبًا مصيري الموت إذا لم أقبل بتنفيذه.

في طريق تشانسري، يقع دكّان فارغ مقابل «شركة طريق تشانسري للودائع». خالوا أنّني بحاجة إلى أسابيع قليلة لأحفر نفقًا تحت الطريق وأدخل قبو الخزنات، الذي كان مليئًا بالذهب والفضّة والمجوهرات والمال. وقالوا إنّهم سيدفعون بدل الإيجار فيما عليّ وآرتشي القيام بالعمل القذر والمضني تحت الأرض، وتحمّل كلّ المخاطر. وماذا أرادوا مقابل لطافتهم؟ أن يأخذ السيّد ديفرو نصف الغنيمة، كما قالوا. نصفها! حتّى موريارتي لم يطالب قطّ بأكثر من عشرين بالمئة.

– وهل وافقت؟ سأله جونز

– حين يحيط بك خمسة من قاطعي الأعناق وتفقد كلّ أمل بالنجاة، من الأفضل لك عدم المجادلة. وبرغم ذلك فإنّ لي كرامتي، لذلك اعترضت بحزم. وعندئذ استدار ذلك الشرّير نحو آرتشي المسكين، وقال لهم: «آذوه!» ولم يكن بوسعي القيام بشيء.

– كان بوسعك منعهم، تمتم آرتشي.

– حدث الأمر بسرعة كبيرة، وكان فظيعًا. نزعوا حذاءه وأمامي... صمت كلاي ثمّ أضاف: أرِهم يا آرتشي.

إنحنى الفتى الأصهب وخلع حذاءه. فأدركت لما كان يعرج حين أتينا به إلى دكّان الحلاقة. كان إصبع قدمه الكبير منزوع الإظفر، ومتورّمًا وداميًا.

– هذا ما فعلوه بي، قال، وامتلأت عيناه بالدموع.

– باستخدام كمّاشة، تابع كلاي يقول. صرخ آرتشي كثيرًا، فلم أستطع هضم فطوري. شعرتُ أنّ الأمر كاد يكون أسوأ. فإذا رفضت، سيأتي دوري في التعذيب! لم يسبق لي أن رأيت وحشيّة متفلّتة هكذا قطّ. وطبعًا علمتُ آنذاك أنّني لا أملك خيارًا.

إنتقلنا إلى هنا. كانت فكرتي أن نعيد فتح دكّان الحلاقة، ونبذل كلّ ما بوسعنا – مثلما قلتَ – للحؤول دون دخول الزبائن. طوال مكوثنا هنا، لم يكن عليّ أن أقصّ سوى شعر نحو خمسة أشخاص، ولم يكن عملي بالسيّئ، كما أظنّ. كنت أعمل تحت الأرض فيما يتولّى آرتشي المراقبة. هذا العمل هو الجحيم بعينه: حجارة طينيّة وجير وكلس! ماذا حلّ بصلصال لندن القديم الطراز؟

– بعد مقتل سكوت لافيل، هل سمعت خبرًا من كلارنس ديفرو؟ سأله جونز.

هزّ كلاي رأسه سلبًا، وأجاب:

– لا، لم أسمع خبرًا من ديفرو. قرأت خبر موت لافيل في الجرائد، فذهبت وآرتشي للاحتفال بشرب زجاجة جن. كان الأمر أجمل من أن يكون صحيحًا. وفي اليوم التالي تلقّينا زيارة شخص أشدّ قذارة. لم أكن جاسوسًا في خدمة الشرطة قطّ، لكنّني سأقوم باستثناء بسبب هؤلاء الأوغاد. إسمه إدغار مورتلايك، وهو طويل القامة، أنيق الملابس ذو شعر أسود مزيّت.

– نعرفه.

– ليتكما لا تعرفانه! أمهَلنا أسبوعين لدخول قبو الخزنات، وإلّا فسنخسر إظفر إصبع قدم آخر، كما قال.

– أنت لم تخسر إظفرًا!

– أنت تعرف ما أعنيه يا آرتشي. هذا ما قاله، ومنذ ذلك اليوم ونحن نعمل، ليل نهار.

– وماذا قضت الخطّة بعد دخول القبو؟

– قال السيّد مورتلايك إنّه سيتّصل بنا شخصيًا.

– هل عليك تسليمه الغنائم؟

– نعم. أراد أن يرى كلّ شيء بنفسه. أولئك الأميركيّون لا يثقون بأحد. ضاع الشرف بين اللصوص. حتّى أنّني وآرتشي تساءلنا عمّا إذا كانوا سيكتفون بالنصف، فقد يستدرجوننا إلى فخّ ويذبحوننا.

– سيكون هناك فخّ، تمتم جونز. لكنّكما لستما مَن سيقع فيه. والآن، أريد أن أرى نفقك، فلا بدّ من أنّه تحفة هندسيّة. ويهمّني أن أعرف كيف كنت تنوي اختراق جدران القبو.

– إنّها مبنية بحجارة لندن فقط. في الطابق الأوّل تصفيح فولاذيّ، أمّا تحت الأرض، فالحماية أقلّ. السيّد ديفرو قام بالتحقيقات اللازمة. أقرّ له بذلك.

نهضنا عن الطاولة من دون أن نصبّ الشاي، وهبطنا درجًا شديد الانحدار وضيّقًا إلى قبو يقع تحت الدكّان، بالكاد يتّسع لوقوفنا نحن الأربعة، بعدما امتلأت أرضه بأكوام التراب والحجارة المكسّرة. كان أحد الجدران قد هُدم، فرأيت في الثقب حين انحنيت نفقًا دائريًّا ممتدًّا، تنيره مصابيح زيتيّة ويتّكئ على دعائم خشبيّة. أدهشني أنّ جون كلاي استطاع التنفّس هنا، فحتّى في القبو، كان الهواء رطبًا وعفنًا. كما لم يكن بوسعه التقدّم إلّا على ركبتيه، وجسده منحن، ليدفع التراب خلفه كلّما تقدّم.

– لقد كنت صريحًا جدًّا معي يا سيّد كلاي، قال جونز فيما ألقت مصابيح الزيت ظلالًا داكنة على وجهه. ومهما كانت الجرائم التي ربّما ارتكبتها في الماضي، فسأتناساها في الوقت الراهن. لقد أتى إلى بلدنا شرّ عظيم، تمامًا كما قيل لي. وها هي الفرصة للتخلّص منه نهائيًّا. تعال يا تشايس، لنعُد إلى السطح. قضينا في الظلام فترة طويلة جدًّا، والوقت يداهمنا.

صعدنا الدرج وغادرنا دكّان الحلّاق. لم يسبق لي أن رأيت جونز بمثل هذا التصميم والثقة قطّ، ممّا لم يدع لي مجالًا للشكّ بأنّ ديفرو، وبرغم أنّ لندن كلّها بدت في قبضة يده، فقد باتت أيّامه معدودة.

الفصل الخامس عشر

حوض بلاكوال بايزن

مقتطف من جريدة التايمز اللندنيّة بتاريخ 20 أيّار 1891

عمليّة سطو جريئة في لندن

ساد لندن بكاملها شعور بالغضب على أثر جريمة سرقة وقعت في ساعات الصباح الأولى، حين اقتحم لصوص بالقوّة مقرّ «شركة طريق تشانسري للودائع»، التي تُعتبر منذ ستّ سنوات مكانًا آمنًا لودائع المؤسّسات والعائلات. بدت تلك المؤسّسة مستحيلة الاختراق، وتباهت بامتلاكها ستّة آلاف خزنة وغرفة محصّنة، بحماية حرّاس ليليّين يقومون بدوريّات متواصلة. إلّا أنّ اللصوص حفروا، وبجسارة لافتة، نفقًا تحت الشارع واخترقوا جدران إحدى الردهات السفلى، ليسرقوا بعد ذلك عددًا كبيرًا من الخزنات، ويحملوا موجودات قُدّرت بعدّة مئات من الجنيهات. ولعلّ جرأتهم كانت ستعود عليهم بغنائم أكبر لولا فطنة السيّد فيتزروي سميث، رئيس المراقبين الليليّين، الذي لاحظ وجود تيّار هوائيّ غريب في الرواق، فنزل إلى القبو ليتحقّق. وقد حاصر زبائن شركة طريق تشانسري للودائع المبنى منذ انتشار خبر عمليّة السطو، مطالبين بمعرفة ما إذا سُرقت ودائعهم. ويتولّى التحقيق في القضيّة المفتّش أ. ماكدونالد من سكوتلانديارد، لكنّ أيّة عمليّة اعتقال لم تجرِ حتّى الآن.

أجهل كيف استطاع جونز إقناع جريدة التايمز بالسير بخطّته، لكنّ تلك هي المقالة التي نُشرت في الجريدة بعد أربع وعشرين ساعة من لقائنا جون كلاي. وقد أدّت بالطبع إلى حالة هلع، حيث قامت مجموعة من الأثرياء بمحاصرة طريق تشانسري – أجهل كذلك كيف استطاع جونز أن يتدبّر أمرهم. أتخيّل أنّ موظّفي شركة الودائع تحلّوا بأقصى درجات اللباقة في الردّ على زبائنهم: «لا يا سيّدي، خزنتك لم تُخلع، لكنّنا وللأسف لا نستطيع إدخالك اليوم. فالشرطة تواصل تحقيقاتها».

بالطبع، كان إقفال مؤسّسة كبرى لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعة على أثر عمليّة سطو لم تحدث قطّ إنجازًا ضخمًا، ولكن، يجب الاعتراف بأنّ الرهان كان يستحق مجازفة كهذه، ذلك عدا عن أنّ الوقت كان ينفد من جونز. فمفوّض سكوتلانديارد قرأ رسالة كولمان دوفريس، وأمر بإجراء تحقيق سريع، وكما أوضح لي جونز، فإنّ تحقيقًا داخليًا يجري في سكوتلانديارد يوازي الصرف من العمل.

ظهرت المقالة في الجريدة يوم أربعاء. لم ألتقِ جونز في ذلك النهار، لكنّه بعث برسالة إلى الفندق. فتقابلنا اليوم التالي في عنوان في شارع شيلترن، جنوب محطّة شارع بايكر. كان المبنى حيث التقينا صغيرًا جدًّا وضيّقًا لكنّ نور النهار ملأه. وفي طابقه الأرضيّ غرفة جلوس، وفوقها غرفة نوم. كما بدا نظيفًا تمامًا برغم كونه فارغًا منذ فترة. كان جونز يشعر بالارتياح والثقة بالنفس. وقف أمام المدفأة وعصاه أمامه.

في البداية، شعرت بالحيرة. فأيّ دور ممكن لهذا المنزل في تحقيقنا؟ أله صلة ما بجون كلاي؟ لم يلبث جونز أن شرح لي:

– السيّد كلاي في مأمن في نزله في شارع بيتيكوت. أرسلت رجلين لمراقبته وشريكه آرتشي كوك. لكنّني لا أظنّهما سيحاولان الفرار. الحقيقة أنّهما لا يقلّان عنّا ولعًا بالسيّد ديفرو، وسيسرّهما أن يرياه يُساق إلى العدالة، خصوصًا إذا ما استطاعا النفاد من قبضتها من خلال تقديم العون لنا.

– هل اتّصلا به؟

– لقد علم أنّ بحوزتهما ودائع بقيمة عدّة مئات من الجنيهات، مسروقة من «شركة طريق تشانسري للودائع»، ويعتقد أنّ له الحقّ بنصفها. المقالة

التي ظهرت في جريدة التايمز ممتازة، ولكن هل تكفي لإخراجه من مقرّ البعثة الدبلوماسيّة؟ مَن يعلم؟ قد يقرّر إرسال رجاله. لكن حتّى هذا قد يكفي لتزويدنا بالدليل الذي نحتاج إليه لاعتقاله. لنأمل أن يتحرّك بسرعة. وقد أوعزت للسيّد كلاي أن يخبرهم أنّ عليه مغادرة لندن بسرعة. لنرَ ما سيحدث.

– وما هذا المكان؟ ما سبب وجودنا هنا؟

– أليس الأمر واضحًا يا عزيزي تشايس؟ قال جونز مبتسمًا. وخطر ببالي أنّني أراه كما كان ربّما قبل أن يُضعف المرض قواه. أضاف: مهما حدث في الأيّام القليلة المقبلة، يبدو واضحًا لي أنّ مسيرتي المهنيّة في سكوتلانديارد قد بلغت نهايتها. تحدثنا من قبل، وتناقشنا العمل معًا، أنت وأنا. لمَ لا نجعل الأمر حقيقة؟ ألا تظنّه قد ينجح؟

– وهذا المنزل...

– ... معروض للإيجار بسعر معقول. فيه غرفة نوم، وهي لك. سأواصل الإقامة طبعًا مع عزيزتي إلسبث وبياتريس. لكن، ألن يكون هذا مكتبًا مثاليًا لمحقّقين خاصّين؟ فهو يبعد عن الشارع اثنتي عشرة خطوة، وقريب جدًّا من... غير مهمّ. هلّا تفكّر في الأمر يا عزيزي؟ أخبرتَني أنّك غير متزوّج ولا ارتباطات عائليّة لك. هل أنت متعلّق جدًّا بأميركا لدرجة أنّك ترغب في العودة؟

– وكيف سأعيش؟

– سنعمل على قاعدة المناصفة في الشراكة. ولا شكّ عندي بأنّ المال الذي سنجنيه بصفتنا محقّقين خاصّين، سيكون أكثر من كافٍ.

حرت جوابًا لبعض الوقت. وفي النهاية قلت:

– حضرة المفتّش جونز. أنت لا تنفكّ تفاجئني المرّة تلو المرّة. ولا شكّ بأنّ لقاءك كان من أهمّ التجارب في حياتي. هلّا تعذرني إذا سألتك وقتًا أطول قليلًا للتفكير في عرضك؟

– طبعًا، قال. ولئن خاب ظنّه بتردّدي، فقد حاول عدم إظهار ذلك.

– ما تقوله صحيح، تابعتُ. لقد عشت حياة وحدة في نيويورك، وتركت نفسي أغرق في العمل. أدرك أنّ وقتي مع وكالة بينكرتون يشارف على النهاية، وقد يكون مفيدًا لي التفكير في آفاق جديدة. وبرغم ذلك، عليّ التفكير في

الأمر أكثر. ما رأيك في أن ندع القرار حتّى ننتهي من عملنا ويمثل كلارنس ديفرو أمام العدالة؟ وهذا لم يعد بعيدًا بحسب المجرى الحاليّ للأمور.

– أوافقك الرأي تمامًا. لكن، هل أقول للمالك إنّنا مهتمّان باستئجار هذا المنزل؟ سيقبل طبعًا بأن يتريّث أسبوعًا أو اثنين. وبعد ذلك، وإذا وافقت، سأسعى إلى البحث عن مدبّرة منزل كالسيّدة هادسون[1] للاهتمام بنا. هذا أمر في غاية الأهميّة. أمّا بالنسبة إلى المستقبل وقدرتنا على إعالة نفسينا، فلديّ أصدقاء كثيرون في سكوتلانديارد. أؤكّد لك أنّ عملًا كثيرًا ينتظرنا.

– أن تكون أنت هولمز، وأنا واطسون؟ لعلّها ليست بالفكرة السيّئة. فهما في النهاية تركا فجوة يجب ملؤها.

تقدّم منّي مادًّا يده للمصافحة، فصافحته. وأظنّنا كنّا في تلك اللحظة في ذروة التقارب بيننا. ما كان ذهول الاقتراح قد بارحني، لكنّني لاحظت أنّ صديقي جونز يتّقد حماسة، وكأنّه على وشك تحقيق أمر أمضى حياته كلّها في البحث عنه.

في المساء عينه، تلقّى جون كلاي رسالة من كلارنس ديفرو، حملها إليه أحد فتية الشوارع مقابل ستّة بنسات. طلب منه في الرسالة الحضور، ومعه كلّ غنائم السطو على «شركة طريق تشانسري للودائع» إلى المستودع رقم 17 في حوض بلاكوال بازين، عند الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي. لم تحمل الرسالة أيّ توقيع، وكانت كلماتها المكتوبة بحروف كبيرة مقتضبة وبسيطة. تفحّص جونز الحبر والورقة بنظرته العلميّة المعهودة، لكنّ شيئًا لم يكن يصلها بأميركا أو بالبعثة الدبلوماسيّة. وبرغم ذلك لم يشكّ أيّ منّا بهويّة مرسلها.

نُصب الفخّ.

يوم الجمعة، وما كدت أنتهي من فطوري حتّى أبلغني الخادم بقدوم شخص لزيارتي. فقلت له:

– أدخِله.

كان في الإبريق ما يكفي من الشاي لشخصين.

[1] السيدة هادسون هي مالكة ومدبّرة المنزل حيث يقيم شرلوك هولمز.

– إنّه في الخارج، أجابني الخادم عابسًا. وهو ليس من النوع الذي يجب أن يُرى بداخل مؤسّسة محترمة. ينتظرك في الرواق.

أثار قوله فضولي، فنزعت فوطتي وخرجت من الغرفة لأجد شخصًا في غاية البشاعة ينتظرني عند الباب الأماميّ. كان بزيّ بحّار، برغم أنّه قد يُلحق العار بأيّة سفينة تضمّه إلى طاقمها. تدلّى قميصه القطنيّ الأحمر فوق سرواله المصنوع من قماش القنّب، وارتدى سترة بحّار صغيرة جدًّا لدرجة أنّ كمّيها لم يتجاوزا منتصف الساعدين. كما كان غير حليق الذقن، وعلى وجهه بقع نيليّة، وحول كاحله ضمادة قذرة، وحمل تحت ذراعه عكّازًا. ولولا غياب الببّغاء لكانت صورة القرصنة والانحلال الأخلاقيّ قد اكتملت تمامًا.

– مَن أنت وماذا تريد؟ سألتُه.

– عذرًا يا سيّدي، قال الرجل وهو يرفع إصبعًا وسخة إلى ذؤابته. أتيت من حوض بلاكوال بايزن.

– وما شأنك بي؟

– أريد أن أقودك إلى السيّد كلاي.

– محال أن أذهب معك إلى أيّ مكان! هل تقول لي إنّ كلاي أرسلك إلى هنا؟ كيف عرف العنوان؟

– أعطاه إيّاه ذلك الشرطيّ. ما اسمه؟ جونز! وهو في انتظارك في هذه اللحظة حتّى.

– أين؟

– أنا أمامك يا تشايس، ويجب أن نمضي.

– جونز!

حملقت فيه، وفي تلك اللحظة، ظهر رجل التحرّي أمام صورة البحّار المزيّفة، فهتفتُ:

– اللعنة! لقد خدعتَني تمامًا. لماذا ترتدي هذه الملابس؟ ما سبب وجودك هنا؟

– علينا أن ننطلق في الحال، أجابني جونز بصوت في غاية الجدّية. صديقنا السيّد كلاي سيذهب إلى المستودع لاحقًا، لكنّ علينا أن نسبقه.

يجب ألّا يشتبه ديفرو بشيء. لقد قرأ الجرائد، وهو يعرف أنّ كلاي يعيش في خوف منه. وبرغم ذلك، لا يسعنا المجازفة. يجب الاستعداد لكلّ شيء.

– والتنكّر؟

– إنّها إضافة ضروريّة، وليست لي فقط. ثمّ انحنى وأخذ كيسًا قماشيًا رماني به، قائلًا: سترة وسروال خاصّان بالبحّارة، من مكان بائس، وهما أقلّ قذارة ممّا يبدوان. أيمكنك تبديل ملابسك بسرعة؟ عربة الأجرة تنتظرنا في الخارج.

أشار جونز إلى أنّني قد أعيد في أحد الأيّام سرد مغامراتنا، في مجلّة ستراند الجديدة ربّما. وكأنّه، حين أخذني إلى أرصفة مرفأ لندن، كان يضعني في مواجهة مهمّتي المستحيلة الأولى. كيف يمكنني وصف ذلك المنظر البانورامي المذهل، والمدينة المتمدّدة عند تخوم المدينة القديمة، والتي تظهر أمامي؟ إنطباعي الأوّل كان أنّني أرى سماء تظلم فجأة، لكنّ تلك الظلمة لم تكن سوى نتيجة للدخان الذي تتقيّأه المداخن، وتنعكس صورته الموحشة في مياه النهر. وبدت على المياه أيضًا أطياف مئة رافعة وآلاف الصواري، وأسطول من السفن الشراعيّة، والبواخر، والمراكب المختلفة. بعضها يتحرّك، ومعظمها متجمّد في لوحة رماديّة اللون. لم يسبق لي قطّ أن رأيت عددًا كهذا من الأعلام المختلفة.بدا أنّ العالم كلّه تجمّع هنا. ومع اقترابي شاهدتُ زنوجًا، وهنودًا، وبولونيّين، وألمان، يصيحون بلغات مختلفة، وكأنّ برج بابل تداعى، وهم يشقّون طريقهم للخروج من ركامه.

كان النهر أسود اللون وغير مبالٍ بالفوضى التي أحدثها. وقد شُقّت في البرّ شبكة من القنوات لترسو فيها مراكب روسيّة، وقوارب محمّلة بالقشّ، وشراعيّات مربّعة القلوع، وزوارق، فيما تحرّكت الرافعات حاملة أكياس الحبوب، وجذوع أشجار طويلة تفوح منها رائحة التربنتين. كان المشهد مثيرًا للأنوف، بقدر ما هو مثير للعينين، بفعل التوابل، والشاي، والسيكار، وخصوصًا الرُم، تلك السلع التي يُـدرَك وجودها قبل أن تراها العيون بفترة طويلة. بعد فترة قصيرة، بدا مستحيًلا التقدّم بالعربة بأسرع من وتيرة خطوة بخطوة. فقد سدّ طريقنا عدد كبير من البحّارة ومحمّلي السفن، والجياد،

والشاحنات، والعربات. حتّى أعرض الطرق يبدو عاجزًا عن استيعاب هذه الكتلة البشريّة الضخمة.

في النهاية ترجّلنا من العربة. كانت تحيط بنا دكاكين، منها لنجّارين، وأخرى لصانعي عجلات، أو لحدّادين، أو لسمكريّين. ظهرت أطياف أولئك الحرفيّين وهم يعملون خلف واجهات قذرة. ومرّ قصّاب في مئزر أزرق حاملًا خنزيرًا سمينًا يصيء في قفص صغير يتأرجح فوق كتفه. ثمّ رأيت جمعًا من الأولاد الصعاليك، يطارد واحدهم الآخر، أو يطاردهم أحد ما، يتفرّقون في كلّ اتّجاه. سُمعت صيحة تحذير، ثمّ سقط شيء كريه الرائحة من باب مفتوح في الأعلى. شدّني جونز من ذراعي وتابعنا طريقنا مارّين ببائع لمستلزمات السفن، وبمتجر المرهونات الذي لا بدّ منه، وفي بابه يجلس يهوديّ عجوز متفحّصًا ساعة جيب بعدسة مكبّرة ضخمة. رأيت أمامنا المستودع الأوّل، وهو بناء من الخشب والحديد والحجارة، يعلوه عفن الرطوبة، ويغرق في الأرض حتّى بدا ينوء بوزنه. كانت ثمّة رافعات تبرز في كلّ اتّجاه، وبراميل نبيذ، وصناديق عدّة، وكلّ أنواع الأكياس والبراميل تُرفع بالحبال والبكرات، ليتمّ إنزالها على منصّات قبل أن تدخل جوف المستودع.

واصلنا طريقنا حتّى تجاوزنا الحشد. بدا أنّ المستودعات تحمل أرقامًا متفرّقة بدون تسلسل أو منطق. ولم نلبث أن بلغنا المستودع رقم سبعة عشر، وهو مبنى مربّع وضخم يرتفع أربعة طوابق، يقع عند زاوية حيث تلتقي إحدى القنوات بالنهر، وله بوّابات كبيرة أماميّة وخلفيّة. قادنا جونز إلى كومة من الشباك القديمة المبعثرة على رصيف السفن عند ضفّة الماء، فألقى نفسه عليها ودعاني إلى أن أحذو حذوه. واكتمل المشهد ببعض الرافعات ومدفع قديم صدئ. أخرج جونز زجاجة جِن، ففتحتها وأخذت جرعة صغيرة. لم يكن فيها سوى الماء، ففهمت مبتغاه. علينا انتظار الموعد ساعات عدّة. بملابسنا تلك – وكنت أبدو عامل رصيف متنقّلًا – لم نكن لنثير الشكوك، ويمكننا أن نذوب بسهولة في المشهد، فنظهر على هيئة عاملين ثملين، في انتظار رئيس العمّال ليشفق علينا ويكلّفنا عملًا لهذا اليوم.

لحسن الحظّ كان ذلك النهار دافئًا، وعليّ الاعتراف بأنّني استمتعت كثيرًا بالاستلقاء هناك مع رفيق صامت، فيما الحركة المتواصلة تجري من حولنا. لم أجرؤ على إخراج ساعتي، تحسّبًا لاحتمال أن نكون تحت المراقبة. لكنّني من خلال حركة الغيوم، عرفت في أيّ ساعة من بعد الظهر نحن. كما كنت واثقًا بأنّ أثيلني جونز سينتبه إلى أيّة حركة تشي بوصول كلارنس ديفرو.

الواقع أنّ جون كلاي وآرتشي كوك هما مَن وصلا أوّلًا، وقد جلسا الواحد بجانب الآخر في عربة خفيفة، وخلفهما كومة كبيرة من البضائع مغطّاة بقماش مشمّع. كان كلاي، باعتداده المعهود بنفسه، قد عمد إلى قصّ شعره قصيرًا، فتخلّص من المظهر الغريب الذي اعتمده للإيحاء بأنّه حلّاق. توقّعت أن يتوقّفا لكنّهما تابعا السير إلى داخل المستودع بغير أن يلاحظانا.

– سيبدأ الأمر الآن، تمتم جونز، وهو يكاد لا ينظر إليّ.

مرّت ساعة أخرى. كان رصيف المرفأ لا يزال يعجّ بجمع كبير من الناس لأنّ العمل يتواصل حتّى هبوط الليل، وربّما إلى ما بعد ذلك حتّى. وخلفنا كان مركب محمّل بالذرة وجفت الزيت يغادر المرفأ ببطء، خائضًا المياه الهامدة في طريقه إلى وجهة ما. توارى كلاي بداخل المبنى. ما كان بوسعي أن أميّز سوى مؤخّرة العربة التي أقلّته إلى هنا، أمّا ما تبقّى منها فقد اختفى في الظلال. لا شكّ بأنّ الشمس كانت تغيب إلّا أنّ اللون الرماديّ المكفهرّ لم يبارح السماء.

إقتربت عربة أخرى، لكنّها كانت ذات عجلات أربع، ونوافذها مسدَلَة الستائر، وجلس خلف حصانها حوذيّان متجهّما الوجه، وكأنّهما متعهّدا جنازات في طريقهما إلى المقبرة. كما أنّ منظر النافذة تغطّيها ستارة سوداء ثقيلة جعلني أتساءل عمّا إذا حقّقنا هدفنا، واستدرجنا كلارنس ديفرو إلى خارج مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. ألعلّه أتى لتقييم المسروقات بنفسه؟ لكزني جونز بمرفقه وسرنا الهوينا، فرأينا العربة تتوقّف في ظلال المدخل. تعلّقت آمالنا كلّها باللحظة التي يُفتح فيها الباب. إلى جانبي، لبث جونز جامدًا، مراقبًا، وتذكّرت أنّ مستقبله المهنيّ كلّه كان على المحكّ.

لكنّ خيبة الأمل كانت في انتظارنا. فإدغار مورتلايك هو مَن خرج، وراح ينظر إلى ما حوله باشمئزاز. رافقه فَتَيان من الأشقياء – أولئك الأشخاص لا

يذهبون إلى أيّ مكان بمفردهم - وأحاطا به عن اليمين وعن اليسار لحمايته تمامًا كما رأينا حين التقيناه للمرّة الأولى في منزل بلايدستون. واصلت وجونز تقدّمنا، ملازمَين الظلال ومبتعدين عن الضوء. من المحتمل جدًّا أن يكون مورتلايك قد زرع عملاء له خارج المبنى، لكنّنا لم نشكّل أيّ خطر ظاهر – أو هذا ما كنت أرجوه. على الأقلّ، كنّا بهذه الطريقة نرى ما يحدث على نحو أفضل.

ذكّرني المكان بمسرح من عهد شكسبير، حيث تحيط بالخشبة في الوسط مدرّجات أربعة تقدّم إمكانيّة مشاهدة ممتازة لجمهور وهميّ. كان المبنى مرتفعًا جدًّا وعريضًا جدًّا، تسيطر عليه واجهة دائريّة من الزجاج الملوّن لعلّها كانت مسروقة من كنيسة، وفيه دعامات خشبيّة تتقاطع، وحبال تتدلّى، بعضها مربوط بخطّافات وأثقال موازنة لرفع البضائع إلى الطوابق العليا، ومنصّات مائلة، ومكاتب صغيرة مخفيّة هنا وهناك. كان الطابق الأرضيّ، حيث ستقع فصول المأساة، مفتوحًا وشبه فارغ تبعثرت فيه هنا وهناك نشارة الخشب. وظننتُني شاهدت وصول الممثّلين كلّهم.

كانت العربة مركونة جانبًا، وحصانها ينخر ويهزّ برأسه عن قلة صبر. فُتحت طاولتان فوق حواملهما المتقاطعة، وأمامهما وقف جون كلاي وآرتشي كوك، شبيهين ببائعين يواجهان زبونًا صعب الإرضاء. وعُرض فوق الطاولتين نحو خمسين شيئًا مختلفا، من أدوات المائدة والشمعدانات الفضيّة، إلى المجوهرات، وعدّة لوحات زيتيّة، وأواني من الزجاج والبورسلين، والأوراق الماليّة، والنقود المعدنيّة. كنت أجهل من أين أتت تلك الأشياء كلّها، فـ«شركة طريق تشانسري للودائع» لم تُمسّ طبعًا. لكنّني افترضت أنّ جونز أمّنها من مخزن الأدلّة في سكوتلانديارد.

كنّا نستطيع أن نسمع من حيث وقفنا المحادثة التي تلت. سار مورتلايك بخطوات طويلة أمام الطاولتين، ويداه مشبوكتان خلف ظهره، وقد ارتدى السترة الطويلة السوداء التي بدا أنّه يفضّلها، لكنّه لم يأتِ بعصاه. ثم وقف قبالة جون كلاي، وعيناه تقدحان عدائيّة، وقال:

– سرقة بائسة جدًّا، تمتم قائلًا، ليس هذا ما توقّعناه أبدًا.

– لم يحالفنا الحظّ يا سيّد مورتلايك، أجابه كلاي. استطعنا حفر النفق، برغم أنّ ذلك كان مضنيًا جدًّا. لكنّنا اعتُرضنا قبل أن نتمكن من فتح الكثير من الخزنات.

– أهذا كلّ شيء؟ قال مورتلايك وهو يقترب حتّى بات كبرج منتصب فوق رأس ذلك الرجل القصير. وأضاف: أما راودتك نفسك على إخفاء شيئ؟

– هذا كلّ ما لدينا يا سيّدي، أقسم بشرفي كسيّد نبيل.

– نقسم على حياتنا! قال آرتشي بصوت كنعيب الغربان.

– الواقع أنّ حياتكما ستكون الثمن إذا ما اكتشفتُ أنكما تخدعانني.

– قيمة هذه البضائع ألف جنيه، قال كلاي مصرًّا.

– ليس هذا ما قرأته في الجرائد.

– الجرائد كذبت، فشركة الودائع لم تُرد إثارة ذعر زبائنها. ألف جنيه يا سيّد مورتلايك! خمسمئة لكلّ منّا. هذا ليس بالمبلغ السيّئ مقابل عمل عدّة أسابيع، وأعني بهذا عملي وعمل آرتشي. أمّا بالنسبة إليك وإلى أصدقائك فهذا مكسب جميل.

– لأصدقائي رأي مختلف. يجب أن تعرف أنّ السيّد ديفرو غير راضٍ أبدًا، فقد توقّع غنيمة أكبر من هذه ويشعر بخيبة أمل فيك، وبأنّك في الواقع خالفت شروط العقد. لذلك كانت تعليماته لي أن آخذ كلّ شيء.

– كلّ شيء؟

– يمكنك الاحتفاظ بهذا، تذكارًا لعملك، قال مورتلايك وهو يأخذ كأسًا فضّية للبيض.

– كأس للبيض؟

– كأس للبيض، وحياتك. وفي المرّة المقبلة، حين يحتاج السيّد ديفرو إلى خدماتك، قد تتوصّل إلى استراتيجيّة تؤدّي إلى عائدات أفضل. في ساحة راسل مصرف لفت انتباهنا، وأنصحك ألّا تغادر – أو تحاول أن تغادر – لندن، فسنجدك.

أومأ هوليغان برأسه للفتيين الشقيّين اللذين أخرجا أكياسًا وبدآ بملئها بكلّ ما على الطاولتين. آنذاك اكتفى أثيلني جونز بما رآه. فسار كاشفًا نفسه

أمام أعين الجميع، وأخرج من جيبه صفّارة، أطلق منها صفرة واحدة طويلة. فجأة ظهر نحو عشرة رجال شرطة بزيّهم الرسميّ عند طرفي المستودع، لا أعرف حتى اليوم أين كانوا مختبئين، وسدّوا المخارج. وهل نزلوا من أحد المراكب التي رُبطت في مكان قريب؟ هل اختبأوا في أحد المكاتب؟ على أيّة حال، كانوا مدرّبين جيّدًا، فاقتربوا منّا في دائرة راحت تتقلّص، فيما سرت وجونز نحو المجموعة الصغيرة.

– قف حيث أنت يا سيّد مورتلايك، قال جونز. كنتُ شاهدًا على كلّ ما حدث هنا، وسمعتك تسمّي شريكك بالاسم. أعتقلك بتهمة التواطؤ على ارتكاب عملية سطو، وحيازة مسروقات. لقد افتُضح أمرك، ونعرف أنّك جزء من شبكة إجراميّة حملت الرعب والدماء إلى شوارع لندن، لكنّ ما حدث هنا هو النهاية. أنت وشقيقك وكلارنس ديفرو ستمثلون أمام المحاكم.

طوال هذا الخطاب، وقف إدغار مورتلايك بوجه خلا من أيّ تعبير. وحين انتهى جونز من الكلام، استدار المجرم لا نحو المفتّش بل نحو السارق جون كلاي، الذي كان يطرف بعينيه تعبيرًا عن عدم الارتياح. وقال له ببساطة:

– كنتَ على علم بهذا.

– لم يدعا لي خيارًا. لكنّني بصراحة لا أبالي. مللتُ تهديداتكم وعنفكم وجشعكم، ولا يمكنني أن أسامحكم على ما فعلتموه بصديقي آرتشي. أنتم تسيئون إلى مهنة الجريمة. ستكون لندن أفضل حالًا من دونكم.

– لقد خنتَنا.

– مهلًا... بدأ كلاي.

رأيت يد مورتلايك تتأرجح في الهواء، وكأنّما ليصفع الرجل على وجهه. لكنّني لدهشتي لم أسمع صوت اصطدام. كذلك، بدا كلاي مدهوشًا. ثمّ أدركت أنّ الأمر أسوأ بكثير، فقد كان مورتلايك يخبّئ في كمّه مدية جهنّمية حادّة، مركبّة على آليّة تثب إلى الخارج كلسان أفعى. وقد استخدمها لقطع عنق كلاي. أملت لبرهة أنّه أخطأه، وأنّ كلاي لم يُصب بأذى، لكنّ خطًّا أحمر رفيعًا ظهر فوق ياقة قميص السارق. وقف كلاي هناك محاولًا أن يتنفّس، ونظر إلينا طالبًا تفسيرًا. ثمّ اتّسع الجرح، وتدفّق سيل من الدماء. خرّ كلاي

على ركبتيه، فيما صرخ آرتشي وغطّى عينيه، ولم يسعني سوى التفرّج متسمّرًا على فصول الكابوس تتوالى أمامي.

ألقى الشقيّان الأكياس التي كانا يحملانها، وأخرجا مسدّسات. ثمّ افترقا بطريقة شبه ميكانيكيّة، وراحا يطلقان النار على رجال الشرطة، فقتلا اثنين أو ثلاثة منهم من الرشقة الأولى. وفيما كانت الجثث تسقط أرضًا، حمل أحدهما ساطورًا كان فوق صندوق، وقذفه في الهواء فقطع حبلًا على مسافة أمتار قليلة. في هذا الوقت مدّ مورتلايك يده والتقط حبلًا ثانيًا، متّصلًا بالأوّل بلا شكّ. وبما يشبه تأثير الثقل الموازِن ارتفع فجأة في الهواء كساحر يقوم بخدعة ما، أو كبهلوان في سيرك. وما هي إلّا ثوانٍ، ووسط ضجيج الرصاص ودخان المسدّسين، حتّى بات مورتلايك مجرّد طيف صغير على ارتفاع أربعة طوابق، تأرجح حتّى وصل إلى منصّة وتوارى عن الأنظار.

– لاحقوه! صاح جونز.

كان معظم رجال الشرطة مسلّحين، وردّوا على النار. واصل حارسا مورتلايك إطلاق نيران مسدّسيهما، لكنّ تفوّق عدد رجال الشرطة لم يدع لهما أملًا فسقطا بسرعة. هوى أحدهما فوق طاولة المسروقات، التي انهارت تحته. ولم أستطع سوى التعجّب إزاء حسّ الولاء أو الخوف الذي أقنعهما بالتضحية بحياتهما من أجل سيّدهما، الذي تركهما لمصيرهما بكلّ بساطة.

لم أبقَ لأشاهد المزيد من إطلاق النار. بل انحنيتُ خوفًا على سلامتي، وأطعت أوامر جونز، فبلغت درجًا خشبيًّا يتعرّج من طابق إلى طابق. كان عند الطرف الآخر للمستودع درج آخر كهذا، وشاهدتُ ثلاثة رجال شرطة يسرعون لتغطيته. لعلّ مورتلايك نجح في الهروب بشكل مذهل من منطقة القتال، لكنّه لا يزال محتجزًا بداخل المبنى بدون شكّ.

تسلّقت الدرج الذي صرّ وانحنى تحت وزني. وملأ الغبار ورائحة البارود أنفي. في النهاية، بلغت أعلى الدرج مقطوع الأنفاس وخافق القلب، ووجدُتني في ممرّ ضيّق على أحد جانبيه جدار خشبيّ، فيما الجانب الآخر مفتوح، بدون حاجز، على هاوية. ألقيت نظرة إلى الأسفل، فوجدت أثيلني جونز وقد سيطر على الوضع. لم يكن جسديًّا قادرًا على اللحاق بي. كان كلاي

يرقد وذراعاه ممدودتان وسط بركة من الدماء آخذة بالاتّساع، بدت حتّى أكثر إثارة للصدمة من هذا الارتفاع، مثل لطخة حبر أحمر شاسعة. كانت الصناديق والرافعات والبراميل والأكياس مبعثرة من حولي. تقدّمت ببطء مدركًا أنّني أعزل، وأنّ مورتلايك يحمل سلاحًا مخيفًا، وقد يقفز من مئة مخبأ محتمل. كان الشرطيّون الثلاثة قد وصلوا إلى أعلى المبنى أيضًا، لكنّهم كانوا على مسافة بعيدة منّي قليلًا. ورأيت أطيافهم في ضوء النافذة المستديرة، وهم يتقدّمون ببطء نحوي.

وصلت إلى فتحة، حيث بدا وكأنّ جزءًا من الجدار قد طُوي إلى الخلف. لم يكن ذلك بابًا ولا نافذة، بل شيئًا ما بين الاثنين، تُرى منه عتمة المساء الرماديّة اللون، والغيوم المتدافعة. كان نهر التايمز أمامي، وفيه مركبا قطر يتّجهان شرقًا، لكنّ ما خلا ذلك كان صامتًا وهادئًا. رأيت أمامي منصّة طويلة موصولة بالمستودع بسلسلتين صدئتين، بواسطة نظام رفع معقّد مبنيّ بجانبها. لعلّ مورتلايك أمل استخدام هذا النظام ليعود للنزول، لكن إمّا أنّه كان معطّلًا، أو أنّني وصلت بسرعة، لأنّني رأيته فجأة هناك أمامي، سترته تخفق في الهواء، وعيناه الجامدتان تحملقان في عينيّ.

بقيت حيث أنا، لا أجرؤ على التقدّم. كانت المدية التي تخضّبت بالدم ظاهرة من كمّه. وقف هناك على المنصّة بشعره الأسود المزيّت وشاربيه، فذكّرني أكثر من أيّ وقت مضى بممثّل على المسرح. ولا شكّ عندي بأنّ أهمّ مسارح نيويورك لم تقدّم قطّ شخصيّة تفوقه حقدًا أو خطورة.

– حسنًا، حسنًا، حسنًا، هتف. أنت تفاجئني يا بينكرتون. سبق لي أن تعرّفت على أمثالك، من فتيان بوب بينكرتون، وهم في العادة ليسوا بهذا القدر من النباهة. يبدو أنّك تفوّقت عليّ.

– ليس أمامك أيّ مفرّ يا مورتلايك! أجبته.

لكنّني لم أجرؤ على أن أقترب منه أكثر. كنت أخشى أن ينقضّ عليّ ويستعمل ذلك السلاح البشع. بقي واقفًا حيث هو، ومياه النهر الداكنة تحته. لكنّه سيغرق حتمًا إذا ما حاول القفز، هذا إذا لم تقتله السقطة أوّلًا. أضفتُ:

– ألقِ سلاحك وسلِّم نفسك.

كان ردّه شتيمة من النوع الأسوأ. شعرت باقتراب رجال الشرطة، ورأيتهم بطرف عيني، يتجمّعون متردّدين عند الباب خلفي. لم يعنِ وجودهم النجاة المضمونة، إلّا أنّني شعرت بالارتياح لأنّني لم أعد وحيدًا.

– أعطِنا ديفرو، قلت له. هو مَن نريد. سلّمنا إيّاه، تستفِد أنت.

– لن أعطيك سوى الوعد بأنّك ستندم على هذا حتّى نهاية أيّامك. لكن صدّقني يا بينكرتون، لن تكون أيّامك كثيرة العدد. سيكون بيننا حساب، أنت وأنا.

وبحركة واحدة ومن دون تردّد، استدار مورتلايك وقفز. رأيته يسقط في الهواء، وسترته تخفق خلفه. نظرت إليه وهو يغوص في النهر بقدميه أوّلًا، ويتوارى تحت سطح الماء. ركضت إلى الأمام، والخشب يلتوي تحتي. وفجأة شعرت بالدوار، وكدت أسقط لولا أنّ أحد رجال الشرطة أمسك بي.

– فات الأوان يا سيّدي! سمعتُه يصيح بي. لقد انتهى.

شعرتُ بالامتنان لأنّه أمسك بي. حملقتُ بالنهر في الأسفل، لكن لم يعد هناك ما أراه، ولا حتّى تموّج واحد على سطح الماء.

كان إدغار مورتلايك قد اختفى.

الفصل السادس عشر

إعتقال مجرم

في ذلك المساء قمنا بمداهمة نادي «بوسطنيان» للمرّة الثانية.

طلب منّي المفتّش جونز لقاءه عند الثامنة. وفي الموعد تمامًا دخلنا النادي، ترافقنا مجموعة مهيبة من رجال الشرطة بزيّهم الرسميّ. ومن جديد توقّف عازف البيانو عن العزف لدى مرورنا أمام المرايا المذهّبة والألواح الرخاميّة، بمواجهة البار حيث تألّقت الزجاجات والأكواب البلّوريّة. تجاهلنا همهمات الاعتراض التي صدرت عن الحضور، ومعظمه من الأميركيّين، وقد قطعنا على كثيرين منهم صفو أمسيتهم للمرّة الثانية. لكنّنا هذه المرّة كنّا نعرف أين نذهب تمامًا. فقد سبق أن شاهدنا الأخوين مورتلايك يخرجان من باب على الجانب الآخر للبار. لا بدّ من أنّه يؤدّي إلى مكتبهما الخاصّ.

دخلنا من دون أن نقرع الباب. فوجدنا ليلاند مورتلايك جالسًا خلف مكتب، وحوله نافذتان لهما ستائر مخمليّة حمراء. كان أمامه كوب من الويسكي وسيكار ضخم يحترق في منفضة. في البداية ظننّاه بمفرده، لكنّنا لم نلبث أن رأينا فتى في نحو عامه الثامن عشر، ذا شعر مدهن ووجه ضيّق ومنقبض ينهض واقفًا، من حيث كان راكعًا بالقرب من مورتلايك. سبق لي أن رأيت أمثاله مرّات كثيرة، وشعرت بالاشمئزاز. مكثنا برهة من غير أن تصدر عن أيّ منّا كلمة واحدة. ووقف الفتى هناك واجمًا، لا يدري ما يفعل.

– أخرج من هنا يا روبي.

– كما تشاء يا سيّدي. وسار الفتى أمامنا مسرعًا، يستعجل الخروج.

أنتظر ليلاند مورتلايك إغلاق الباب، ثمّ استدار نحونا بغضب بارد، وقال بحدّة:

– ما الأمر؟ ألا تقرعون الباب أبدًا؟

راح لسانه الرطب والرماديّ يتحرّك بسرعة بين شفتيه المنتفختين. وكان يرتدي ملابس السهرة، ويضع قبضتيه على المكتب.

– أين شقيقك؟ سأله جونز.

– إدغار؟ لم أرَه.

– أتعرف أين كان بعد ظهر اليوم؟

– لا.

– أنت تكذب. كان شقيقك في مستودع في حوض بلاكوال بازين، لاستلام مجموعة من التحف المسروقة من «شركة طريق تشانسري للودائع»، ضبطناه هناك بالجرم المشهود هناك وكدنا نلقي القبض عليه لو لم يرتكب جريمة قتل أمام أعيننا. وهو الآن مطلوب من العدالة. ونعرف أنّك نظّمتَ معه عمليّة السرقة بالتعاون مع رجل ثالث، كلارنس ديفرو. لا تنكر ذلك! كنت معه منذ ليالٍ قليلة في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة.

– أنكر ذلك. قلت لك حين قدمتَ في المرّة الماضية، إنّني لا أعرف أحدًا باسم كلارنس ديفرو.

– يدعو نفسه أيضًا كولمان دوفريس.

– لا أعرف هذا الاسم كذلك.

– لعلّ شقيقك أفلت من أيدينا، أمّا أنت فلن تفلت. سترافقني الآن للاستجواب في سكوتلانديارد، ولن ترحل قبل أن تطلعنا على مكان وجوده.

– لن أفعل شيئًا كهذا.

– إن لم تأتِ معنا بإرادتك، لن تترك لي خيارًا سوى اعتقالك.

– بأيّة تهمة؟

– عرقلة سير العدالة والمشاركة في جريمة.

– هذا سخيف!

– لا أظنّ ذلك.

ثم حلّ صمت طويل. جلس مورتلايك إلى مكتبه عاجزًا عن التنفّس، وحدهما كتفاه تصعدان وتهبطان فيما بقي جسده جامدًا. لم أتخيّل قطّ أنّ وجهًا يمكنه التعبير عن هذا القدر من الكراهية الشديدة، فقد احتقنت الدماء في شرايين وجنتيه. وأقلقني أن يكون سلاح ما – كمسّدس مثلًا – قريبًا منه، ربّما في أحد أدراج مكتبه. آنذاك ما كان ليتردّد في استعماله، غير عابئ بالنتائج. في النهاية قال:

– أنا مواطن أميركيّ، وزائر في بلدك. تهمك باطلة ومشينة. أودّ الاتّصال ببعثتي الدبلوماسيّة.

– يمكنك الاتّصال بهم من مكتبي، أجاب جونز.

– لا تملك الحقّ...

– بل أملك كلّ حقّ. كفى! هل ترافقنا أم أنادي رجالي للدخول؟

نهض مورتلايك من كرسيّه وعلى وجهه تكشيرة رهيبة. كان قميصه متدلّيًا خارج سرواله، فأعاده إلى الداخل بحركة بطيئة ومتعمّدة. وتمتم قائلًا:

– أنت تضيّع وقتك. ليس لديّ ما أقوله لك. لم أرَ شقيقي ولا أعرف عن أعماله شيئًا.

– سنرى.

وقفنا نحن الثلاثة، وكلّ منّا ينتظر قيام الآخر بخطوة. في النهاية، سحق ليلاند مورتلايك السيكار في المنفضة، ثمّ مرّ بيننا ببنيته الضخمة سائرًا إلى الباب. طمأنني وجود رجلَي شرطة ينتظراننا في الخارج، إذ لم تنقضِ لحظة في أثناء وجودنا في نادي «بوسطنيان»، إلّا وشعرتُني في أرض عدوّة. ولدى مرورنا بالبار بطريق العودة، التفت مورتلايك إلى الساقي وقال له:

– بلّغ السيّد وايت في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة.

– نعم، سيّدي.

كان هنري وايت المستشار الذي قدّمه إلينا روبرت لينكولن. شككتُ في أنّ مورتلايك كان يخادع، ويحاول ترهيبنا. إلّا أنّ جونز تجاهله.

تابعنا السير وسط جمع صامت يشعر بالاستهجان. حتّى أنّ بعضهم احتكّ بنا وكأنّه يحاول منعنا من الخروج. ومدّ نادل يده كأنّما يحاول الإمساك بمورتلايك، فوقفت بينهما. شعرت بالارتياح الكبير حين تجاوزنا الباب وخرجنا إلى شارع تريبيك، حيث انتظرتنا عربتان. لاحظتُ من قبل أنّ جونز قرّر أنّ يوفّر على سجينه إهانة الركوب في عربة السجناء، التي تعتمدها سكوتلانديارد عادةً. عند الباب حمل خادم إلى مورتلايك رداءً وعصا، لكنّ جونز انتزع العصا قائلًا:

– سأحتفظ بهذه العصا إن لم تمانع. لا أحد يعلم ما قد يجد المرء في آلة كهذه.

– إنّها عصا للسير، ليس إلّا، قال مورتلايك وعيناه تقدحان شررًا. أعدك بأنّك ستدفع ثمن هذا.

سرنا على الرصيف، وبدا لي أنّ الشارع أشدّ ظلمة من ذي قبل، ومصابيح الغاز أعجز من أن تقاوم سماء الليل، والرذاذ الرقيق يتساقط بلا هوادة. حتّى أنّ حصى الرصيف بانعكاساتها الزيتيّة كانت أكثر إضاءة من تلك المصابيح. حمحم أحد الأحصنة، وتعثّر مورتلايك في سيره. ولمّا كنت قريبًا منه، مددتُ يدي لأساعده. لكنّ نظرة واحدة في اتّجاهه أظهرت لي أنّ ما حدث هو أسوأ بكثير من مجرّد زلّة قدم. كان وجهه قد شحب تمامًا وجحظت عيناه، وأخذ يشهق محاولًا التنفّس، ويصرّ بفكّيه وكأنّه يحاول أن يقول شيئًا، لكنّه عجز عن الكلام. بدا أنّه مرتعب... وخطر ببالي أنّه خائف حتّى الموت.

– جونز... قلتُ.

لكنّ المفتّش جونز كان قد رأى ما يحدث، فطوّق سجينه بذراعه، ليمنعه من السقوط. وحينذاك انبعث من مورتلايك صوت رهيب، ورأيت زغوة تتشكّل على شفته السفلى، ثمّ راح جسده يتشنّج بعنف.

– نادوا طبيبًا! صاح جونز.

لم يكن بوسعنا العثور على طبيب، لا في الشارع الخالي ولا في النادي نفسه. خرّ مورتلايك على ركبتيه، وكتفاه تعلوان في محاولة للتنفّس، وتغيّرت ملامحه.

– ماذا يحدث؟ أهو قلبه؟ صحت.

– لا أعرف، مدّده أرضًا. ألا نستطيع العثور على طبيب، بحقّ السماء؟

لكنّ الأوان كان قد فات، هوى مورتلايك إلى الأمام ولبث هامدًا على الرصيف. وآنذاك رأينا على ضوء مصباح الشارع قصبة رفيعة تبرز من جانب عنقه.

صاح جونز آمرًا:

– لا تلمسوها!

– ما هي؟ تبدو كشوكة.

– إنّها شوكة مسمومة! سبق أن رأيت هذا لكنّني لا أصدّق... لا أريد أن أصدّق أنّ هذا قد حدث مرّة ثانية.

– عمّ تتحدّث؟

– «بونديتشيري لودج»!

ركع جونز بقرب جسد ليلاند مورتلايك الممدّد. كانت أنفاس هذا الأخير قد توقّفت، وشحب وجهه تمامًا. فقال:

– لقد مات.

– كيف؟ لا أفهم. ماذا حدث؟

– سقط ضحيّة لسهم مسموم نُفخ من أنبوب، أطلقه أحدهم نحو عنقه فيما كنّا نحاول إخراجه من النادي. لقد حدث ذلك، وهو بين أيدينا. هذا سمّ الإستركنين، أو سمّ آخر يشبهه، ومفعوله فوريّ.

– لكن لماذا؟

– لإسكاته، قال جونز وهو ينظر إليّ بعينين قلقتين. غير معقول. هذه المرّة أيضًا يا تشايس، المظاهر تخدعنا. مَن كان يعلم أنّنا آتون هذا المساء؟

– لا أحد. أقسم لك أنّني لم أخبر أحدًا!

– إذًا فلا شكّ بأنّ هذا الهجوم قد خُطّط له سواء أأتينا أم لا. كان أنبوب النفخ والسهم المسموم قد جُهّزا من قبل. وقد تقرّر أن يموت ليلاند مورتلايك قبل وصولنا بوقت طويل.

وقفت هناك، والأفكار تتدافع في رأسي. وقلت:

– من يريد موته؟ لا شكّ بأنّه كلارنس ديفرو! إنّه يلعب لعبة شيطانيّة. لقد قتل لافيل، وحاول قتلك... فمَن غيره كان في العربة ذات العجلات الأربع التي توقّفت بقرب سكوتلانديارد؟ والآن قتل مورتلايك.

– مَن كان في سكوتلانديارد لا يمكنه أن يكون ديفرو.

– لماذا؟

– لأنّ السائق أنزله في الشارع أمام مقرّ البعثة. فلو كان ديفرو لما استطاع الخروج في مكان مفتوح، بكلّ تأكيد.

– إن لم يكن ديفرو، فمَن؟ سألت جونز وأنا أنظر إليه حائرًا. أهو موريارتي؟

– لا! هذا غير ممكن.

كان كلانا محبطًا ومبلّلًا بالرذاذ حتّى العظم، وعلى وشك الانهيار من الإرهاق. بدا لي أنّ دهرًا انقضى منذ أن ذهبنا معًا إلى أرصفة لندن، كما أنّ تلك المهمّة لم تسِر كما كان مخطّطًا لها. وقف كلّ منّا بوجه الآخر عاجزًا، فيما راح رجال الشرطة يتقدّمون شيئًا فشيئًا وهم ينظرون إلى الجثّة مرتاعين. إنغلق باب النادي بقوّة فجأة فحجب الضوء، وكأنّ مَن يعملون هناك لم يريدوا أيّ شأن لهم بنا.

– تولَّ هذا الأمر أيّها الرقيب، قال جونز مناديًا شرطيًّا لم أميّزه. بدا المفتّش وكأنّ كلّ أثر للحياة قد فارقه، وقد تراخت قسماته وخلت عيناه من أيّ تعبير. ثم تابع يقول: إعمل على رفع الجثّة، ثمّ سجِّل هويّة كلّ مَن في النادي. أعرف أنّنا فعلنا هذا من قبل لكنّ علينا أن نفعله من جديد! لا تسمحوا لأحد بالانصراف قبل أخذ إفادته. ثمّ استدار نحوي وقال بنبرة أكثر هدوءًا: لن يجدوا شيئًا، فالقاتل قد رحل. تعال معي يا تشايس، لنغادر هذا المكان اللعين.

سرنا عبر الشارع ووصلنا إلى سوق شيبرد. عند أحد المنعطفات وجدنا حانة تدعى «غرايبس». دخلناها إلى حيث الدفء، فطلب جونز نصف ليتر من النبيذ الأحمر لكلينا. وأخرج من جيبه سيجارة أشعلها. كانت تلك المرّة الثانية التي أراه يدخّن فيها. وفي النهاية، بدأ يتكلّم مختارًا كلماته بعناية.

– لا يمكن أن يكون موريارتي حيًّا. أرفض أن أصدّق ذلك! تذكّر الرسالة... الرسالة المرمّزة التي بدأ بها كلّ هذا. كانت مرسلة إلى موريارتي، وعُثر عليها في جيب الرجل القتيل. يمكننا منطقيًّا الاستنتاج بأنّ القتيل هو موريارتي. لا مفرّ من المنطق أبدًا. مقتله فقط هو الذي سمح لديفرو وزمرته بأن يأخذوا مكانه، ويقيموا في لندن بحريّة. وفقط بسبب تلك الرسالة، استطعنا الوصول إلى هنا.

– إذًا، إن لم يكن هذا انتقام موريارتي، فهو بلا شكّ انتقام شركائه السابقين. لعلّه ترك لهم تعليمات، حتّى قبل ذهابه إلى مايرنغن...

– قد تكون على حقّ. قال المفتّش باترسون إنّه اعتقلهم كلّهم، لكن لعلّه أخطأ. يبدو أنّنا وقعنا على الفريقين المتخاصمين. من جهة، لافيل والشقيقان مورتلايك وكلارنس ديفرو. ومن الجهة الثانية...

– الفتى الأشقر والرجل في العربة ذات العجلات الأربع.

– ربّما.

– أنا أضيّع وقتي! قلتُ. كنت أحسّ بملابسي المبلّلة تلتصق بجسدي. لم أتلذّذ بطعم النبيذ الذي شربته، كما أنّه لم يدفئني إلّا قليلًا. أضفتُ: أتيت من أميركا ملاحِقًا كلارنس ديفرو، ووجدتُه لكنّك منعتني من مسّه. رأيتُ إدغار مورتلايك أمامي، لكنّه هرب. سكوتشي لافيل، وجون كلاي، وليلاند مورتلايك... كلّهم ماتوا. وعميلنا الشابّ جوناثان بيلغريم... أرسلتُه إلى هنا فكلّفه الأمر حياته. أشعر بظلّ موريارتي فوقنا مع كلّ خطوة. وبصراحة يا جونز، لقد اكتفيت. من دونك ما كنت لأصل إلى أيّ مكان، لكنّني فشلت حتّى مع مساعدتك. الأحرى بي أن أعود إلى بلادي، وأقدّم كتاب استقالتي وأجد طريقة أخرى لأمضي أيّامي.

– لن أرضى بهذا الكلام، أجاب جونز. غير صحيح أنّنا لا نحرز تقدّمًا. لقد وجدنا ديفرو ونعرف هويّته الحقيقيّة. وفي الوقت عينه قُضي على عصابته، كما فشلت خطّته الأخيرة، أي عمليّة السطو على «شركة طريق تشانسري للودائع». لا يمكنه أن يهرب. سأرسل رجالًا للمراقبة في كلّ مرافئ البلد...

– بعد ثلاثة أيّام، قد لا تملك السلطة لذلك.

– قد يحدث الكثير في ثلاثة أيّام، قال جونز وهو يضع يدًا على كتفي. لا تفقد الأمل. صحيح أنّ الصورة قاتمة، لكنّها بدأت تتشكّل. ديفرو جرذ في جحر، لكنّه الآن خائف. يجب أن يخرج. وقد يرتكب في النهاية الخطأ الذي يسمح لنا بالقبض عليه. لكن صدِّقني، سيتحرّك قريبًا.

– أتظنّ ذلك؟

– أنا متأكّد كلّ التأكيد.

كان أثيلني جونز على حقّ. فقد تحرّك عدوّنا حقًّا، لكن بطريقة ما كان أيّ منّا ليتوقّعها.

الفصل السابع عشر

«نزهة الرجل الميت»

حالما رأيت أثيلني جونز في فندق هكسام في اليوم التالي، أدركتُ أنّ أمرًا رهيبًا وغير متوقّع قد حدث. فملامحه التي أوحت دائمًا بتاريخ مرضه الطويل كانت أكثر تراخيًا وشرودًا من ذي قبل، كما بدا شاحبًا جدًّا لدرجة اضطرّتني إلى أن أقوده للجلوس على كرسيّ، يقينًا منّي بأنّه يكاد يغيب عن الوعي. لم أدعه يتكلّم، طلبت له شايًا ساخنًا بالليمون، وجلست معه حتّى وصول الشاي. الفكرة الأولى التي مرّت ببالي هي أنّه عقد اجتماعه مع مفوّض الشرطة، وأنّه خسر عمله في شرطة لندن. لكنّ معرفتي به، ومحادثتنا في مكتب شارع شيلترين جعلتاني أدرك أنّ ما حدث هو أسوأ جدًّا.

وأثبتت الكلمات الأولى التي نطق بها صحّة ظنّي:

– أخذوا بياتريس.

– ماذا؟

– إبنتي. لقد اختطفوها.

– ما أدراك؟ كيف يُعقل هذا؟

– أرسلت لي زوجتي برقيّة، حملها إليّ مرسال لأنّ أسابيع سوف تنقضي قبل أن يتمّ إصلاح غرفة التلغراف في سكوتلانديارد. قرأتها في مكتبي، لأجدها تستدعيني على عجل إلى المنزل. وطبعًا فعلتُ. حين وصلت كانت إلسبث في حالة من الانهيار حتّى كدت لا أفهم شيئًا ممّا تقوله، اضطررتُ إلى إعطائها

بعض الأملاح لتهدئتها. المسكينة! أيّة أفكار سوداء مرّت ببالها وهي تنتظر عودتي وحيدة، بغير أن يكون هناك مَن يعزّيها؟

إختفت بياتريس صباح اليوم. كانت قد خرجت مع مربّيتها الآنسة جاكسون، وهي امرأة طيّبة القلب ومحلّ ثقة، مضت أعوام خمسة على وجودها معنا. كان من عادتهما أن تتنزّها في حدائق مياتس فيلدز، القريبة من المنزل. هذا الصباح تشتّت انتباه الآنسة جاكسون لبرهة حين أتت امرأة عجوز تطلب منها إرشادات الطريق. لقد استجوبتها، ولا أشكّ في أنّ تلك العجوز التي أخفت وجهها بخمار كانت جزءًا من المكيدة، وقد استُخدمت للتضليل. وحين التفتت الآنسة جاكسون حولها، كانت بياتريس قد توارت.

– ألعلّها تاهت فضلّت الطريق، لا أكثر؟

– ليس ذلك في طبعها. ومع ذلك، حاولت المربّية إقناع نفسها بالأمر. من طبيعة البشر التعلّق بالأمل، مهما بدا ذلك الأمل بعيدًا عن المنطق. فتّشت الحديقة والمنطقة المحيطة بها تفتيشًا شاملًا قبل أن تطلب المساعدة. لم يكن أحد قد رأى ابنتنا، وكأنّما تبخّرت عن وجه الأرض. لم تشأ الآنسة جاكسون أن تهدر مزيدًا من الوقت، فأسرعت عائدة إلى المنزل والحزن يعتصرها. كانت إلسبث بانتظارها، لكنّها لم تكن بحاجة إلى أن يخبرها أحد بما حدث، لأنّ رسالة قد دُسّت تحت الباب. وهي معي هنا.

فتح جونز ورقة وأعطاني إيّاها. إحتوت كلمات قليلة فقط مكتوبة بالحروف الكبيرة، لكنّها تحمل في بساطتها تهديدًا أكبر.

«إبنتك معنا. إبقى في المنزل. لا تبلّغ أحدًا. سنتّصل بك قبل انقضاء النهار.»

– هذه الرسالة لا تقول لنا شيئًا تقريبًا.

– بل تقول لنا الكثير، أجاب جونز بانفعال. إنّها من رجل متعلّم يتظاهر بأنّه غير متعلّم. وهو أعسر، ويعمل في، أو يستطيع الوصول إلى، مكتبة، برغم أنّها مكتبة نادرًا ما يرتادها زوّار. كما أنّه حازم ولا يعرف الرحمة، لكنّه في الوقت عينه متوتّر، وهذا ما يجعله متهوّرًا. هذه الرسالة كُتبت على عجل. وأنا شبه متأكّد من أنّه كلارنس ديفرو. أعتقد أنّه كاتب هذه الرسالة.

– أنّى لك أن تدرك هذا كلّه؟

– أليس الأمر بديهيًا؟ لقد تعمّد أن يخطئ بكتابة «إبق»، إلّا أنّ كلماته الأخرى صحيحة تمامًا، وصولًا إلى الدقّة في التمييز بين همزات القطع والوصل. في بحثه عن ورقة للكتابة، تناول كتابًا عن رفٍّ ما، فمزّق إحدى الصفحات البيضاء في بدايته. بوسعك أن ترى أنّ للصفحة جهتين قُصّتا بآلة، فيما طرفها الخارجيّ غير سويّ. كما أنّ الكتاب لم يُقرأ. لاحِظ الغبار وبهوت اللون بسبب نور الشمس على الجزء الأعلى منه. وقد استخدم يده اليسرى ليمزّق الورقة من الغلاف. وإبهامه التي مالت إلى الخارج تركت أثرًا واضحًا. كان هذا عملًا تخريبيًا، يدلّ إلى رجل على عجلة شديدة من أمره. ولو كان الكتاب قد استُعمل مرارًا لظهر ذلك. ثمّ دفن جونز رأسه بين يديه وأضاف: كيف أملك كلّ مهارات الاستنتاج هذه، ولم أدرِ بأنّ طفلتي قد تكون في خطر؟

– لا تقسُ على نفسك، قلت له. لم يكن بوسع أحد أن يتوقّع ذلك. لم أشهد طوال سنين عملي في التحقيق شيئًا كهذا قطّ. أن يستهدفك ديفرو على هذا النحو... هذا أمر مشين! هل أبلغت زملاءك في سكوتلانديارد؟

– لا أجرؤ.

– أظنّ أنّ عليك أن تفعل.

– لا، لا يمكنني تعريضها للخطر.

فكّرتُ قليلًا ثمّ أضفت:

– يجب ألّا تكون هنا. الرسالة تطلب منك البقاء في المنزل.

– إلسبث هناك الآن، لكن كان عليّ أن آتي. ما داموا قد قرّروا استهدافي على هذا النحو، فمن شبه المؤكّد أنّهم سيحاولون القيام بأمر مشابه معك. وافقتني زوجتي الرأي، وكان علينا تحذيرك.

– لم أرَ أحدًا.

– هل غادرت الفندق؟

– لم أغادره بعد. لا. أمضيت الصباح في غرفتي، أكتب تقريري إلى روبرت بينكرتون.

– إذًا فقد وصلتُ في الوقت المناسب. عليك العودة معي إلى كامبرويل. هل أطلب منك الكثير؟ مهما سيحدث، يجب أن نواجهه معًا.

– الأمر الوحيد المهمّ هو عودة ابنتك.

– شكرًا.

ألقيت يدي على ذراعه لبرهة وقلت له:

– لن يلحقوا بها الأذى يا جونز، إنّهم يسعون إلينا نحن، أنت وأنا.

– لكن لماذا؟

– لا أستطيع أن أجيب، لكن يجب أن نستعدّ للأسوأ. ثمّ وقفت وأضفت: سأعود إلى غرفتي وآتي بمعطفي. ليتني أحضرت معي مسدّسي من نيويورك. أنهِ الشاي واسترِح قليلًا، فقد تحتاج إلى قوّتك.

عدنا معًا بالقطار إلى كامبرويل، وفيما كنّا نجتاز ضواحي لندن لبث كلانا صامتًا. جلس جونز وعيناه نصف مغمضتين، مستغرقًا في التفكير. أمّا أنا فلم أستطع سوى التفكير في الرحلة الأكبر التي قمنا بها معًا، والتي بدأت في مايرنغن. هل كنّا على وشك أن نبلغ نهايتها؟ يبدو الأمر الآن وكأنّ كلارنس ديفرو قد تفوّق علينا، لكنّني عزّيت نفسي بفكرة أنّه ربّما تمادى كثيرًا في النهاية، وأنّه بالاعتداء على عائلة المفتّش قد ارتكب خطأه الأوّل. كانت تلك خطوة رجل يائس، ربّما نستطيع أن نقلبها ضدّه.

بدا القطار وكأنّه يتقدّم ببطء متعمّد، لكنّنا في النهاية بلغنا وجهتنا، وأسرعنا إلى المنزل حيث كنت مدعوًّا إلى العشاء قبل ما لا يزيد عن أسبوع واحد. كانت إلسبث جونز تنتظرنا في الغرفة حيث تعرّفتُ إليها، واقفة، وتلقي بإحدى يديها على الكرسيّ عينه الذي وجدتُها جالسة فيه تقرأ رواية لابنتها. رأتني لكنّها لم تبذل أيّ جهد لإخفاء الغضب في عينيها. لعلّي كنت أستحقّ ذلك الغضب، فقد طلبتُ حمايتي، ووعدتُها بأنّ كلّ شيء سيسير على خير ما يُرام. كم أنّ كلماتي تلك تبدو الآن باطلة.

– هل سمعت شيئًا؟

– لا. ألم يحدث شيء هنا؟

– لا شيء. ماريا في الأعلى فريسة للحزن برغم تأكيدي لها أنّها غير مخطئة. – فافترضتُ أنّ ماريا هي الآنسة جاكسون، المربّية – أضافت: هل رأيت لسترايد؟

– لا، قال جونز خافضًا رأسه، وأضاف: سامحني الله إذا كنت أتّخذ القرار الخطأ، لكنّني لا أستطيع أن أعصى تعليماتهم.

– لن أسمح لك بمواجهتهم وحيدًا.

– لست وحيدًا، السيّد تشايس معي.

– أنا لا أثق بالسيّد تشايس.

– إلسبث! صاح جونز وهو يشعر بالإهانة.

– قولك هذا غير لطيف، سيّدة جونز، قلت. طوال هذه المسألة بذلتُ كلّ ما بوسعي...

– أعذرني إذا تكلّمت بصراحة، قالت المرأة وهي تلتفت إلى زوجها. في هذه الظروف، لا تتوقّع منّي شيئًا آخر. منذ البداية، أي حين سافرتَ إلى سويسرا، كنتُ أخشى أمرًا كهذا. خامرني إحساس باقتراب الشرّ يا أثيلني. لا. لا تهزّ رأسك هكذا. ألا تعلّمنا الكنيسة أنّ للشرّ وجودًا حسّيًا، يمكننا الشعور به كشتاء بارد أو كعاصفة وشيكة؟ «نجّنا من الشرّير!» نردّد هذه العبارة كلّ ليلة. وها هو الشرّ هنا الآن. لعلّك أنت دعوتّه للمجيء، أو لعلّه كان سيأتي في جميع الأحوال. لا أبالي بمن أجرح مشاعره. أرفض أن أخسرك هكذا.

– لا خيار لي سوى الامتثال لما يقولون.

– وإذا قتلوك؟

– لا أعتقد أنّهم يريدون قتلنا، قلتُ. لن يفيدهم ذلك. السبب الأوّل هو أنّ ضبّاط شرطة آخرين لن يلبثوا أن يحلّوا محلّنا. وإذا كان موت عميل لبينكرتون قد يُنظر إليه بشيء من اللامبالاة، فإنّ موت مفتّش في سكوتلانديارد أمر مختلف تمامًا. محال أن يرغب عدوّنا باستنزال هذا القدر من المتاعب على نفسه.

– إذًا ما هي نيّته؟

– لا أعلم. أن يحذّرنا، أو أن يخوّفنا، أو ربّما أن يظهر لنا مدى قوّته.

– سيقتل بياتريس.

– أيضًا، لا أظنّ ذلك. إنّه يستعملها للوصول إلينا. الرسالة هي الدليل. أعرف أولئك الأشخاص وأعرف أسلوبهم في العمل. هذه أساليب نيويورك: الابتزاز والترهيب. لكن قسمًا بالله لن يؤذوا طفلتك، لسبب بسيط هو أنّهم لن يكسبوا من ذلك شيئًا.

أومأت إلسبث برأسها إيماءة بسيطة لكنّها ظلّت تتجنّب النظر إليّ. جلسنا نحن الثلاثة إلى الطاولة، وبدأ ما يمكنني بصراحة وصفه بأنّه أطول فترة بعد ظهر في حياتي، والساعة فوق رفّ المدفأة تسجّل بطنّاتها مرور الثواني، ثانية بعد أخرى. لم يكن بوسعنا سوى الانتظار، وباتت كلّ محادثة بيننا مستحيلة. وبرغم أنّ الخادمة الشابّة حملت إلينا الشاي والشطائر فإنّ أيًا منّا لم يأكل. كنت أسمع حركة العربات في الخارج والظلام الذي يغشى السماء شيئًا فشيئًا، لكنّني استسلمت بلا شكّ إلى حلم يقظة، أيقظني منه فجأة طَرْقٌ مُجَفِّل على الباب.

– هذه هي! هتفت إلسبث.

– إن شاء الله... قال جونز وهو يقف بصعوبة، فالفترة الطويلة التي قضاها جالسًا قد خدّرت عضلاته.

تبعناه إلى الباب. وحين فتحه بسرعة لم نرَ بياتريس، بل رجلًا متوشّحًا رداء يحمل رسالة ثانية انتزعها جونز منه، وسأله:

– أين استلمتها؟

ظهر الاستهجان على محيّا الرجل، وقال:

– كنت في حانة «كامبرويل أرمز». وجاء رجل وأعطاني شيلينغًا لتسليمها.

– صفه لي! أنا شرطيّ، وإذا كتمتَ عنّي شيئًا، فستندم.

– لم أرتكب أيّ سوء. أنا نجّار، ولم أرَه إلّا قليلًا. كان رجلًا بملابس سوداء يعتمر قبّعة ويلفّ ذقنه بوشاح. سألني عمّا إذا كنت أريد أن أكسب شيلينغًا، وأعطاني هذه الرسالة. قال لي إنّ في المنزل رجلين، وإنّ بوسعي تسليم الرسالة إلى أيّ منهما. هذا كلّ ما أعرفه.

أخذ جونز الرسالة، وعدنا إلى غرفة الجلوس حيث فتحها. وكانت مكتوبة بالخطّ عينه الذي كتبت به الرسالة الأولى، ولكنّها أكثر اقتضابًا.

«نزهة الرجل الميت. كلاكما. لا شرطة.»

– «نزهة الرجل الميت»، قالت إلسبث وقد أخذتها رجفة. يا للاسم الفظيع. ما هي؟

ولمّا لم يجبها جونز، قالت له:

– أخبرني!

– لا أعلم. لكن يمكنني البحث في فهرسي. أمهليني دقيقة.

مكثْت وإلسبث جونز ننتظر فيما صعد زوجها إلى مكتبه، يبحث في القسائم المختلفة التي جمعها على مرّ السنين، أسوة بهولمز طبعًا. لا شكّ عندي بأنّ كلينا أحصى كلّ خطوة من خطواته وهو ينزل.

– إنّها في ساوثوارك، قال شارحًا وهو يدخل.

– أتعرف ما هي؟

– أجل يا عزيزتي، لكن يجب ألّا تقلقي. إنّها مقبرة لم تعد تُستعمَل، وقد أُقفِلت منذ سنوات.

– لماذا يختارون مقبرة؟ هل يقولون إنّ ابنتنا...

– لا. لقد اختاروا مكانًا هادئًا وبعيدًا عن الأنظار لتنفيذ خطّتهم. وهو لا يختلف عن غيره من الأمكنة.

– يجب ألّا ترحل! قالت إلسبث. وأمسكت بالرسالة، وكأنّها ترجو العثور على أدلّة أكثر في تلك العبارات القليلة. ثمّ أضافت: إذا كانت بياتريس هناك، يمكنك الذهاب الآن إلى الشرطة. يجب أن تذهب إلى الشرطة. لن أسمح لك بأن تعرّض نفسك للخطر.

– إذا لم نمتثل لتعليماتهم، فالاحتمال ضئيل جدًّا بأن نجد ابنتنا هناك يا حبيبتي. إنّهم أشخاص ماكرون، قدّموا إلينا الدليل بعد الدليل إلى أنّهم يعرفون ما يفعلون. ولعلّهم يراقبوننا حتّى ونحن نتكلّم.

– كيف يكون هذا معقولًا؟ لماذا تظنّ ذلك؟

– كانت الرسالة الأولى موجّهة إليّ وحدي، أمّا هذه فتشير إلى كلينا. قيل للمرسال إنّ في هذا المنزل رجلين، أي أنّهم يعرفون بوجود تشايس هنا.

– لن أدعك تفعل هذا! قالت إلسبث جونز بصوت هادئ غير أنّه مفعم بالشغف. رجاءً، أصغِ إليّ. دعني أذهب بدلًا منك. لا شكّ بأنّ أولئك الأشخاص ليسوا أشرارًا إلى درجة أن يتجاهلوا توسّلات أمّ. سأجعلهم يأخذونني مكانها...

– ليس هذا ما يريدونه. عليّ الذهاب أنا وتشايس، فهم لا يريدون التحدّث مع أحدٍ سوانا. لكن يجب ألّا تخافي. ما قاله تشايس صحيح، لا مصلحة لهم في إلحاق الأذى بنا. أعتقد أنّ كلارنس ديفرو يرغب في عقد صفقة معنا. هذا كلّ شيء. بأيّة حال، لا جدوى من هذه التكهّنات حين تكون حياة بياتريس في خطر. إذا رفضنا أن نمتثل لتعليماتهم، سيقومون بما هو أسوأ، لا شكّ بذلك.

– لم يقولوا في أيّ وقت يريدون لقاءكما.

– إذًا علينا الانصراف حالًا.

لم تتابع إلسبث الجدال، بل أخذت زوجها بين ذراعيها وعانقته كما لو أنّها المرّة الأخيرة. أعترف أنّ الشكوك خامرتني حول ما قاله جونز. فلو أنّ كلارنس ديفرو أراد فقط مكالمتنا، لما خطف فتاة في السادسة من عمرها واستغلّها لاستدراجنا إلى مقبرة مهجورة. ربّما لا مصلحة له في إيذائنا لكنّ ذلك لن يمنعه من إيذائنا. أعرفه وأعرف كيف يعمل. لا فرق بين الجدال معه أو مع الحمّى القرمزيّة. حالما نصبح بين يديه قد يقضي علينا لمجرّد أنّ ذلك في طبيعته.

غادرنا المنزل، وبدا لي أنّ الليل بارد على نحو غريب في مثل هذا الوقت من العام، برغم أنّه خلا من أيّة نسمة. عانق جونز زوجته عند الباب، وحدّق كلّ منهما طويلًا في عينَي الآخر. فجأة بتنا وحيدَين في ذلك الشارع الذي بدا خاليًا، ومع ذلك علمت بأنّنا مراقَبان.

– سنذهب، اللعنة عليكم! صحتُ. نحن وحدنا. سنذهب إلى «نزهة الرجل الميت»، فافعلوا بنا ما تشاؤون.

– لا يمكنهم سماعنا، قال جونز.

– إنّهم قريبون، أجبته. أنت نفسك قلت ذلك. هم يعرفون أنّنا في الطريق إليهم.

لم تكن ساوثوارك بعيدة جدًّا، وذهبنا إلى هناك بعربة أجرة. كان جونز يرتدي معطفًا فضفاضًا، ولاحظت أنّه أخذ عصا جديدة ذات مقبض محفور بشكل رأس غراب. إنّها من المستلزمات المناسِبة تمامًا لمقبرة. كان متوتّرًا وصامتًا على نحو غير مألوف، وأدركتُ أنّه هو أيضًا لم يصدّق كلمة واحدة ممّا قاله لزوجته. كنّا نسير إلى خطر الموت، وقد أدرك ذلك. لا بل كان يدرك ذلك منذ أن دعاني إلى منزله.

زالت «نزهة الرجل الميت» من الوجود منذ زمن بعيد. وهي كانت من المقابر التي بُنيت في الجزء الأوّل من القرن التاسع عشر، حتمًا حين لم يكن أحد يتخيّل كم شخصًا سيعيش في لندن، ويموت فيها. إذ سرعان ما اكتظّت، وحُشرت فيها الجثث الواحدة بقرب الأخرى، لدرجة أنّ الأضرحة وشواهدها، وبدلًا من أن تضفي على المكان خشوعًا وهدوءًا، تحوّلت إلى منظر بشع. فبرزت في كلّ اتّجاه، متزاحمة ومتصارعة للفوز بحيّز ما. كما خيّمت منذ سنوات كثيرة فوق المكان رائحة نتنة، فالقبور الأحدث حُفرت على عمق قليل جدًّا، لا يتناسب والعمق المطلوب لدفن جثة. وكان مألوفًا العثور على قطع مهترئة من أخشاب التوابيت أو حتّى من العظام البشريّة تبرز من التراب. كان لا بدّ من أن تُهجر تلك المقبرة. وحيث بيعت مقابر أخرى وحُوِّلت إلى حدائق، تُركت مقبرة «نزهة الرجل الميت» على حالها، مساحة طويلة غير منتظمة بين سكّة حديديّة ومأوى قديم، على كلّ من طرفيها بوّابة صدئة، وقد نبتت فيها بعض الأشجار المتعفّنة، مساحة تبعث على الإحساس بأنّها ليست من هذا العالم ولا من العالم الآخر، بل هي موجودة في منطقة مظلمة وحزينة خاصّة بها.

أوصلتنا عربة الأجرة فيما كان جرس الكنيسة يدق معلنًا الساعة الثامنة، مردّدًا صداه المكتوم في الظلام. في الحال أدركت أنّ هناك مَن ينتظرنا فخارت عزيمتي. تألّفت لجنة الاستقبال من نحو عشرة أشقياء، بدوا بملابسهم المهلهلة وقذارتهم الشديدة وكأنّهم أتوا حالًا من القبور القريبة.

كان معظمهم يرتدي سترات ضيّقة، وسراويل مخمليّة قذرة وينتعلون جزمات. بعضهم حاسر الرأس، والآخرون يعتمرون قبّعات مستديرة، ويحملون هراوات فوق أكتافهم أو على التواءات أذرعهم. كانت المشاعل التي أضيئت تلقي بنورها الأحمر فوق القبور وكأنّما لجعل المشهد أشبه بالجحيم. كم مضى على وجودهم هناك؟ لم أكن أعرف. لكنّني وجدته أمرًا لا يصدَّق أن نسلّم نفسينا إليهم. كان عليّ تذكير نفسي بأنّنا لا نملك بديلًا، وأنّنا اتّخذنا قرارنا.

ومع ذلك وقفنا متردّدين عند البوّابة.

– أين ابنتي؟ صاح جونز.

– هل جئتما بدون مرافقة؟ قال رجل ملتحٍ ذو شعر طويل ومتشابك، وأنف مكسور يلقي فوق وجهه ظلالًا مشوّهة.

– نعم. أين هي؟

حلّ صمت قصير. وهبّت نسمة مفاجئة في أرجاء المقبرة انحنت لها نيران المشاعل. ثمّ ظهر شخص يخرج من خلف ضريح جثم فوقه ملاك حجريّ. لوهلة ظننته كلارنس ديفرو، ثمّ تذكّرتُ أنّ مرضه لا يسمح له بالظهور في مكان مفتوح. كان الرجل إدغار مورتلايك. آخر مرّة شاهدته فيها، كان يغوص في النهر. بدا لي الآن ميتًا أكثر منه حيًّا، ويتحرّك ببطء وكأنّ اصطدامه بالماء حطّم عددًا من عظامه. كما لم يأتِ وحده، فقد أمسكت بيده بياتريس جونز شاحبة الوجه ودامعة العينين. كان شعرها غير ممشّط، ووجهها ملطّخًا، وفستانها ممزّقًا ومتّسخًا، لكنّها بدت سليمة.

– لا نبالي بابنتك الصغيرة العزيزة! صاح مورتلايك. أنت مَن نريد. أنت وصديقك اللعين.

– نحن هنا.

– إقتربا أكثر. إنضمّا إلينا! لا مصلحة لنا في الاحتفاظ بها. ثمّة عربة تنتظر لإعادتها إلى المنزل. لكن إذا لم تفعل ما أقوله لك، فسترى شيئًا قد تفضّل ألّا تراه.

ورفع يده الأخرى فظهرت مدية ذات شفرة طويلة ومضت في ضوء النيران فوق رأس الفتاة. لحسن الحظ أنّها لم تستطع رؤيتها. ولم أشكّ بأنّه

سيستعملها إذا لم نُطع تعليماته، وسيقطع عنق الفتاة حيث هي. تبادلت وجونز نظرة واحدة، ثمّ اقتربنا معًا.

في الحال أحاط بنا الفتيان الأشقياء فسدّوا علينا كلّ مهرب. تقدّم مورتلايك منّا، وهو لا يزال ممسكًا بيد بياتريس. عرفت الفتاة أباها لكنّ خوفها الشديد منعها من الكلام.

– أعِد الفتاة إلى المنزل، قال وهو يسلّمها إلى أحد الفتيان، وهو وغد باسم الوجه، ذو شعر أجعد وفي إحدى عينيه شحّاذ.

إبتعد الفتى بالصغيرة، فقال مورتلايك:

– أترى أيّها المفتّش جونز؟ أنا أحفظ وعدي.

إنتظر جونز أن تغادر ابنته المقبرة، ثمّ قال:

– أنت جبان. رجل يخطف فتاة صغيرة ويستغلّها من أجل غاياته الشيطانيّة. أنت لست جديرًا حتّى بالاحتقار.

– وأنت هو المعتوه الذي قتل شقيقي. قال مورتلايك وقد بات قريبًا جدًّا من جونز، ووجهه على مسافة بوصات قليلة منه. وأضاف محدّقًا به بعينين تومضان جنونًا: أؤكّد لك أنّ ذلك سيكلّفك عذابًا مريرًا. لكنّ عليك في البداية أن تجيب عن بعض الأسئلة. وسوف تجيب عنها!

أومأ مورتلايك برأسه، ورأيت أحد الأشقياء يتقدّم حاملًا هراوة إيرلنديّة لوّح بها بعنف في الهواء، ثمّ سدّدها إلى مؤخّرة رأس جونز الذي سقط أرضًا في الحال. أدركت أنّني بقيت وحيدًا مع العدوّ، محاصَرًا، وأنّ مورتلايك يلتفت نحوي. علمت ما ينتظرني لكنّني لم أكن مستعدًّا لانفجار الألم الذي قذف بي إلى نفق من الظلمة والموت المؤكّد.

الفصل الثامن عشر

برّاد اللحوم

كدت أخشى فتح عينيّ ليقيني بأنّني أحتضر. وإلّا فكيف يمكن أن أحسّ بهذا البرد الشديد؟

مع استعادتي وعيي وجدتني ملقىً على أرضيّة حجريّة وبقربي نور خافت مرتجف. لم أعلم كم مضى على وجودي في ذلك المكان، ولا مدى إصابتي، برغم أنّ وخز الألم لم يبارح رأسي بفعل الضربة التي تلقّيتها. تساءلتُ عمّا إذا كنت قد نُقلت إلى خارج لندن. تغلغل البرد إلى عظامي وأخذ جسدي يرتعد لا إراديًا. فقدتُ كلّ إحساس في يديّ، كما آلمتني أسناني. بدا وكأنّني نُقلت إلى القطب الشماليّ وتُركت لأموت فوق الطوف الجليديّ. لكن لا. كنت في مكان مقفل، وما تحتي إسمنت لا جليد. إستجمعت قواي لأجلس، ولففت يديّ حول جسدي محاولًا المحافظة على القليل المتبقّي من حرارة جسدي، وعلى وعيي. رأيت أثيلني جونز، الذي استعاد وعيه بدوره، لكنّه بدا على وشك الموت. كان جالسًا يستند بجسده المتهالك إلى جدار حجريّ، وبجانبه عصاه، وعلى كتفيه وياقته وشفتيه نثرات من الجليد.

– جونز...؟

– تشايس! الحمد لله على أنّك أفقت.

– أين نحن؟ سألته، فخرجت من فمي سحابة من البخار الأبيض.

– في سميثفيلد كما أظنّ، أو في مكان شبيه به.

– سميثفيلد؟ ما هو؟

كان الجواب عن سؤالي ماثلًا أمامي. فقد كنّا في سوق لبيع اللّحوم بالجملة، وفي الغرفة حولنا مئة جيفة. لقد رأيتها، لكّن بطء استعادتي حواسّي جعلني لا أدرك ما هي. رحت أنظر إليها متفحّصًا، فرأيت خرفانًا عارية تمامًا، بلا رؤوس وبلا صوف، فقدت كلّ ما يدلّ إلى أنّها من مخلوقات الله. كانت ملقاة متجمّدة الأطراف، في أكداس تكاد تبلغ السقف. كما سالت منها برك دم صغيرة متجمدة، لونها أقرب إلى البنفسجيّ منه إلى الأحمر. نظرتُ من حولي. كانت الغرفة مربّعة وفيها سلّمان ينزلقان أفقيًا على طول سكّتين حديديّتين. ذكّرني المكان بمخازن السفن. كان المخرج الوحيد المتاح عبارة عن باب فولاذيّ، مقفل بكلّ تأكيد. كما أنّ لمسه سيسلخ الجلد عن أصابعي. ووُضعت على الأرض شمعتان من الدهن، لولاهما لسيطر ظلام حالك.

– كم مضى على وجودنا هنا؟ سألته بصعوبة شديدة لأنّ البرد جمّد فكّيّ.

– لا يمكن أن يكون وقت طويل قد مضى.

– هل أنت مصاب؟

– لا، ليس أكثر منك.

– وابنتك...؟

– بأمان... كما أعتقد. لنحمد الله على ذلك. مدّ جونز يده إلى عصاه بصعوبة، وقال: تشايس، أنا آسف.

– لماذا؟

– أنا مَن جاء بك إلى هنا. هذا خطأي. كنت مستعدًّا للقيام بأيّ شيء لاستعادة بياتريس، لكنّ توريطك في هذا لم يكن أمرًا منصفًا.

خرجت منه الكلمات كلهاث متعب، متقطّعة، وخالية من الدفء شأنها شأن الأغنام المذبوحة والمحيطة بنا. كان ذلك محتومًا، فعلى كلّ كلمة ثُقال أن تقاوم البرد القارس. وبرغم ذلك أجبته:

– لا تلُم نفسك. بدأنا معًا وسننتهي معًا. هذا ما يجب أن يكون.

عدنا إلى الصمت للمحافظة على قوانا، وكلانا يدرك أنّ حياتنا تبتعد عنّا. هل كان هذا قدرنا؟ أن نُترك هنا حتّى يتجمّد الدم في عروقنا؟ كان جونز

محقًّا، فهذا سوق كبير للّحوم، فيه غرف تبريد. والجدران التي كنّا بينها ملأى بالفحم الخشبيّ، وفي مكان قريب آلة تبريد بالضغط تضخّ في داخل العرفة هواء مثلّجًا وقاتلًا. كانت طريقة التبريد تلك جديدة نسبيًّا، وقد نكون أوّل مَن يُقتلون بواسطتها. لكنّني لم أجد عزاء كبيرًا في تلك الفكرة.

ظللتُ أرفض التصديق بأنّهم ينوون قتلنا، أقلّه في الحال. وتلك الفكرة هي التي جعلتني أصمّم على عدم فقدان وعيي مجدّدًا. قال إدغار مورتلايك إنّ علينا الإجابة عن بضعة أسئلة. ولا شكّ بأنّ عذابنا هذا ليس سوى مقدّمة لذلك الاستجواب، ولن يلبث أن ينتهي. وبأصابع تكاد لا تتحرّك، بحثت في جيوبي لأجد أنّ مديتي الموثوقة، أي السلاح الوحيد الذي أحمله دائمًا معي، قد اختفت. لكنّني لم أهتمّ، فلست أصلًا في حال تسمح لي باستعمالها.

لا يمكنني القول كم دقيقة مرّت. شعرتُ بأنّني أدخل نومًا عميقًا ينفتح تحتي كهاوية. وعلمت أنّني إذا أغمضت عينيّ فلن يمكنني فتحهما ثانية أبدًا، لكنّ الأمر كان أقوى منّي. فقد توقّفتُ عن الارتجاف، وبلغت حالة غريبة أبعد من البرد وانخفاض حرارة الجسد. ولكن حين شعرتُ بنفسي أنجرف، فُتح الباب وظهر رجل، لم أرَ منه سوى طيف في الضوء المرتجف. كان مورتلايك، ونظر إلينا بازدراء.

– ألا تزالان معنا؟ سألنا. أفترض أنكما انتعشتما قليلًا. تعاليا أيّها السيّدان. لقد أعددنا كلّ شيء لكما. قفا! ثمّة شخص أعتقد أنّ رؤيته ستسرّكما.

لم يكن بوسعنا الوقوف، فأتى ثلاثة رجال إلى الغرفة ورفعونا، باللامبالاة عينها التي تُرفع بها الجيف. كان غريبًا أن تكون أيدي الرجال عليّ، ولا أحسّ بشيء. لكنّ مجرّد فتح الباب رفع حرارة الغرفة قليلًا، وبدا أنّ الحركة أعادت تسيير دمي الذي كاد يتجمّد. إكتشفت أنّني أستطيع السير. نظرتُ إلى جونز يقف ملقيًا بوزنه كلّه على عصاه، محاولًا استعادة شيء من كرامته، قبل أن يُدفع نحو الباب. لم يكلّم أيّ منّا إدغار مورتلايك. لمَ نهدر كلماتنا؟ سبق أن أوضح أنّه ينوي الاستمتاع بتعذيبنا وإذلالنا. كنّا في قبضته تمامًا، وكلّ ما نقوله سيعطيه الذريعة ليمعن في تعذيبنا. بمساعدة الأشقياء الذين نقلونا من المقبرة بلا شكّ،

خرجنا من برّاد اللحوم، وسرنا في ممرّ سقفه معقود، وحجارته عارية وشبيهة بحجارة القبور. كان السير صعبًا على قدمين فقدتا كلّ إحساس، فتقدّمنا متعثّرين حتّى وصلنا إلى درج يقود إلى الأسفل، أضاءته المصابيح الغازيّة. كان على حرّاسنا أن يسيروا بنا نصف محمولين وإلّا سقطنا. لكنّ الهواء كان أكثر دفئًا، لم تعد أنفاسي تتجمّد، وشعرت بالحركة تعود إلى أطرافي.

عند أسفل الدرج، امتدّ ممرّ آخر. شعرت بأنّنا بتنا على عمق كبير تحت الأرض، بسبب إحساسي بثقل الهواء والصمت الغريب الذي ضغط على أذنيّ. بدأت أسير من دون مساعدة، غير أنّ جونز واصل تقدّمه المضني، معتمدًا على عصاه. كان مورتلايك في مكان ما خلفنا، متلذّذًا بلا شكّ بما سوف يأتي. عند إحدى زوايا الممرّ وصلنا إلى مكان لافت، في غرفة طويلة في جوف الأرض، من الأرجح ألّا أحد من الذين يسيرون في الأعلى يشكّ بوجودها.

كانت جدران الغرفة من الحجارة وسقفها من الحجر المعقود، تتقابل فيها عشرات القناطر في صفّين. وفوق رؤوسنا عوارض فولاذيّة ثُبّتت بخطاطيف معلّقة بسلاسل صدئة. كما كانت الأرضيّة مرصوفة بحصى تعود إلى مئات القرون، مستهلَكة بشدّة، وفيها سكك تتلوّى وتتقاطع لتنغرز في جوف الأرض. أضاءت المكان مصابيح غازيّة تنبعث منها غشاوة نور بدت معلّقة في خواء الغرفة، وكأنّها ضباب شتويّ. وكان الهواء رطبًا وعفنًا. وُضعت أمامنا طاولتان على حمّالتيهما وفوقهما عدد من الأدوات رفضتُ أن أنظر إليها، كما رأيت كرسيّين متداعيين، أحدهما لجونز والآخر لي. كان ثلاثة رجال آخرون ينتظروننا، ما رفع العدد إلى ستّة، ليظهر أمامنا مشهد أكثر شؤمًا حتّى ممّا في مقبرة «نزهة الرجل الميت». فنحن كنّا سجينيهم، وتحت رحمتهم كلّيًا. نحن مَن كنّا الآن رجلين ميتين.

لم يتكلّم أيّ منهم، ومع ذلك سمعت أصداء... وأصواتًا بعيدة، لا يُرى مصدرها. سمعتُ قرقعة فولاذ. لا بدّ من أنّ المبنى كان رحبًا، وكنّا في زاوية منعزلة منه. فكّرت في الصياح طلبًا للنجدة، لكنّني علمت أنْ لا جدوى من ذلك. فسيستحيل على أيّ منقذ أن يعرف مصدر الصوت، ولا شكّ بأنّني سأتلقّى ضربة تقضي عليّ قبل أن أتلفّظ بكلمة واحدة.

– إجلسا!

لم يكن بوسعنا رفض الأمر الذي صدر عن مورتلايك. فيما كنّا نجلس على الكرسيّين، سمعت صوتًا غير عاديّ: دويّ سوط، وقعقعة عجلات تدور فوق الحصى، ووقع سنابك جياد. إلتفتّ لأرى مشهدًا لن أنساه أبدًا. عربة سوداء لمّاعة، يجرّها حصانان أسودان يندفعان نحونا، يقودهما حوذيّ بملابس سوداء. بدت العربة تتشكّل من قلب الظلمة، وكأنّها من روايات الشقيقين «غريم». وفي النهاية توقّفت وفُتح بابها ليخرج منها كلارنس ديفرو.

يا له من دخول عظيم لرجل صغير! وكلّ ذلك لأجل جمهور من شخصين! سار نحونا ببطء وبخطوات مدروسة، معتمرًا قبّعة عالية ومتوشّحًا رداء تظهر تحته صدرة ضيّقة من الحرير الزاهي اللون، وفي يديه الصغيرتين قفّازان كقفّازَي طفل. توقّف على مسافة خطوات قليلة، شاحب الوجه، يتفحصّنا بعينين ثقيلتَي الأجفان. لم يكن يشعر بالارتياح طبعًا إلّا في مكان كهذا. فبالنسبة إلى رجل بمثل حالته، يشكّل الشعور بأنّه مدفون تحت الأرض مصدر راحة له.

– هل تشعران بالبرد؟ سألنا بصوت رفيع مُحمّل باهتمام هازئ. ثمّ غمز بعينيه مرّتين وأضاف: دفّئوهما!

أحسست بأيدٍ تمسك بذراعيّ وكتفيّ، ورأيت ذلك يحدث لجونز أيضًا. إقترب الرجال الستّة منّا، وأمام أعين ديفرو ومورتلايك راحوا يضربوننا، متناوبين على تسديد اللكمات إلينا. لم يكن في وسعي سوى الجلوس هناك وتلقّي الضربات، وأنا أرى انفجار الوميض في عينيّ كلّما ارتطمت قبضة بوجهي. حين انتهوا شعرت بالدم يسيل من أنفي، وأحسست بمذاقه في فمي. كان جونز متقوّسًا وإحدى عينيه مغمضة، وخدّه متورّمًا. ولم يصدر عنه ولا عنّي صوت واحد أثناء تلقّي هذا العقاب.

حالما انتهى الرجال من ضربنا، وتراجعوا ليتركونا جالسين في كرسيّينا نحاول التقاط أنفاسنا، تمتم ديفرو قائلًا:

– هذا أفضل. أريد أن أوضح لكما أنّني أمقت هذا الأمر. وأكره حتّى الأساليب التي اعتُمدت لإحضاركما إلى هنا. في العادة لا أقترح اختطاف فتاة

صغيرة. وإذا كان في ما سأقوله لك تعزية، حضرة المفتّش جونز، أؤكّد لك أنّها عادت إلى والدتها. كان بوسعي أن أستغلّها أكثر، وأعذّبها أمامك. لكن مهما كان رأيك فيّ، فلست من ذلك النوع من البشر. آسف لأنّها لن ترى أباها من جديد، ولأنّ آخر ذكرياتها عنك لن تكون جميلة. لكنّني أظنّها ستنساك مع الوقت. الأطفال مرنون جدًّا ويتغلّبون على صدماتهم. أظنّنا نستطيع صرفها من أفكارنا.

كما أنّني في العادة لا أقتل ضبّاط الشرطة ورجال القانون. فهذا يعقّد الأمور كثيرًا. سكوتلانديارد تختلف كثيرًا عن بينكرتون، وقد يأتي يوم وأندم على ما أنا فاعل. لكنّكما تثيران الصعوبات في وجهي منذ وقت طويل. ما يزعجني هو أنّني لا أفهم تمامًا كيف استطعتما بلوغ هذا القدر في تحقيقكما. هذا سبب وجودكما هنا. والألم الذي عانيتماه قبل قليل ليس سوى تمهيد لما هو آتٍ. أرى أنّ كليكما يرتجف. سأشرّفكما بالافتراض أنّ ذلك بسبب الإرهاق والبرد، لا بسبب الخوف. أعطوهما بعض النبيذ!

أمر رجاله بذلك بالنبرة عينها التي استعملها ليأمرهم بضربنا. وفي الحال دُسّ في يدي كوب من النبيذ الأحمر. كما أعطي جونز كوب آخر، لم يشربه، أمّا أنا فشربته وأزال السائل الأحمر الداكن طعم دمي.

– في أسابيع قليلة فقط بلغتما قلب منظّمتي وتركتما خلفكما دمارًا وخرابًا. صديقي سكوتشي لافيل تعرّض للتعذيب والقتل، والأمر الذي لا أجد له تفسيرًا أنّ جميع أفراد منزله قُتلوا معه. عرفتُ سكوتشي رجلًا في غاية الحذر. فقد كان له في نيويورك أعداء كثر، ومع ذلك عرف كيف ينأى بنفسه. واستأجر منزلًا هادئًا في حيّ هادئ، وهذا ما يجعلني أتساءل كيف اكتشفتماه. مَن أخبركما أين يقيم؟ أُقِرّ بأنّه كان معروفًا من وكالة بينكرتون، ولا شكّ بأنّك كنت ستتعرّف إليه يا سيّد تشايس. لكن لم ينقضِ أكثر من ثمان وأربعين ساعة على وصولك إلى إنكلترا، حتّى ذهبت مباشرة إلى هايغايت. أقسم أنّني لا أفهم كيف حقّقتَ ذلك.

ظننتُ جونز سيشرح له أنّنا تبعنا الساعي بيري من مقهى رويال، لكنّه لزم الصمت. غير أنّ ديفرو أراد جوابًا. وأدركت أنّ حالنا، السيّئة آنذاك، قد تسوء أكثر بكثير إذا لم ينل جوابًا. فقلت له:

– بفضل بيلغريم.

– بيلغريم؟

– كان عميلًا يعمل لحسابي.

– جوناثان بيلغريم، قال مورتلايك بامتعاض. سكرتير شقيقي.

ظهرت الحيرة على وجه ديفرو وقال:

– هل كان يعمل لبينكرتون؟ علمنا أنّه مخبر. واكتشفنا أنّه يكذب، فجعلناه يدفع الثمن. لكنّني اعتقدت أنّه كان يعمل لحساب البروفسور موريارتي.

– إذًا فأنت مخطئ، قلتُ له. كان يعمل لحسابي.

– كان إنكليزيًّا.

– كان أميركيًّا.

– أهو مَن أعطاك عنوان سكوتشي؟ من المحتمل أنّه كان يعمل لحسابك. من المؤسف أنّنا لم نسأله عن ذلك بأنفسنا. قلت لليلاند إنّه استعجل كثيرًا في التخلّص منه. أتساءل إن كنت تحاول خداعي يا سيّد تشايس، وأودّ بصدق تحذيرك من أن تحاول ذلك. لعلّك قلّلت من تقديري لأنّك رأيتني في حالة ضعف. أمّا إذا كذبت عليّ، فسأعرف وستدفع الثمن. أليس لديك ما تضيفه؟ حسنًا لنتابع. أطلعك بيلغريم على العنوان، فذهبت إلى منزل بلايدستون. وفي تلك الليلة تمامًا قُتل سكوتشي وأفراد منزله كلّهم وهم نيام. كيف حدث ذلك؟ ولماذا حدث ذلك؟

– هذا سؤال لا نملك الجواب عنه.

– سنرى. سكوتشي لم يقل لك شيئًا. أنا متأكّد من ذلك. محال أن يقول شيئًا للشرطة. وأنا أيضًا متأكّد من أنّه لم يترك أوراقًا أو رسائل أو أدلّة تدينه. فكما قلت، كان رجلًا حذرًا. ومع ذلك، في اليوم التالي ظهرتَ في ناديّ.

– راسلني جوناثان بيلغريم من ذلك العنوان. والشرطة علمت أنّه استأجر غرفة هناك.

– كيف علموا؟ كيف اكتشفوا حتّى هويّة بيلغريم؟ هل تظنّنا هواة يا سيّد تشايس؟ أحقًّا تظنّنا تركنا الجثّة من دون أن نفتّش في جيوبها أوّلًا؟ محال أن تستطيع الشرطة الربط بيننا وبين بيلغريم، ومع ذلك فقد فعلوا. وهذا في ذاته ينبئني أنّ هناك خطبًا ما.

– ربّما عليك دعوة المفتّش لسترايد إلى اجتماعك الصغير هذا. لا شكّ عندي بأنّه سيكون مسرورًا بسرد روايته.

– لا نحتاج إلى لسترايد. أنتما لدينا. ثمّ فكّر ديفرو قليلًا وأضاف: بعد أربع وعشرين ساعة فقط، وجدناكما في طريق تشانسري في موقع عمليّة سطو مضى على إعدادها أسابيع، وتوقّعت منها أن تعود عليّ بآلاف الجنيهات ربحًا. ولا أعني فقط ممتلكات الطبقات الأغنى في لندن، بل أسرارها أيضًا. ومن جديد أحاول أن أضع نفسي مكانكما. كيف علمتما؟ من أخبركما؟ أهو جون كلاي؟ لا أظنّ ذلك. ما كان ليملك الجرأة على ذلك. هل هو سكوتشي؟ ذلك مستحيل! كيف وصلتما إلى هناك؟

– صديقك لافيل ترك رسالة في مفكّرته.

هذه المرّة، كان جونز هو مَن أجاب، بكلمات خرجت من بين أسنانه المتكسّرة وشفتيه الداميتين. ولم يكن قد شرب نبيذه بعد.

– لا! لن أقبل ذلك، حضرة المفتّش جونز. ما كان سكوتشي ليكون بهذا الغباء أبدًا.

– أؤكّد لك أنّ ذلك ما حدث.

– هل ستظلّ تؤكّد لي ذلك بعد نصف ساعة؟ سنرى. كنتما مسؤولين عن فشل تلك العمليّة، وكنتُ آنذاك مستعدًّا لقبول ذلك. فهي في النهاية ليست إلّا عمليّة، من بين عمليّات كثيرة. لكنّ ما لا يمكنني القبول به، وما يجب تفسيره هذا المساء، هو دخولكما مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. كيف وصلتما إلى هناك؟ ما الذي قادكما إليّ؟ من أجل سلامتي مستقبلًا في هذا البلد، يجب أن أعلم. هل تسمع ما أقوله لك، حضرة المفتّش جونز؟ لهذا تكبّدتُ هذا

العناء كلّه لإحضارك إلى هنا. أتيت لمواجهتي في منزلي، واستغللت مرضي وأذللتني. لا أقول إنّني أنوي معاقبتك على ذلك، لكن عليّ اتّخاذ خطوات لأضمن عدم تكرار ذلك أبدًا.

– أنت تكثر من الثقة بقدراتك، قال له جونز. العثور عليك كان سهلًا. الدرب من مايرنغن إلى هايغايت ثمّ إلى مايفير فمقرّ البعثة الدبلوماسيّة كان واضحًا، وبوسع مَن يشاء أن يتبعه.

– وإذا ظننتنا سنطلعك على أساليبنا، يمكنك الذهاب إلى الجحيم، أضفتُ قائلًا. لماذا علينا أن نكلّمك يا ديفرو؟ فأنت تنوي قتلنا في كلّ حال. لماذا لا تقتلنا وتنتهي من الأمر؟

ساد صمت طويل. خلال كلّ الوقت الذي مرّ، كان مورتلايك يحملق بنا بكراهية صامتة فيما وقف الرجال الآخرون حولنا غير آبهين بالنقاش الدائر.

– حسنًا، فليكن، قال ديفرو وهو يلوي الإصبع الوسطى في قفّازه. ثمّ تدلّت يداه على جانبيه، وبدا وكأنّه يشعر بالحزن لما سيقوله. وأضاف: هل تعرفان أين أنتما؟ تحت سميثفيلد، وهو أحد أكبر أسواق بيع اللحوم بالجملة في العالم. هذه المدينة وحش مفترس يقتات باللحوم إلى حدّ لا يمكن تصوّره. واللحوم تأتي إليه كلّ يوم من كلّ أنحاء العالم. لحوم ثيران، وخنازير، وأغنام، وأرانب، وديكة، ودجاج، وحمام، وديوك روميّة، وإوزّ. تجتاز آلاف الكيلومترات من إسبانيا وهولندا، ومن أماكن أبعد بكثير، أي من أميركا وأوستراليا، ونيوزيلندا. نحن هنا على أطراف السوق، ولا أحد يمكنه سماعنا، أو إزعاجنا. لكن القصابين وصلوا إلى مكان لا يبعد كثيرًا من هنا، يرتدون قمصانهم القصيرة الأكمام ومآزرهم، بانتظار أن تمتلئ عرباتهم وسلالهم. محطّة سنوهيل قريبة من هنا. نعم، للسوق محطّة قطار الأنفاق الخاصّة به. ولن يلبث القطار الأوّل أن يصل، آتيًا مباشرة من رصيف دبتفورد. وسيتمّ إفراغه هنا. خمسمئة طنّ من اللحوم كلّ يوم. تلك الحيوانات كلّها تُقطّع لتصبح ألسنة، وأذيالًا، وكِلى، وقلوبًا، ومؤخّرات، وخاصرات وبراميل لا تحصى من الكروش.

لماذا أخبركما هذا؟ لأنّ هذا الموضوع يثير اهتمامي شخصيًا وسأقول لكما لماذا، قبل أن أدعكما لقدركما. هاجر والداي من أوروبا، لكنّني أمضيت

طفولتي في حيّ المسلخ في شيكاغو، وأنا أتذكّره جيّدًا. كان منزلي في شارع ماديسون، بالقرب من سوق الثيران، ومسالخ الماشية. لا أزال أتذكّر كلّ شيء حتّى الآن... المرافيع العاملة بطاقة البخار، وعربات التبريد، والقطعان الهائلة العدد التي تُساق إلى الحظائر، بعيونها الجاحظة خوفًا. كيف يمكنني أن أنسى؟ لقد سيطر سوق اللحوم على حياتي. الدخان والروائح كانت في كلّ مكان. وفي حرّ الصيف، كان الجوّ يمتلئ بعشرات الآلاف من الذباب، ويتحوّل لون النهر المحليّ إلى الأحمر. فالقصّابون لم يكونوا يعبأون بكيفيّة التخلّص من البقايا. كان هناك ما يكفي من اللحم لإطعام جيش! وأقول ذلك بالمعنى الحرفيّ للتعبير، لأنّ معظم الإنتاج كان يُرسل لإطعام جيش الاتّحاد الذي خاض آنذاك الحرب الأهليّة.

لن يفاجئكما أن تعرفا أنّني نفرت في صباي من أكل اللحم. ومنذ أن بات بوسعي اتّخاذ قراري بنفسي، أصبحت ما بات يُعرَف الآن بالشخص النباتيّ. ذلك التعبير بدأ هنا في إنكلترا. كما أنّ طفولتي مسؤولة عن الحالة التي أعانيها. فقد كنت أشاهد كوابيس عن حيوانات عالقة في زرائبها، تنتظر فظائع المسلخ. كنت أرى عيونها تحملق بي عبر القضبان. وبطريقة ما، انتقل خوفها إليّ. وخلت في عقلي الصغير أنّ الحيوانات لا تكون في أمان إلّا خلف القضبان، وأنّها ستُذبح حالما تخرج من أقفاصها. وهكذا بتّ أخشى بدوري الأماكن المفتوحة، والعالم الخارجيّ. إعتدت في طفولتي أن أغمر رأسي بالأغطية حتى أستطيع النوم. وبطريقة ما، لم أستطع الخروج من تحت تلك الأغطية قطّ.

أسألكما التوقّف برهة للتفكير في العذاب والوحشيّة اللذين تواجههما الحيوانات لمجرّد إشباع شهيّتنا. وأنا جادّ في ما أقول، لأنّ للأمر تأثيرًا على مستقبلكما القريب. دعاني أريكما...

ثمّ سار إلى الطاولتين، وأشار إلى الأدوات المعروضة فوقهما. لم أستطع ألّا أنظر إلى المناشير، والسكاكين، والخطاطيف، والقضبان الفولاذيّة، وقضبان الوشم التي بُسطت للنيل منّا. وأضاف يقول:

– الحيوانات تتعرّض للضرب، والسياط، والوشم، والخصي، والسلخ، والرمي في المياه المغليّة. وأحيانًا قبل أن تموت. كما تُفقأ عيونها، وتعامَل

بوحشيّة، وفي النهاية تُعلَّق ورؤوسها إلى الأسفل لتُقطع أعناقها. وهذا كلّه سيحدث لكما إذا لم تخبراني ما أريد معرفته. كيف عثرتما عليّ؟ كيف عرفتما هذا القدر كلّه عن عملي؟ لحساب مَن تعملان في الواقع؟ ثمّ رفع يده وأضاف: أنت، حضرة المفتّش جونز، تعمل في سكوتلانديارد. وأنت، سيّد تشايس، مع بينكرتون. لكنّني تعاملت مع كلتا المؤسّستين في الماضي، وأعرف أساليبهما. أنتما مختلفان. خالفتما الأعراف الدوليّة باختراق حرمة مقرّ بعثة دبلوماسية، وقد بدأت أتساءل إلى أيّة جهة من القانون أنتما في الحقيقة. إستجوبتما سكوتشي لافيل، وفي اليوم التالي قُتل. إعتقلتما ليلاند مورتلايك، وبعد ثوانٍ مات بسهمٍ مسموم في عنقه.

أجازف كثيرًا في معاملتكما على هذا النحو، وأتمنّى لو أنّ الأمر كان مختلفًا، صدّقاني. قبل كلّ شيء، أنا شخص براغماتيّ، وأعرف أنّ قوى تطبيق القانون في إنكلترا كما في أميركا، ستضاعف من جهودها بعد موتكما. لكنّني لا أملك خيارًا. يجب أن أعلم. والأمر الوحيد الذي يمكنني تقديمه لكما، إذا تعاونتما وأخبرتماني الحقيقة، هو نهاية سريعة بلا ألم. حين يُغرز النصل الأدقّ في عمود الثور الفقريّ، يقتله في الحال. يمكن القيام بالأمر نفسه معكما، ولا حاجة إلى العنف. أخبراني ما أريد معرفته، وسيكون الأمر أسهل كثيرًا بالنسبة إليكما.

ساد صمت طويل، وسمعت في البعيد قرقعة الفولاذ، لكنّها ربّما تأتي من مسافة بعيدة، فوق الطريق أو تحته. كنّا وحيدين تمامًا، يحيط بنا ستّة رجال يستعدّون لإنزال عذاب لا يوصف بنا. ما كان الصراخ ليفيدنا. وإذا ما سمع أحد ما بالصدفة صوتنا، فقد يظنّه لحيوانات تُذبح.

– لا يمكننا أن نخبرك ما تريد معرفته، أجاب جونز. لأنّ ما تجزم به بُني على افتراض خاطئ. أنا ضابط في الشرطة البريطانيّة، وتشايس أمضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته يعمل في وكالة بينكرتون. لقد تتبّعنا أثرًا، وإن كان غريبًا، قادنا إلى مقرّ البعثة الدبلوماسيّة وتشانسري لاين. ربّما لك أعداء تجهل وجودهم، وهم مَن قادونا إليك. كما أنّك نفسك كنت قليل الحذر. فلو لم تراسل البروفسور موريارتي في الأساس، لما شرعنا في تحقيقنا أبدًا.

– لم أراسله.

– قرأتُ الرسالة بعينيَ.

– أنت تكذب.

– لماذا سأكذب؟ لقد أوضحت لي تمامًا ما ينتظرنا. فماذا سأكسب بالخداع؟

– لعلّ إدغار هو من كتب الرسالة أو ليلاند مورتلايك، قلت مقاطعًا. أو ربّما سكوتشي لافيل. لكنّها لم تكن سوى خطأ من أخطاء كثيرة ارتكبتَها أنت. أنت في موقع القوّة الآن، إفعل بنا ما شئت، لكنّ آخرين سيأتون بعدنا. إنتهى أمرك، فلماذا تتظاهر بعكس ذلك؟

نظر إليّ ديفرو نظرة فضول، ثمّ التفت إلى جونز، وقال:

– أنت تحمي شخصًا ما، حضرة المفتّش جونز. لا أعرف مَن هو، ولا لماذا أنت مستعدّ لتلقى كلّ هذا العذاب مكانه. لكنّني أؤكّد لك أنّني أعرف ذلك. كيف استطعتُ برأيك البقاء كلّ هذه المدّة، من دون أن يطالني القانون أو يعيقني خصومي الذين يترقّبون سقوطي؟ حدسي يقول لي إنّك تخدعني.

– أنت مخطئ! صحت به، وأنا أقفز عن كرسيّي.

باغتت قفزتي تلك مورتلايك والآخرين الذين أنعسهم خطاب ديفرو الطويل والوهن الذي بدا علينا. وقبل أن يستطيع أحد اعتراضي، رميت بنفسي على ديفرو، قابضًا بإحدى يديّ على صُدرته الحريريّة، وبالأخرى على عنقه. للأسف لم أستطع الوصول إلى أحد السكاكين الموضوعة على المائدة. لكنّني مع ذلك جعلته يهوي أرضًا، وأنا أضغط على خناقه حين أبعدتني عنه عدّة أيدٍ. وأحسست بضربة هراوة تصيب جانب رأسي، لكنّها لم تُفقدني الوعي. بعد قليل اصطدمت قبضة أحدهم بخدّي، وأُعِدتُ إلى كرسيّ وأنا أشعر بالدوار وبالدم يسيل مجدّدًا من أنفي.

وقف كلارنس ديفرو بوجه شاحب غضبًا. لا شكّ بأنّه لم يتعرّض إلى هجوم كهذا قطّ، وخصوصًا أمام رجاله. ثمّ قال بصوت مضطرب:

– هذا يكفي! كنت أرجو أن نتصرّف كسادة نبلاء، لكنّ كلّ عمل بيننا انتهى الآن، ولن أبقى لأتفرّج عليكما تتمزّقان. مورتلايك! إفعل ما عليك فعله. ولا تدعهما يموتان قبل أن تسمع منهما الحقيقة، ثمّ أفِدني.

– مهلًا...! صاح جونز.

لكنّ ديفرو تجاهله، وعاد إلى العربة. شدّ السائق الأعنّة بقوّة فاستدار الجوادان، ثمّ ضربهما بالسوط لتتوارى العربة في النفق، تمامًا كما أتت.

سار مورتلايك إلى الطاولة، وأخذ وقتًا طويلًا في تلمّس الأدوات. وأخيرًا اختار ما بدا كموسى الحلّاقين. فتحها بحركة سريعة لتظهر شفرة مسنّنة غريبة، رفعها إلى الضوء، بينما اقترب منّا رجال المقبرة الستّة، ثمّ قال:

– حسنًا. لنبدأ.

الفصل التاسع عشر

العودة إلى الضوء

بعد الضرب العنيف الذي نلته، بتّ عاجزًا عن الحراك. لم يكن بوسعي سوى الجلوس والنظر إلى مورتلايك يتلاعب بالموسى بين رؤوس أصابعه، ويرفعها أمام عينيه وكأنّما ليتأمّل جمالها. لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا العجز قطّ. وفي تلك اللحظة أدركتُ أنّني راهنت كثيرًا على قدراتي، وأنّ كلّ مشاريعي وطموحاتي على وشك أن تبلغ نهاية دامية. لقد انتصر كلارنس ديفرو. تعزّيت قليلًا بحقيقة أنّه شعر بأصابعي حول عنقه لفترة وجيزة. لكنّ أثرها سيزول قبل وقت طويل من بلوغه أمان مقرّ البعثة الدبلوماسيّة، وسأكون حينذاك وسط دوّامة من الألم. شعرت بأيدٍ تسقط ثقيلة على كتفيّ. كان رجلان من رجال مورتلايك قد اقتربا وأحاطا بي، وأحدهما يحمل حبلًا، فيما أمسك الآخر بمعصمي يستعدّ لتقييدي.

لكنّ المفتّش جونز تكلّم آنذاك، وقال بصوت أدهشني هدوؤه:

– مهلًا! أنت تضيّع وقتك يا مورتلايك.

– أتعتقد ذلك؟

– سنخبرك بكلّ ما يريد سيّدك معرفته. لا حاجة إلى هذا التصرّف القذر وغير الإنسانيّ. لقد اتّضح لنا إنّنا سنموت هنا، فماذا سنكسب من بقائنا صامتين؟ سأصف لك، خطوة فخطوة، الرحلة التي قادتنا إلى هنا. كما أنّ صديقي السيّد تشايس سيؤكّد كلّ كلمة أقولها. لكنّك ستجد أنّ ما سأقوله

لا قيمة له. وسحب جونز عصاه إلى حضنه، وكأنّها قد تشكّل حاجزًا بينه وبين معذّبيه. وأضاف: لا أسرار لدينا. ومهما حططتَ من نفسك في عينَي الله، فإنّك لن تكتشف شيئًا يفيدك.

فكّر مورتلايك قليلًا ثمّ أجاب:

– يبدو أنّك لا تفهم، حضرة المفتّش جونز. أنت تملك معلومات وأنا متأكّد من أنّك ستبوح بها. لكنّ تلك لم تعد المسألة الأساسيّة. فشقيقي ليلاند مات وهو في عهدتك. وحتّى لو كنت تجهل قاتله تمامًا، فأنا أحمّلك مسؤوليّة موته وسأجعلك تدفع الثمن. قد أبدأ باقتلاع لسانك. إلى هذه الدرجة لا أبالي بما لديك لتقوله.

– في هذه الحال، أخشى أنّك لا تدع لي خيارًا.

وأدار جونز العصا حتّى بات طرفها في اتّجاه مورتلايك، ورأيتُ أنّه فكّ رأس الغراب على القبضة لتظهر تحتها ماسورة جوفاء. حمل العصا بيد، وأدخل سبّابة اليد الأخرى في الماسورة وأدارها. وفي الحال سمعت صوت انفجار يصمّ الآذان في ذلك المكان المقفل. وظهرت فجوة كبيرة حمراء في معدة مورتلايك، وخرجت من ظهره كتل من الدم والعظام. مزّقت الرصاصة جسده وكادت تشطره إلى نصفين. أفلت الموسى من يده وبقي جامدًا قليلًا، وذراعاه تهويان إلى الأمام، وكتفاه تتقوّسان. تصاعد خيط دخان صغير متلويًا من طرف العصا التي اكتشفتُ أنّها كانت تخفي سلاحًا عبقريًا. تأوّه مورتلايك، وظهر الدم فوق شفته قبل أن يسقط على الأرض بلا حراك.

لكنّ السلاح لم يكن فيه سوى رصاصة واحدة.

– الآن! صاح جونز.

وهبّ كلانا من كرسيّينا معًا، فيما كان الأشقياء الستّة لا يزالون مذهولين. وبسرعة لافتة وحيويّة لم أتوقّعهما قطّ من جونز، سدّد هذا الأخير بعصاه التي لم تعد سلاحًا ناريًا ضربة شديدة إلى وجه أقرب الرجال إليه، فرمى به إلى الخلف، والدم يتدفّق من أنفه. أمّا أنا فأمسكت بالحبل الذي كان سيُستعمَل لتقييدي، وجذبته نحوي، ثمّ ضربت بمرفقي عنق مهاجمي

الذي فقد توازنه، ولم يستطع الدفاع عن نفسه فخرّ على ركبتيه وصوت غرغرة يخرج من حلقه.

ظننت لوهلة أنّنا نجحنا وسنتمكّن من الهروب ممّا بدا أنْ لا مهرب منه. لكنّ خيالي الجامح والانقلاب المفاجئ للوضع شوّشا تفكيري السليم. فقد بقي أربعة مجرمين لم يتعرّضوا للأذى، كما أنّ اثنين منهم قد أخرجا مسدّسين. كذلك كان الرجل الذي ضربه جونز في وجهه مسلّحًا، ولم يبدُ عليه أنّه مستعدّ للتعقّل. وقفوا حولنا في نصف دائرة متأهّبين لإطلاق النار. لم يكن بوسعنا الوصول إليهم أو فعل أيّ شيء لمنعهم من ذلك.

وآنذاك انطفأت الأنوار.

إرتجفت المصابيح الغازيّة الممتدّة في خطوط طويلة في كلّ اتّجاه، وانطفأت وكأنّما أخمدتها هبّة هواء مفاجئة. وبعدما كنّا على وشك الموت، غرقنا في ظلام دامس. أظنّ أنّ جزءًا منّي تساءل عمّا إذا لم أُقتل فعلًا، فلا شكّ بأنّ الموت لن يختلف كثيرًا عن هذا. لكنّني كنت حيًّا وأتنفّس، ولا شكّ بأنّ قلبي كان يخفق. لكنّني في الوقت عينه كنت منفصلًا عن كلّ ما حولي وعاجزًا عن رؤية يديّ حتّى.

– تشايس!

سمعت جونز يناديني، وشعرت بيده على كمّي، تشدّني إلى الأرض. والواقع أنّه بذلك قد أنقذ حياتي. فما كدت أنحني، حتّى فتح رجال عصابة مورتلايك النار. رأيت الضوء ينبعث من فوهات المسدسات، وشعرت بالرصاصات تمرّ فوق رأسي وكتفيّ لتصطدم بالجدار خلفي. ولو بقيت واقفًا، لمزّقتني إربًا. كما كنت محظوظًا بأن أتفادى ارتدادها عن الجدار.

– من هنا! همس جونز.

كان متقوقعًا القرفصاء بقربي، وراح يسحبني معه وهو لا يزال متمسّكًا بذراعي، بعيدًا عن الرجال وعن أدوات التعذيب الموضوعة فوق الطاولتين، إلى أعماق الفراغ الكبير الذي أصبح عليه عالمنا. دوّى الرصاص للمرّة الثانية، لكنّني شعرت هذه المرّة بأنّه كان أبعد، وعرفت أنّ احتمالات إصابتنا تتضاءل بمقدار ما كنّا نبتعد عن المكان. لامست يدي شيئًا، وكان جدار الممرّ الذي

رأيته خلفنا حين ألقى ديفرو خطابه، والذي دخلنا عبره في البداية. وقفت، وجونز يتقدّمني، متحسّسًا الحجارة بيديّ. لم أكن أبصر بعد، لكنّني أيقنت أنّني إذا بقيت بقرب الحائط، فسيقودني إلى الخارج.

كان ذلك مجرّد وهم. فقبل أن نستطيع التقدّم خطوة جديدة، شعّ ضوء أصفر انبسط على الأرض وأنار المنطقة المحيطة بنا. إلتفتّ بخوف لأرى مورتلايك ملقىً على الأرض، وبجانبه الرجل الملتحي والمكسور الأنف الذي كان أوّل مَن خاطبنا في المقبرة. كان يحمل مصباحًا زيتيًا أجهل كيف نجح في إضاءته. برغم جهودنا، لم نكن قد ابتعدنا سوى مسافة قليلة جدًّا، وغير كافية. ومجدّدًا بتنا أمام أعينهم، فصاح بالآخرين:

– ها هما! أقتلوهما!

مرّة جديدة رأيت المسدّسات متّجهة نحوي، فاستسلمت منتظرًا نهايتي. لكنّ الموت لم يكن من نصيبنا نحن.

أصيب الرجل الملتحي بشيء غير مرئيّ في رأسه. فانفجر جانب من جمجمته، وتدفّق الدم فوق كتفه. ثمّ هوى جانبًا وهو لا يزال يمسك بالمصباح، الذي ألقى ظلالًا مشوّهة على الخمسة الآخرين. لم تُتح لهم الفرصة لإطلاق النار، وحين بلغ رفيقهم الأرض، كان الأوان قد فات، وانطفأ الضوء من جديد. لقد قُتل الرجل برصاصة. لكن مَن أطلقها؟ ولماذا؟ لم يكن بوسعنا الإجابة عن ذينك السؤالين آنذاك. سواء في الظلام أو في الضوء، كنّا في خطر الموت، وسنبقى كذلك حتّى نعود إلى أمان الشارع مجدّدًا.

إستغلّينا الارتباك الذي وقع خلفنا، فمهاجمونا لم يدروا ما حدث، وهرعنا كيفما اتّفق للخروج من ذلك المكان. تصارعت في ذهني فكرتان متناقضتان. فقد كنت أريد الخروج بأسرع ما أستطيع، لكنّ الظلام الدامس جعلني أيضًا أخشى الاصطدام بعائق ما. سمعتُ جونز في مكان ما بقربي، لكنّي لم أدرِ إذا كان قريبًا أو بعيدًا. هل كنت أتخيّل أم أنّ الأرض راحت ترتفع قليلًا تحت قدميّ؟ ذلك كان أساسيًّا. فكلّما علونا أكثر، كبر الاحتمال بأن نصل إلى مستوى الشارع حيث سنكون بأمان.

آنذاك رأيت على مسافة نحو أربعين مترًا ارتجاف شمعة أضاءها عود ثقاب. كيف يُعقل هذا؟ مَن أشعلها؟ توقّفت وناديت جونز، بكلمة واحدة.

– هناك!

كانت تلك المنارة الصغيرة أمامنا مباشرة، وقد أضيئت خصيصًا لإبعادنا عن الخطر. لم يكن لديّ أيّ إدراك للمسافة، فلم أكن أعرف أين أقف. كنت واثقا من أنّ الشمعة وُضعت هناك لمساعدتنا. لكن حتّى لو أنّ الشيطان نفسه هو مَن أشعلها، فأيّ خيار كان لدينا؟ سمعنا خطوات مطاردينا تقترب منّا، فأسرعنا الخطى. دوّى طلق ناريّ آخر، ومن جديد ارتدّت الرصاصة عن الجدار، وشعرت بغبار الحجارة يلسع عينيّ. صاح أحدهم بشتيمة. ثمّ سمعت صوتًا آخر بعيدًا، لكنّه يقترب منّا بسرعة. كان صوتًا ضخمًا، يشبه اللهاث الثقيل، ترافقه قعقعة معدنيّة، وشممتُ رائحة احتراق. وشعرت بالهواء حولي دافئًا ورطبًا.

كان قطار أنفاق بخاريّ يتّجه نحونا في طريقه إلى محطّة سنوهيل، التي ذكرها ديفرو. لم أستطع رؤية القطار لكنّ الضجيج أخذ يرعد أكثر مع كلّ ثانية تمرّ. وكان الظلام كستارة أمام عينيّ أتلهّف لتمزيقها. شعرت برعب مفاجئ من أنّني ربّما تهت وأقف فوق السكّة، ولن أرى القاطرة إلّا حين تسحقني. لكنّ القطار انعطف، وبرغم أنّني لم أرَه بعد – لم يكن بوسعي سوى الشعور بحجمه الهائل – أحاط بي فجأة شعاع من النور، مضيئًا القناطر والسقف المعقود بصورة تكاد تكون خرافيّة، لا تشبه سوق اللحوم في لندن، بل مملكة غير طبيعيّة تسكنها أشباح ووحوش.

وقف جونز بجانبي، وعرف كلانا أنّ القطار سيظهرنا أمام مطاردينا. كان القطار على سكّة موازية للممرّ الذي وقفنا عليه، وتفصل بيننا سلسلة من القناطر. ولدى مروره أخذ الضوء يتناوب محدثًا تأثيرًا غريبًا، تُختصر فيه كلّ حركة إلى سلسلة من الصور الجامدة كتلك الصور التي قد نراها في صندوق الفرجة في مهرجان كوني آيلاند. في الوقت عينه كان الدخان يتصاعد من مدخنة القطار، والبخار ينبعث من أسطواناته، ويدوران متعانقين كشبحَي عاشقين. القطار نفسه كان شيئًا خياليًّا. فكلّما اقترب أكثر، بدا أكثر إثارة للخوف. ولئن كان المكان حيث نحن مملكة، فهذا بلا شكّ هو التنّين.

لم أستطع ألّا ألتفت إلى الوراء. فرأيت أربعة رجال يقفون خلفي على مسافة قريبة جدًّا، بعدما تقدّموا بسرعة كبيرة جدًّا منّي ومن جونز، مستفيدين من الضوء غير المنتظَر. كان القطار سيتجاوزنا في أقلّ من نصف دقيقة، ولن يكون بوسعهم الإجهاز علينا إلّا حين يدلّهم ضوؤه إلينا. رأيتهم يركضون إلى الأمام، فيظهرون في ثانية ليختفوا في الثانية التي تليها، وسط هذا العالم الأبيض والأسود الرهيب حيث شعاع الضوء يظهر متقطّعًا عبر القناطر. وكانت الأدخنة تهدّد بخنقنا كلّنا.

صرخ جونز يقول لي شيئًا، لكنّني لم أسمع كلماته. وفجأة بات الرجال الأربعة ثلاثة. فأحدهم هوى إلى الأمام، بصورة لا تفسير لها، والدم يتفجّر من كتفيه. كاد القطار يصل إلى حيث نحن. ثمّ ظهر شخص من خلف عمود حجريّ. إنّه بيري وقد أضاءت وجهه ابتسامة شيطانيّة واتّقدت عيناه. ركض نحوي حاملًا في يده سكّين جزّار ضخمة. إرتميت أرضًا، لكنّني لم أكن هدفه. كان أحد رجال مورتلايك قد تسلّل نحوي، واقترب منّي كثيرًا. فغرز الفتى النصل في حلقه، ثمّ أخرجه ليغرزه من جديد. سال الدم كستارة، وتناثر على ذراعيه. كان بيري قريبًا منّي وسمعتُ صوت ضحكته الحادّ. وظهرت في فمه المنفرج أسنان بيضاء لمّاعة. فجأة ملأ هدير القاطرة أذنيّ، ولم أعد أتنفّس الهواء، بل فقط الفحم والبخار. كان حلقي يحترق.

حلّ الظلام. كان القطار قد مرّ، ولم أعد أسمع سوى قعقعة العربات تختفي الواحدة خلف الأخرى.

– تشايس! ناداني جونز. أين أنت؟

– هنا

– علينا الخروج من هذا المسلخ.

كانت الشمعة ترتجف، فمضينا إليها ونحن لا نعرف ماذا نترك وراءنا. خلتني سمعت صوتًا مكتومًا لرصاصة تصل إلى هدفها. لم تكن رصاصة من مسدّس، بل من بندقيّة ضغط. كان بيري هناك. سمعت صرخة تلتها غرغرة رهيبة فيما اخترق نصله لحم أحدهم. أمسك جونز بذراعي وركضنا إلى الأمام ونحن نكاد نختنق والدموع تسيل من عيوننا. تيقّنّا من أنّ الأرض ترتفع،

بزاوية أقسى مع كلّ خطوة. وصلنا إلى الشمعة التي وُضعت عمدًا عند إحدى الزوايا. نظرنا فرأينا السماء التي أنارها ضوء القمر. كان درج حديديّ يؤدّي إلى فتحة. فبذلنا آخر ما نملك من قوّة، وتقدّمنا مترنّحين لنصعد نحو ضوء الفجر المنبلج.

لم يلحق بنا أحد. خلّفنا وراءنا فظائع ذلك العالم الجوفيّ. من المحتمل أنّ رجال ديفرو كلّهم قد هلكوا، لكن حتّى لو نجا بعضهم، فلم يعد بوسعهم أن يفعلوا الكثير الآن، لأنّنا بتنا محاطين بأشخاص آخرين، من قصّابين، وعمّال تسليم، وموظّفي السوق، ومفتّشين، وبائعين وشارين، يصلون في صمت إلى عملهم. ثمّ رأينا شرطيًا فأسرعنا نحوه.

– أنا المفتّش أثيلني جونز من سكوتلانديارد، قال جونز لاهثًا. لقد تعرّضتُ لمحاولة قتل. إستدعِ تعزيزات. أنا بحاجة إلى حمايتك.

الله وحده يعلم كيف كان مظهرنا. لا بدّ من أنّنا كنّا منهكين ويائسين تغطّينا الكدمات والدماء، وملابسنا ممزّقة، ووجهانا تغطّيهما القذارة. أمعن الشرطيّ النظر فينا وقال:

– مهلًا، مهلًا يا سيّدي. ما الأمر؟

كان لون السماء قد أصبح ورديًّا عندما عدنا إلى كامبرويل. رافقتُ جونز إلى منزله، فلم يكن بوسعي العودة إلى فندقي قبل أن ندرس نتيجة أحداث هذه الليلة. لم نتبادل إلّا القليل من الكلام. وحين بلغنا هضبة دنمارك هيل، جالسين معًا في العربة التي اقتنع الشرطيّ أخيرًا بتأمينها، إلتفت إليّ جونز وقال:

– رأيته؟

– تعني بيري، الفتى الذي قادنا إلى منزل بلايدستون؟

– نعم. كان هناك.

– صحيح، كان هناك.

– ما زلت لا أفهم يا تشايس...

– ولا أنا يا جونز. في الماضي حاول قتلك في سكوتلانديارد. أمّا الآن فقد بدا وكأنّه يريد إنقاذك.

– هو والرجل الذي كان معه. لكن من هما وكيف عثرا علينا؟

أغمض جونز عينيه مستغرقًا في التفكير. كان على حافّة الإنهاك، ولولا الشكوك التي افترسته لاستسلم للنوم. فقد كنا نعتمد فقط على كلمة ديفرو بأنّ بياتريس أعيدت إلى المنزل، لكن لا سبب يجعلنا نصدّق ما يقوله. تابع جونز يقول:

– أنت لم تخبرهم عن بيري. حين سألنا ديفرو كيف وجدنا طريقنا إلى هايغايت، لم تخبره بأنّنا تبعنا الفتى من مقهى رويال.

– لماذا عليّ أن أخبره الحقيقة؟ قلت له. بدا من الأفضل أن أتركه في حال شكّ. كما كان أهمّ بالنسبة إليّ أن أسمعه يعترف صراحة بجريمة قتل جوناثان بيلغريم. وقد اعترف بها. طبعًا، كنّا نعرف دائمًا أنّه مسؤول عن ذلك، لكنّنا الآن سمعنا الاعتراف بآذاننا ويمكننا الشهادة بالأمر في المحكمة.

– إذا استطعنا أن نسوقه إلى محكمة.

– سنفعل ذلك يا جونز. بعد هذا المساء، لن يجد الأمان في أيّ مكان.

وصلنا إلى باب منزل جونز، لكنّه لم يكن بحاجة إلى فتحه. فإلسبث التي رأت عربتنا خرجت مسرعة، مسدلة الشعر وحول كتفيها وشاح. ثمّ ارتمت بين ذراعي زوجها.

– أين بياتريس؟ سألها جونز.

– نائمة في غرفتها. كدت أموت قلقًا عليك.

– أنا هنا. نحن بأمان.

– لكنّك مصاب! يا لوجهك المسكين! ماذا حدث؟

– ليس بالأمر المهمّ. نحن على قيد الحياة، وهذا هو المهمّ.

دخلنا نحن الثلاثة المنزل. كانت النار تشتعل في المدفأة، وانهمكت الخادمة في إعداد الفطور. لكنّني غفوتُ في أريكة قبل وقت طويل من وصول الطعام.

الفصل العشرون

الحصانة الدبلوماسيّة

بدا لي غريبًا أن تُختصَر القضيّة كلّها، وأعني بحثي الطويل والمضني عن أكبر مجرم من أميركا، بلقاء رسميّ جمعنا بثلاثة رجال في غرفة. عدنا إلى مقرّ البعثة الدبلوماسيّة في شارع فكتوريا، باسمينا الحقيقيّين هذه المرّة، وبمعرفة كاملة من قائد الشرطة. بل أنّ إذن الدخول أتى من مكتب وزير الخارجيّة، اللورد ساليسبوري نفسه. وهكذا ألفينا نفسينا، جونز وأنا، جالسين أمام المبعوث روبرت ت. لينكولن، ومستشاره هنري وايت، اللذين استقبلانا ليلة الحفلة. أمّا الرجل الثالث فكان تشارلز إيشام، سكرتير لينكولن، وهو شابّ صعب المراس ارتدى هذه المرّة سترة بنفسجيّة اللون ووضع ربطة عنق فضفاضة. وكان هو مَن اعتقلنا بناء على تعليمات إدغار وليلاند مورتلايك.

كنّا في غرفة من الواضح أنّها تُستخدَم كمكتبة، وفيها جداران كاملان غطّتهما الكتب، ومعظمها كتب قانونيّة ضخمة لا شكّ بأنّها لم تُقرأ قطّ. طُلي الجداران المقابلان بلون رماديّ باهت، وعُلّقت عليهما رسوم بورتريهات مبعوثين دبلوماسيّين سابقين، أقدمهم بالياقات العالية. وُضعت أمام النوافذ حواجب شبكيّة، تحجب النظر إلى شارع فكتوريا، فتساءلت عمّا إذا كان هذا ينبئ بوصول ديفرو. حين وصلنا لم يكن هناك، ولا ذُكر اسمه بعد. أقلّه كنّا متأكّدين من أنّه في مكان ما في المبنى، على افتراض أنّه عاد إليه بعدما ظهر في سوق سميثفيلد للّحوم. كان المفتش جونز قد وضع عددًا من رجال

الشرطة بملابس مدنيّة حول المبنى، يراقبون سرًّا كلّ مَن يدخل المبنى أو يغادره في خلال النهار.

سبق أن وصفت روبرت لينكولن. وبرغم ضخامة جثّته وبشاعة منظره، فقد وجدت فيه شخصًا مبهرًا حين استضاف رجال الأعمال في حفل الاستقبال الذي أقامه، كان لائقًا مع الضيوف الكثيرين الذين يرغبون في التحدّث إليه، وبارعًا في تحويل المحادثة إلى الاتّجاه الذي يريده. ولم يكن الآن، وهو جالس في كرسيّ عريض الظهر بجانب طاولة أثريّة، مختلفًا عمّا قبل. بل بدا في إطاره الشخصيّ الأكثر هدوءًا وخصوصيّة، سيّدًا لا ينازَع. لم يكن بحاجة إلى الكلام. كان يفكّر طويلًا ومليًّا قبل أن يتكلّم، وحين يفعل فبعبارات مقتضبة وفي محلّها. بدا وايت الأكثر قلقًا بين الثلاثة، فجلس جانبًا يراقبنا بعينين حذرتين جدًّا. وكان هو مَن بدأ الحوار.

– حضرة المفتّش جونز، يجب أن أسألك عمّا طرأ على ذهنك لتأتي إلى هنا منذ أيّام، باسم مزيّف، حاملًا دعوة سرقتها. أما كنت تدرك خطورة تصرّفك؟

– كان الأمر واضحًا جدًّا بالنسبة إليّ، ولا يمكنني سوى تجديد الاعتذار لك وللمبعوث. لكنّ الوضع كان ميئوسًا منه. فقد كنت ألاحق عصابة خطرة من المجرمين، وقد شفك كثير من الدماء. كما حاولوا قتلي في انفجار أدّى إلى مقتل عدد من الأشخاص.

– كيف يمكنك أن تتأكّد من أنّهم كانوا مسؤولين عن ذلك؟

– لا يمكنني ذلك يا سيّدي. أعرف فقط أنّني وتشايس لاحقناهم إلى هنا. نقلهم سائق عربة ذات عجلات أربع من سكوتلانديارد توًّا إلى هنا بعد تلك الجريمة.

– لعلّه أخطأ.

– الأمر ممكن، لكنّني لا أصدّق ذلك. فالسيّد غوثري بدا واثقًا جدًّا من نفسه. وإلّا ما كنت لأدخل بالطريقة التي دخلت بها.

– كان ذلك اقتراحي، قلت.

كنت بأسوأ حال، كما علمت أنّ منظري ليس مستحبًّا. فالعنف الذي لقيته على أيدي الأوغاد أشدّ ممّا ظننت. كان خدّي كلّه متورّمًا، وعيني

مكدومة وسوداء، وشفتاي متشقّقتين، لدرجة العجز عن الكلام. بدا جونز أفضل حالًا منّي بعض الشيء. وبرغم أناقة ملابسنا، لا شكّ بأنّنا كنّا أشبه بضحيّتَي حادث تحطّم قطار. تابعتُ أقول:

– الخطأ خطأي. أنا أقنعت المفتّش جونز بالقدوم.

– نعرف كلّنا أساليب وكالة بينكرتون، قال باستياء إيشام الذي لم يخفِ عدم تعاطفه منذ البداية. إنّهم يثيرون المتاعب، ويحاولون تجريم العمّال الكادحين لأنّهم اختاروا وبطريقة شرعيّة تمامًا أن يُضربوا.

– لا أظنّنا مذنبين بشيء ممّا ذكرتَ. بأيّة حال، لم يكن لي شأن بإضرابات عمّال سكّة حديد شيكاغو أو بأيّة إضرابات أخرى.

– هذه ليست المسألة المطروحة الآن يا تشارلي، قال لينكولن بهدوء.

– تصرّفنا بطريقة غير قانونيّة، تابع جونز يقول. أعترف بذلك. لكنّ ما جرى لاحقًا... لن أقول إنّه يبرّرنا، لكنّه على الأقلّ يثبت أنّنا كنّا على حقّ. لقد لجأ المجرم المدعوّ كلارنس ديفرو إلى هذا المكان، منتحلًا اسم كولمان دوفريس. أو لعلّ هذا هو اسمه الحقيقيّ، وديفرو هو اسمه المزيّف. في كلا الحالين، عثرنا عليه هنا. وهذا ما قاده إلى الردّ علينا بعنف غير مسبوق في كلّ سنوات عملي في الشرطة.

– لقد خطف ابنتك.

– نعم، سيّدي الوزير، قال جونز مخاطبًا المبعوث الدبلوماسيّ بلقبه الرسميّ. رجاله اختطفوا ابنتي ولها من العمر ستّ سنوات، واستعملوها طعمًا للإمساك بتشايس وبي.

– لي ابنتان، تمتم لينكولن. ومنذ فترة قصيرة فقدتُ ابنًا بنتيجة المرض. أفهم قلقك.

– ليلة أمس، وفي السراديب تحت سوق سميثفيلد للّحوم، هدّدنا كلارنس ديفرو بالتعذيب والقتل. ولم ننجُ إلّا لأنّنا نجحنا في الهروب بصورة عجائبيّة، لم نستطع حتّى الآن إيجاد تفسير لها. سنترك هذا الأمر لوقت آخر. أمّا الآن، يمكنني أن أقسم لك يا سيّدي على أنّ الرجل الذي هاجمنا والمسؤول عن سلسلة من الجرائم في بلدك وبلدي، هو عينه الرجل الذي تدعوه سكرتيرًا

ثالثًا لك. أتيت إلى هنا لأطلب، وحتّى لأطالب، بأن يُسمح لنا باستجوابه، وبسوقه إلى المحاكمة.

بعد ذلك ساد صمت طويل. كان الجميع يترقّب جواب لينكولن، لكنّه بدلًا من ذلك أشار برأسه إلى مستشاره الذي راح يداعب لحيته مفكّرًا، ثمّ توّجه إلينا قائلًا:

– أخشى أنّ الأمر ليس بالبساطة والسهولة اللتين ترغب بهما، حضرة المفتّش جونز. دعنا نضع جانبًا لبعض الوقت شهادتك الشخصيّة، وما إذا كان ممكنًا تصديقها أم لا.

– مهلًا! قلتُ وقد شعرت بالاستهجان للموقف الذي اختار اتّخاذه. لكنّ جونز رفع يده مشيرًا إليّ بالبقاء صامتًا.

– لا أقول إنّني أشكّ بكلامك، برغم أنّني أجد أنّ أساليبك، ومسألة دخولك إلى هنا، غير مستحبّة. كما أنّني أرى الإصابات التي عانيتها وشريكك، السيّد تشايس. لا. المسألة الجوهريّة هنا هي مبدأ العمل خارج الحدود. المبعوث الدبلوماسيّ هو ممثّل للدولة التي أرسلته، ومنذ نحو قرن من الزمن، أرسى طوماس ماكين رئيس المحكمة العليا في بنسلفانيا أنّ شخص الوزير المطلق الصلاحية الذي يقوم بمهمّة في الخارج حصين وغير قابل للانتهاك، وأنّ الإشارة إلى ما هو غير ذلك هي بمثابة اعتداء مباشر على قدسيّة الأمّة. كما أنّ هذه الحماية تشمل كلّ مرؤوسي المبعوث الدبلوماسيّ. وكيف لا يكون هذا؟ فإنكار الامتياز نفسه على هؤلاء سيثير صعوبات شتّى، ويقوّض في النهاية استقلاليّة المبعوث الدبلوماسيّ نفسه.

– معذرة يا سيّدي. لكنّ من المؤكّد أنّ للمبعوث الدبلوماسيّ الحقّ بنزع هذه الحصانة إذا ما رأى ذلك مناسبًا؟

– لم يسبق أن قامت الولايات المتّحدة بهذا الأمر قطّ. ونحن نعتبر أنّ على البعثة الدبلوماسيّة أن تبقى خارج نطاق القانون المدنيّ الخاصّ بالبلد حيث مركزها. إنّها بمثابة جزيرة إذا جاز التعبير. أخشى أنّ هذا المقرّ لا يطاله التحقيق الجنائيّ. يستطيع السيّد دوفريس، شأن السيّد إيشام وشأني، أن

يرفض المثول أمام أيّة محكمة مدنيّة أو جنائيّة. والواقع أنّه حتّى ولو اختار عكس ذلك، يظلّ بحاجة إلى تفويض المبعوث الدبلوماسيّ.

– إذًا فأنت تقول إنّنا لا نستطيع محاكمته؟

– هذا تمامًا ما أقوله.

– لكنّك توافق بلا شكّ على أنّ القانون الطبيعيّ وأبسط مبادئ الإنسانيّة تستوجب معاقبته على كلّ جرائمه.

– لم تقدّما إلينا دليلًا واحدًا، قال إيشام مقاطعًا. السيّد تشايس تعرّض لإصابات، وأنت أرغِمت على أن تعاني فقدان ابنتك لبعض الوقت. لكنّ شيئًا ممّا تقوله لا يطابق شخصيّة السيّد دوفريس كما نعرفه.

– وماذا لو كنت أقول الحقيقة؟ ماذا لو أخبرتُك بأنّ كولمان دوفريس يستغلّ، بغير علمك، النظام الذي شرحتَه؟ أترضيان أيّها السيّدان بالجلوس هنا وحماية رجل أتى إلى لندن ليلقي الرعب في قلوب أهلها؟

– لسنا نحن مَن نحميه!

– ومع ذلك، فهو يتمتّع بالحماية. شريكه إدغار مورتلايك كان يرتشف الكوكتيلات في هذا المكان بالذات. رأيتُ بعينيّ مورتلايك يذبح رجلًا عاكسه. وهو مَن خطف ابنتي. كما أنّ شقيقه ليلاند، شريكه في المكائد والبارد الأعصاب مسؤول عن جريمة قتل جوناثان بيلغريم، عميل وكالة بينكرتون. هل كنت لتدافع عنهما لو بقيا على قيد الحياة؟ حين أتى صديقي تشايس إلى إنكلترا، حمل معه ملفّات ملأى بالنشاطات الجرميّة التي قامت بها هذه العصابة في أنحاء أميركا كلّها. وقد رأيت تلك الملفّات وبوسعي أن أريك إيّاها. جرائم قتل وسرقة وابتزاز وسلب بواسطة التهديد... كلارنس ديفرو هو المهندس الرئيسيّ لكلّ ذلك البؤس. كلارنس ديفرو الذي هدّدنا ليلة أمس بتعذيبنا حتّى الموت، كالماشية. أعرف أنّكم تتحلّون بالشرف. وأرفض التصديق بأنّكم ستقفون في وجه الإجراءات القانونيّة الضروريّة، وتواصلون العيش وذلك الأفعوان بقربكم.

– الدليل! قال إيشام مصرًّا. سهل عليك أن تتحدّث عن الإجراءات. أنا درست القانون. Probatio vincit praesumptionem[1] ما ردّك على ذلك؟

[1] عبارة لاتينيّة تعني: «الدليل أقوى من الافتراض».

– أنت تتحدّث باللاتينيّة يا سيّدي. وأنا أتكلّم عن ابنتي التي سُرقت من بين ذراعيّ.

– إذا لم يكن بوسعنا الادّعاء عليه، ألا يمكننا على الأقلّ استجوابه؟ لا شكّ بأنّ لدينا الحقّ في مقابلته، بداخل سكوتلانديارد وبوجود أيّ محامٍ ترغب في توكيله. سنثبت لك صحّة مزاعمنا. وآنذاك، إذا لم يكن بوسعنا محاكمته هنا، يمكننا على الأقلّ العمل على إعادته إلى أميركا ليمثل أمام العدالة. المفتّش جونز على حقّ. يجب أن يكون بمثابة لعنة بالنسبة إليك. أحقًّا تشكّ بنا؟ أنت ترى الإصابات التي عاناها كلانا. ما سببها برأيك؟

لم يغب الشكّ عن محيّا تشارلز إيشام، لكنّ هنري وايت ألقى نظرة نحو لينكولن الذي توصّل إلى قرار. وسأل:

– أين السيّد دوفريس؟

– ينتظر في الغرفة المجاورة.

– أطلب منه الدخول.

كانت تلك خطوة إلى الأمام. وقف السكرتير ومضى إلى باب مزدوج، ففتحه. وما هي إلّا ثانية، وبعد محادثة هامسة ووجيزة، دخل ديفرو الغرفة. يصعب عليّ التعبير عن الرعشة الغريبة التي أحسست بها لرؤيته، ومعرفة أنّه بات عاجزًا عن أن يُلحق بي مزيدًا من الأذى. لا شكّ بأنّه بدا وديعًا وتظاهر بالتصاغر عينه الذي أبداه حين وقعت أعيننا عليه لأوّل مرّة، وكدنا ألّا نراه، ليلة الحفلة في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. بدت عليه الدهشة لوجوده وسط هذا العدد من الناس، ورمشت عيناه بعصبيّة أمام المبعوث الدبلوماسيّ ومستشاريه. كما تظاهر بأنّه لم يتعرّف إلى جونز وإليّ، ونظر إلينا وكأنّنا غريبان تمامًا. وما خلا الصُدرة الحريريّة الملوّنة عينها التي ارتداها في الليلة السابقة، بدا وكأنّه رجل مختلف تمامًا.

– نعم، سيّدي الوزير؟ قال مستفسرًا في فيما أغلق إيشام الباب.

– تفضّل بالجلوس، سيّد دوفريس.

قُرّب كرسيّ آخر، وجلس ديفرو على مسافة منّا. ثمّ سأل:

– هل لي بالسؤال عن سبب استدعائي إلى هنا، يا سيّدي؟ ثمّ نظر إلينا ثانية وقال: أعرف هذين السيّدين! كانا هنا ليلة حفلة التجارة الإنكليزيّة الأميركيّة. أحد الضيوف عرف بأنّهما منتحلا صفة، واضطررتُ إلى طردهما. ما سبب وجودهما هنا؟

– لقد قدّما مزاعم خطيرة جدًّا في شأنك، قال وايت شارحًا.

– مزاعم؟ في شأني؟

– هل لي بسؤالك أين كنت ليلة البارحة يا سيّد دوفريس؟

– كنت هنا يا سيّد وايت. أين يمكنني أن أكون؟ أنت تعلم أنّني لا أستطيع الخروج إلّا في الحالات الطارئة، وحتّى حينذاك لا يمكنني الخروج إلّا بكثير من الإعداد المتأنّي.

– هما يزعمان أنّهما التقياك في سوق سميثفيلد.

– لن أقول إنّ هذا كذب يا سيّدي. لن أقول إنّهما يسعيان للثأر لما حدث هنا منذ أسبوع. سيكون من الخطأ إصدار تلك الأحكام أمام صاحب السعادة. سأقول فقط إنّه خطأ فادح جدًّا، وإنّها حالة التباس في الهويّة. لقد خلطا بيني وبين شخص آخر.

– هل تعرف اسم كلارنس ديفرو؟

– كلارنس ديفرو؟ كلارنس ديفرو؟ والتمعت عيناه. «ك.د.!» إليك الجواب. نتشاطر الحرفين الأوّلين من اسمينا! أهذا هو سبب سوء التفاهم؟ لكن لا، لم أسمع بذلك الاسم قطّ.

إلتفت لينكولن إلى جونز يدعوه إلى الكلام.

– أتنكر أنّك احتجزتنا أمس، وأنّك ورجالك أسأتم إلينا وكدتم تقتلوننا لو لم ننجح في الهرب؟ أما أخبرتنا عن طفولتك في شيكاغو، وكرهك للّحم، والخوف الذي أدّى إلى إصابتك برهاب الساحات؟

– صحيح أنّني وُلدت في شيكاغو. أمّا بقيّة ما قيل فمحض خيال. سيّدي الوزير، أؤكّد لك...!

– إذا لم تكن هناك، فَحُلَّ ياقتك، هتفت به. واشرح لنا سبب وجود آثار الأصابع على عنقك. أنا تركتها هناك بيديّ، ويسرّني أنّني فعلت ذلك. هل تخبرنا كيف أصبت بها؟

– صحيح أنّك هاجمتَني، أجاب ديفرو. لقد أمسكتَ بخناقي. لكنّ ذلك لم يحدث في سوق اللحوم، بل هنا في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. أتيتَ إلى هنا بهويّة زائفة وتصرّفتَ بعنف حين كان عليّ أن أطردك.

– لعلّ هذا هو سبب الأمر كلّه، قال إيشام ملاحظًا. كان شديد الحماسة في دفاعه عن ديفرو لدرجة أنّني بدأتُ أتساءل عمّا إذا نال رشوة أو تعرّض للتهديد.

– من الواضح أنّ بين هؤلاء السادة الثلاثة عداوة. لن أطعن في دوافعهما، لكن يبدو لي أنّ خطأ ما قد وقع. كما أودّ الإشارة، سيّدي الوزير، إلى أنّ السيّد دوفريس كان خادمًا صالحًا ووفيًّا للحكومة الأميركيّة في واشنطن خلال السنوات الستّ أو السبع الماضية، وهنا. طبعًا، ما من مجال للشكّ في مرضه. ومن غير المحتمل، نظرًا إلى حالته أن يكون عقلًا مدبّرًا لشبكة إجراميّة عالميّة. أنظر إليه الآن، هل هذا ما تراه؟

جلس لينكولن واجمًا بصمت، ثمّ هزّ رأسه ببطء وقال:

– أيّها السيّدان، يحزنني القول إنّكما لم تقنعاني. لا أشكّ بكلامكما، فكلاكما شريفان. أنا واثق من ذلك. لكنّ إيشام على حقّ. فمن دون دليل حسّيّ، يستحيل عليّ الاستجابة لما تطلبان. وبرغم أنّني أعدكما بأنّنا سنواصل التحقيق في هذه المسألة، إلّا أنّ ذلك يجب أن يتمّ داخل مقرّ هذه البعثة، ووفقًا لقواعدها.

إنتهى الاجتماع. لكنّ جونز هبّ فجأة واقفًا، وفي الحال رأيت فيه الطاقة والحزم اللذين أعرفهما حقّ المعرفة. وسأل:

– أتريد الدليل؟ ربّما يمكنني أن أقدّم إليك الدليل.

وأخرج من جيبه ورقة ممزّقة الطرف كُتبت عليها بضع كلمات بأحرف كبيرة. وضع الورقة على الطاولة بجانب لينكولن، فقرأتُ عليها كلمتَي «**إبنتك معنا**». ثمّ قال:

– هذه هي الرسالة التي تلقّيتُها لحملي على القدوم إلى المقبرة المعروفة «بنزهة الرجل الميت». وبواسطتها استطاع ديفرو القبض على تشايس وعليّ.

– وما بها؟ سأل تشايس.

– لقد مُزّقت من كتاب. ولحظة رأيتها عرفتُ أنّها أُخِذت من مكتبة تمامًا كهذه. والتفت جونز إلى رفوف الكتب وتابع يقول: يسقط نور الشمس على هذه النوافذ بزاوية غريبة. ولذلك، يصل إلى عدد قليل جدًّا من كتبك، لكنّني لاحظتُ حين دخلت إلى هنا أنّ عددًا قليلًا من الكتب في طرف المكتب قد بهت لونه. الجزء الأعلى من هذه الصفحة باهت أيضًا كما ترى. ومن دون أن يستأذن، مضى إلى رفوف المكتبة وعاينها. ثمّ تابع يقول: هذه الكتب لم تُقرأ منذ بعض الوقت. وهي مصفوفة بترتيب تامّ... كلّها ما خلا كتابًا واحدًا لم يُعَد إلى مكانه بالوضعيّة عينها. وأخرج الكتاب الشاذّ، وحمله إلى لينكولن وقال وهو يفتحه: لِنَرَ.

كانت الصفحة الأولى منزوعة، وظهر الطرف الممزّق بوضوح. وكان من البديهيّ، بل ممّا لا يمكن النقاش فيه، أنّه مطابق لطرف الورقة التي كتب عليها الخاطف رسالته.

قوبل الكتاب المفتوح بصمت عميق. وفكّرتُ حينذاك في المحاكمات الكبرى التي ينقلب مجراها لأسباب أقلّ. وبرغم أنّ ملامح لينكولن ومستشاريه لم تبُح بشيء، فقد راحوا ينظرون إلى الكتاب وكأنّهم يقرأون فيه أسرار الحياة كلّها. كما بدا بوضوح أنّ ديفرو نفسه قد انكمش على نفسه، معترفًا بأنّه ربّما خسر اللعبة. وفي النهاية قال لينكولن:

– ما من شكّ بأنّ هذه الصفحة أُخِذت من هذه المكتبة. كيف تشرح هذا الأمر يا سيّد دوفريس؟

– لا أستطيع شرحه. هذه خدعة!

– يبدو لي أنّ عليك أن تقدّم تفسيرًا.

– لعلّ أيًّا كان أخذ هذا الكتاب. ربّما هما مَن فعلا ذلك حين كانا هنا!

– لم يأتيا إلى المكتبة، تمتم إيشام.

كانت تلك الكلمات الأولى التي يقولها في مصلحتنا. أمّا ديفرو الذي بات في وضع ميئوس منه، فقال:

– سيّدي الوزير، أنت نفسك قلت منذ قليل إنّ الإجراءات الجنائيّة لا تطالني.

– هذا صحيح، وفقًا للأصول. ومع ذلك لا يمكنني المكوث مكتوف اليدين. فقد تعرّف إليك محقّقان، ولا يمكن إنكار أنّ أحداثًا كبرى قد وقعت. وهما الآن يملكان دليلًا...

ثمّ ساد صمت طويل قطعه مستشار البعثة الدبلوماسيّة وايت، الذي قال:

– إستجواب الشرطة أحد أفراد السلك الدبلوماسيّ سيكون سابقة.
– فاجأتني السرعة التي كان هذان السيّدان يتحرّكان بها، لكنّهما كانا سياسيّين طبعًا – إذا كانت قضيّة ستُرفع ضدّك، فمن المنطقيّ أن تتعاون على الأقلّ. وإلّا فكيف ستبرّئ اسمك؟

– ستظلّ تتمتّع بحماية البعثة الدبلوماسيّة حتّى خارج مبناها، أضاف إيشام. يمكننا أن نشملك بحقّ العبور الآمن ius transitus innoxii. وهذا الحقّ سيتيح لأصدقائنا في الشرطة البريطانيّة حقّ استجوابك، وتبقى في الوقت عينه خارج سلطتهم القانونيّة.

– وبعد ذلك؟

– ستُعاد إلى هنا. وإذا لم تستطع تبرير نفسك بشكل مُرضٍ، يعود للوزير المطلق الصلاحية أن يقرّر الخطوة التالية.

– لكنّني لا أستطيع الخروج! تعرفون أنّني لا أستطيع المغامرة بالخروج.

– وضعتُ عربة مقفلة في انتظارك، قال جونز. عربة السجناء التقليديّة قد تثير الخوف في قلوب المجرمين العاديّين، أمّا بالنسبة إليك فهي ملجأ. لا نوافذ لها، وبابها يبقى مغلقًا بإحكام، أؤكّد لك ذلك. وستقودك توًّا إلى سكوتلانديارد.

– لا! لن أذهب! قال ديفرو، ثمّ التفت إلى لينكولن، وللمرّة الأولى رأيت الخوف في عينيه. وقال: هذه خدعة يا سيّدي. هذان الرجلان لا ينويان

استجوابي. إنّهما ينويان قتلي. إنّهما ليسا ما يبدوان عليه. وخرجت من فمه الكلمات متسارعة أكثر فأكثر. وأضاف: في البدء لافيل. قابلاه، وفي اليوم التالي عُثر عليه مقتولًا هو وجميع مَن في منزله. ثمّ ليلاند مورتلايك، رجل الأعمال المحترم! سعادتك تتذكّر لقاءه. ما كاد يُعتقل حتّى مات مسمومًا. وهما الآن يأتيان إليّ. إذا أرغمتني على الخروج معهما، فلن أصل إلى سكوتلانديارد أبدًا. وإذا وصلت إليها، فسأموت هناك. سيقتلانني قبل أن أركب عربة السجناء تلك! لم أرتكب أيّ خطأ. أنا بريء. صحّتي سيّئة وأنت تعرف ذلك. سأجيب عن أيّ سؤال توجّهه إليّ، وأدع لك الاطّلاع على حياتي كلّها. لكنّني أقسم على أنّك ترسلني إلى موت محقّق. لا ترغمني على الذهاب!

بدا مثيرًا جدًّا للشفقة وخائفًا جدًّا لدرجة أنّني كنت لأميل إلى تصديقه لو لم أدرِ بأنّه يمثّل. تساءلتُ عمّا إذا كان لينكولن سيشفق عليه، لكنّ المبعوث أخفض عينيه ولم يقل شيئًا.

– لا نقصد إلحاق الأذى به، قال جونز. أتعهّد بذلك. سوف نكلّمه. ثمّة أسئلة كثيرة جدًّا من دون جواب. وحالما نسمع الإجابات عنها، وننال اعترافًا كاملًا، سنعيده إليك وفقًا لقوانين العلاقات الدبلوماسيّة. اللورد ساليسبوري نفسه وافق على ذلك. لا فرق بالنسبة إلينا أن يحاكَم هذا الرجل في بريطانيا أو في الولايات المتّحدة. همّنا الوحيد ألّا ينجو من تبعات ما اقترفه.

– إذًا فنحن متّفقون، قال لينكولن. ثمّ وقف والتعب يبدو فجأة عليه، وقال: هنري، أريدك أن ترسل موفدًا إلى سكوتلانديارد. يجب أن يكون موجودًا في خلال الاستجواب، الذي يجب ألّا يبدأ قبل وصوله. أرغب في عودة السيّد دوفريس إلى مقرّ البعثة الدبلوماسيّة قبل هبوط الليل.

– الوصول إلى الحقيقة قد يستغرق أكثر من يوم واحد.

– أدرك ذلك حضرة المفتّش جونز. وفي تلك الحال، سيُعاد إليك غدًا. لكن يجب ألّا يقضي ولو حتّى ليلة واحدة خلف القضبان.

– حسنًا يا سيّدي...

ثمّ غادر الغرفة، من دون أن يضيف كلمة واحدة أو يلقي نظرة واحدة إلى ديفرو.

– يجب ألّا أذهب! لن أذهب!

تمسّك ديفرو بذراعَي الكرسيّ كطفل صغير، واغرورقت عيناه بالدموع. في الدقائق القليلة التالية مرّ أمام عينيّ مشهد من الغرابة وعدم الكرامة لم يسبق لي أن ألِفته. فقد توجّب استدعاء عدد أكبر من الرسميّين إلى الغرفة وأخذه بالقوّة. وراح وايت وإيشام يتفرّجان بارتباك على ديفرو يُجرّ إلى الأسفل، كصعلوك حقير بدأ بالزعيق حالما رأى الباب المفتوح. إنّه الرجل عينه الذي وقف بالأمس فقط، يحيط به أفراد عصابته، وحكم علينا بالموت المؤلم. كان من شبه المستحيل المقارنة بين ذلك الرجل والمخلوق الذي أصبح عليه.

عُثر على غطاء، ألقي به على رأسه، واستطعنا مواكبته إلى البوّابة حيث كانت عربة السجناء في انتظاره. وقال لنا وايت الذي رافقنا:

– لن تبدآ استجوابكما حتّى يصل مندوبي.

– أفهم هذا.

– وستمنحان السيّد دوفريس الاحترام الواجب للسكرتير الثالث في هذه البعثة.

– أعدك بذلك.

– سأراك مجدّدًا هذا المساء. هل أبالغ إذا أملت أن تنتهي هذه المسألة بحلول المساء؟

– سنفعل ما بوسعنا.

أعدّ جونز ترتيبات خاصّة لنقل كلارنس ديفرو من مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. فقد أتى خمسة رجال شرطة من سكوتلانديارد، انتقاهم كلّهم هو شخصيًا. ولم يُسمح لأيّ شخص آخر بالاقتراب. كان يجب عدم السماح بأيّ احتمال لإطلاق سهم مسموم ثانٍ من مكان ما وسط الحشد. وكنّا حريصين على عدم تقديم هدف للقنّاص الغامض الذي أتى لنجدتنا في سوق سميثفيلد. كان ديفرو عاجزًا عن الرؤية أو المقاومة. وحرصنا على أن يبقى بحماية درع بشريّة حتّى يصل إلى عربة السجناء، المركونة بقرب بوّابة مقرّ البعثة تمامًا. كانت العربة ولونها أزرق غامق كناية عن صندوق متين على أربع عجلات، خضعت لتفتيش شديد قبل خروجها. وحالما أدخلنا ديفرو المتكوّم على

نفسه إليها، تأكّد جونز من أنّه سيكون في مأمن. كان داخلها مظلمًا، وفيها مقعدان متقابلان. ربّما كانت هذه العربة لتبدو لأيّ مجرم عاديّ وسيلة نقل مخيفة. لكنّ المثير للسخرية أنّ ديفرو سيجدها مريحة كما لو أنّها منزله، نظرًا إلى حالته. أغلقنا الأبواب وأقفلناها. صعد أحد رجال الشرطة إلى موطئ الوقوف الخلفيّ، وكان عليه أن يبقى هناك طوال الرحلة. حتّى ذلك الحين، كان كلّ شيء يسير وفقًا للخطّة المرسومة.

أعددنا للانطلاق. جلس شرطيّان آخران جنبًا إلى جنب في مقدّمة العربة خلف الحصانين. وجلست وجونز في عربة مفتوحة كانت مركونة في الخلف، أمسك جونز بأعنّة حصانيها. وقضت مهمّة الشرطيّين الآخرين بأن يسيرا أمامنا على الطريق ليضمنا خلوّه من أيّ عائق. كان ذلك يعني أن التقدّم بطيء، لكنّ المسافة لم تكن كبيرة. وجدنا في انتظارنا عند كلّ منعطف مزيدًا من رجال الشرطة، وهم عينهم مَن كانوا يراقبون مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. بدا لي أنّ موكبنا شبيه جدًّا بموكب جنازة. صحيح أنْ لا وجود لحزانى يقفون بصمت، لكنّنا انطلقنا في مشهد يكاد يكون بالمهابة عينها.

غاب خلفنا مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. كان هنري وايت يقف على الرصيف، يتفرّج علينا بوجوم، ثمّ استدار عائدًا من حيث أتى. قلتُ وأنا لا أستطيع إخفاء شعوري بالارتياح:

– لقد نجحنا. بات أخطر المجرمين الذين قدموا إلى هذا البلد في عهدتنا، وهذا كلّه بفضلك وبفضل عبقريّتك في إكتشاف ذلك الكتاب! أخيرًا انتهى الأمر.

– لست واثقًا جدًّا من ذلك.

– يا عزيزي أثيلني، ألا يمكنك الاستراحة ولو لبرهة واحدة؟ أؤكّد لك أنّنا نجحنا. أنت نجحت! أترى؟ نحن في الطريق الصحيح.

– ومع ذلك، أتساءل...

– ماذا؟ ألديك شكوكك حتّى الآن؟

– إنّها أكثر من شكوك. هناك أمر غير واضح، كلّ شيء غير واضح، إلّا...

وتوقّف عن الكلام. رأينا سائق عربة السجناء أمامنا يشدّ الأعنّة. فقد كان فتى يدفع عربة ملأى بالخضروات يجتاز الشارع، ويسدّ طريقنا لأنّ إحدى عجلات عربته بدا أنّها علقت في ثلم وسط الطريق. تقدّم شرطيّ آخر للمساعدة على إخلاء الطريق.

رفع الفتى بصره، وإذا به بيري الذي ارتدى هذه المرّة سترة رثّة وحزامًا. بدت يداه خاليتين، لكنّه ما لبث أن رفعهما ليظهر مبضع الجرّاح الذي هدّدني به ذات مرّة، وهو يلتمع في الشمس. وبحركة واحدة، ومن غير أن يقول شيئًا، سقط الشرطيّ الثاني وهو يتخبّط في دمه. في اللحظة عينها سُمع صوت رصاصة، بدا أشبه بصوت ورقة تُمزَّق، فهوى جانبًا الشرطيّ الذي كان يقود عربة السجناء، ليسقط على الطريق. ثمّ دوّت رصاصة ثانية وتبعه رفيقه. تراجع أحد الحصانين ليصطدم بالآخر. وأخذت امرأة خرجت من أحد المتاجر بالصراخ بدون توقّف. وانحرفت عربة تأتي من الاتّجاه الآخر لتصعد فوق الرصيف، فكادت تسحق المرأة، قبل أن تتحطّم في سياج.

أخرج أثيلني جونز مسدّسًا. لا بدّ من أنّه خالف القانون وحمله معه إلى داخل البعثة الدبلوماسيّة، وأبقاه في جيبه طوال الوقت. ثمّ صوّبه نحو الفتى.

بدوري، أخرجت مسدّسي. رمقني جونز بنظرة رأيت فيها مشاعر الصدمة والحيرة وأخيرًا الاستسلام.

– أنا آسف، قلتُ. وأرديتُه برصاصة في رأسه.

الفصل الحادي والعشرون

الحقيقة

قد يبدو يا عزيزي القارئ أنّني خدعتُك، برغم أنّك في الواقع لست عزيزًا جدًّا على قلبي. بأيّة حال، فقد كبّدتُ نفسي مشقّة كبرى لتجنّب خداعك. أي أنّني لم أكذب. على الأقلّ لم أكذب عليك أنت. لعلّها مسألة تفسير، لكنّ ثمّة فرقًا كثيرًا مثلًا بين عبارة «أنا فريدريك تشايس»، وعبارة «دعوني أخبركم أنّ اسمي فريدريك تشايس»، والتي أتذكّر أنّني كتبتها في الصفحة الأولى من هذا الكتاب. هل قلت إنّ الجثّة على طاولة التشريح في مايرنغن تعود لجايمس موريارتي؟ لا. فقط ذكرتُ، وكان ما ذكرته صحيحًا، أنّه كان الاسم المكتوب على البطاقة المربوطة بمعصم الرجل الميت. لا بدّ من أنكم بتّم تدركون أنّني أنا، راوي هذه القصّة، البروفسور جايمس موريارتي. فريدريك تشايس لم يكن موجودًا إلّا في مخيّلتي... وربّما في مخيّلتكم. يجب ألّا يفاجئكم الأمر. أيّ من الاسمين ظهر على غلاف الكتاب؟

حرصتُ منذ البداية على الالتزام بالدقّة المطلقة، ولو من أجل تسليتي الخاصّة. لم أصف قطّ شعورًا لم يساورني فعلًا. حتّى أنّني أطلعتكم على أحلامي. (هل كان فريدريك تشايس ليحلم بالغرق في شلّالات رايشنباخ؟ لا أظنّ ذلك). عرضتُ أفكاري وآرائي كما هي تمامًا. وحقًّا أحببت أثيلني جونز، حتّى أنّني حاولت ثنيه عن متابعة القضيّة حين عرفت أنّه متزوّج. كنت فعلًا أظنّه رجلًا قادرًا، وإن كانت له حدوده. فمثلًا كانت محاولاته في

التنكّر سخيفة. وحين أتى في زيّ قرصان أو صيّاد، يوم مضينا إلى حوض بلاكوال بازين. فأنا لم أتعرّف إليه في الحال وحسب، بل بذلت جهدًا كبيرًا للامتناع عن القهقهة. وقد سجّلت بأمانة كلّ كلمة قيلت، سواء أبدرت منّي أو من غيري. ربّما أُرغِمت على حجب بعض التفاصيل بين الحين والآخر، لكنّني لم أضِف شيئًا من خارج الحقيقة. قد تظنّونها لعبة معقّدة، لكنّني وجدت أنّ الكتابة مملّة على نحو غريب، بسبب تلك الساعات الطويلة التي أمضيتها ضاربًا على آلة لم تكن على قدر خمسة وستين ألفًا وتسعمئة وسبعٍ وستين كلمة. (من غرائبي القدرة على العدّ وتذكّر عدد الكلمات فيما أكتب). تعطّلت عدّة مفاتيح في الآلة الكاتبة، كما بهت الحرف «e» حتّى بات لا يُقرأ. ويومًا ما سيكون على أحدهم إعادة كتابة الرواية كاملة بواسطة الآلة الكاتبة. كان خصمي القديم شرلوك هولمز محظوظًا بوجود واطسون، المؤرّخ الأمين لمغامراته. لكنّني لم أستطع تحمّل كلفة ترف كهذا. أعرف أنّ ما أكتبه لن يُنشر وأنا على قيد الحياة، هذا إن نُشر. إنّها طبيعة مهنتي.

أنا مدين لك بالتفسير. سافرنا حتّى هنا معًا، ويجب أن يفهم واحدنا الآخر قبل أن يمضي كلّ منّا في سبيله. أنا متعب، وأشعر بأنّني كتبت ما فيه الكفاية، ومع ذلك يجب العودة إلى البداية – بل وإلى أبعد من ذلك – لوضع كلّ شيء في مكانه الصحيح. تذكّرتُ نظريّة غشتالت التي عرضها كريستيان فون إيرينفيلز في مؤلّفه الشيّق Über Gestaltqualitäten – وكنت أقرأه على متن القطار إلى مايرنغن – والتي تتناول العلاقة بين الدماغ والعين. ثمّة وهم بصريّ بات شائعًا، حيث يظنّ المرء نفسه يرى شمعدانًا، لكنّه وعند التأكّد عن كثب يدرك أنّه يرى في الواقع شخصين يقفان وجهًا لوجه. كانت روايتي في نواحٍ معيّنة تمرينًا شبيهًا بذلك الوهم البصريّ، لكنّها طبعًا لا تنحدر إلى مستواه من التفاهة.

لماذا ذهبتُ إلى مايرنغن؟ ولماذا كان ضروريًا أن أدّعي الموت؟ لماذا التقيت المفتّش أثيلني جونز وأصبحت رفيقه في السفر وصديقه؟ دعني أضيء المصباح الكهربائيّ وأصبّ كأس براندي آخر.

حسنًا، أنا جاهز.

كنتُ نابوليون الجريمة. شرلوك هولمز هو أوّل مَن لقّبني بذلك، وسأكون قليل التواضع وأعترف بأنّني سررتُ بهذا الوصف. لسوء الحظّ، ومع اقتراب العام 1890 من نهايته لم أكن أدري أنّ رحلتي إلى منفى «جزيرة القدّيسة هيلانة» على وشك أن تبدأ. كانت التفاصيل الشحيحة التي ذكرها هولمز عن حياتي صحيحة، وليس في نيّتي التوسّع بها كثيرًا هنا. الواقع أنّني كنت أحد شقيقين توأمين مولودين لعائلة محترمة في مدينة باليناسلو، في مقاطعة غالاواي. وكان والدي محاميًا. وحين بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري، انخرط في الحركة الثوريّة المعروفة باسم الأخويّة الجمهوريّة الإيرلنديّة. ونظرًا إلى الخطر الذي قد يعرّضه هذا الأمر إليه، قرّر إرسالي وشقيقي إلى إنكلترا لإتمام دراستنا. وجدتُني في أكاديميّة هولز في وادينغتون، حيث تفوّقت في دراسة الفلك والرياضيّات. ومن هناك مضيت إلى جامعة كوينز في كورك، حيث درست على يد جورج بول العظيم. وبإشرافه نشرتُ في عامي الحادي والعشرين، دراسة حول نظريّة نيوتن، أفخر بالقول إنّها أثارت ضجّة عبر أوروبا كلّها. وبنتيجة ذلك عُرض عليّ كرسيّ الرياضيّات في جامعة باتت مسرحًا لفضيحة كبرى غيّرت مسار حياتي. لا أنوي أن أوضح بدقّة طبيعة تلك الفضيحة، لكنّني أعترف بأنّني لست فخورًا بما حدث. وبرغم وقوف شقيقي إلى جانبيّ، فإنّ أيًّا من والديّ لم يعد لمكالمتي قطّ.

لكنّ الرجل كانت له ميول وراثيّة من النوع الأشدّ شيطانيّة. وفي عروقه تجري دماء الإجرام...

كان ذلك ما كتبه عنّي هولمز – أو واطسون – لكنّهما كانا مخطئين تمامًا. ولو أنّ والديّ قرأ ذلك لشعرا بحزن شديد. فهما كانا، وكما ذكرتُ، شخصين محترمين، وليس في شجرة عائلتي القديمة أيّة إشارة إلى سوء السلوك. قد يصعب على قرّائي أن يتقبّلوا أنّ أستاذًا عاديًّا قد يقرّر عمدًا دخول عالم الجريمة. لكنّني أؤكّد لكم أنّ هذا ما حدث. كنت أعمل آنذاك مدرّسًا خاصًّا في وولويتش. وبرغم أنّ عددًا من تلامذتي كانوا من طلّاب الأكاديميّة العسكريّة الملكيّة القريبة من ذلك المكان، فلم أكن «مدرّب الجيش» كما ذُكر. وحدث أنّ أحد أولئك الطلّاب، وهو رجل لطيف المعشر ومجتهد في

العمل يدعى روجر بيلغريم، قد تراكمت عليه ديون القمار وتورّط مع زمرة من الأوغاد. أتى إليّ ذات مساء وهو يشعر بكثير من الغمّ. لم تكن الشرطة مَن يخشاها، لكنّ رفاقه هم مَن انقلبوا ضدّه من أجل مبلغ صغير من المال ظنّوه مدينًا به. وكان بيلغريم يعتقد أنّهم سيمزّقونه إربًا. فوافقت بشيء من التردّد على التدخّل لمصلحته.

آنذاك حقّقت الاكتشاف الذي غيّر حياتي للمرّة الثانية، وهو أنّ عالم الجريمة السفليّ، أي السارقين، واللصوص، والمزوّرين، والنصّابين الذين ابتليت بهم لندن، كانوا على بلاهة لا شفاء منها. خلتُني سأخافهم، فتبيّن أنّ سيري وسط قطيع من الخراف كان ليصيبني بقلق أكبر. في الحال رأيت أنّ ما ينقصهم هو التنظيم. وبصفتي عالم رياضيّات كنت في الموقع المناسب تمامًا للقيام بذلك. إذا توصّلتُ إلى تنظيم نشاطهم الإجراميّ كما أنظّم المعادلات الرياضيّة، فسيمكنني أن أنشئ قوّة تستطيع السيطرة على العالم. برغم أنّ التحدّي الذهنيّ هو ما أثار في البداية اهتمامي، أعترف بأنّني بدأت بالتفكير في الربح الشخصيّ، لأنّ الملل من العيش على قاعدة «خبزنا كفاف يومنا» كان قد بدأ يتسلّل إليّ.

قضيتُ نيّفًا وثلاث سنوات لتحقيق أهدافي. قد أشرح يومًا ما كيف فعلتُ ذلك، برغم أنّ الأمر بعيد الاحتمال، بصراحة. فبعيدًا من أيّة اعتبارات أخرى، لست متباهيًا قطّ، ولطالما كانت السريّة شعاري. في النهاية، كيف للشرطة أن تلاحق رجلًا لا تعرف حتّى بوجوده؟ سأكتفي بالقول إنّ روجر بيلغريم بقي معي وقدّم لي الدعم الجسديّ – أي وسائل الإقناع – الذي كان مطلوبًا بين الحين والآخر، برغم أنّنا نادرًا ما كنّا نلجأ إلى العنف. أما الأساليب المتوحّشة التي ميّزت عمل كلارنس ديفرو وعصابته، فلم تكن أساليبنا. أصبحنا صديقين حميمين، وكنت إشبينه في عرسه. ولا أزال أتذكّر يوم ولدت زوجته طفلهما الأوّل، جوناثان. وهكذا، نصل إلى البداية.

مع اقتراب العام 1890 من نهايته، كنت في ذروة النجاح وواثقًا من أنّ مسيرتي المهنيّة ستواصل ازدهارها. لم يكن من مجرم في لندن لا يعمل لحسابي. ممّا لا بدّ منه أنّ بعض الدماء قد سُفكت في خلال العمل، لكنّ

الأمور استقرّت وبات ذلك كلّه ورائي. وفي النهاية أدرك المجرمون كلّهم، مِن أفتكِهم إلى أبسطهم عقلًا، أنّ العمل تحت حمايتي خير لهم. صحيح أنّني كنت آخذ حصّة كبيرة من أرباحهم، لكنّني كنت موجودًا دائمًا حين ينقلب الدهر عليهم، ومستعدًّا لأدفع كفالة خروجهم من السجن أو نفقات الدفاع عنهم. كما كان بوسعي أن أكون مفيدًا جدًّا. هل يبحث أحد اللصوص عمّن يشتري مسروقاته؟ هل يرغب محتال في مرجع مزيّف؟ كنت أجمع الفريقين معًا، وأفتح الأبواب في أكثر من اتّجاه.

وطبعًا كان هناك شرلوك هولمز. لم يكن ممكنًا ألّا أفطن إلى وجود أعظم رجل تحرٍّ خاصّ في العالم، لكنّ الغريب أنّني لم أبالِ به كثيرًا. فما شأني برواية «طقوس ماسغرايف» المنافية للعقل، أو برواية «علامة الأربعة» وكلتاهما على قدر واحد من الغرابة؟ وما علاقتي بزواج اللورد سان سيمون، أو بالفضيحة السخيفة في بوهيميا؟ أعرف أنّ واطسون كان ليرغب بتصويرنا على أنّنا عدوّان كبيران، لأنّ ذلك يساعده على زيادة المبيعات. لكنّ الواقع هو أنّني وهولمز كنّا نعمل في حقلين مختلفين، وما كنّا لنلتقي لولا حدث واحد.

كان ذلك الحدث وصول كلارنس ديفرو وزمرته، أي إدغار وليلاند مورتلايك وسكوتشي لافيل إلى إنكلترا. كلّ ما قلته لأثيلني جونز عنهم كان حقيقيًّا. كانوا مجرمين أشرارًا أحرزوا في أميركا النجاح الباهر. إلّا أنّ ما لم يكن حقيقيًّا هو تأكيدي أنّهم أرادوا توحيد قوانا للعمل معًا. العكس هو الصحيح، فقد أتوا إلى أميركا للتخلّص منّي والاستيلاء على أمبراطوريّتي الإجراميّة. وقد تصرّفوا في الأشهر التالية بسرعة وعنف فاجآني. واستخدموا أشدّ الأساليب دناءة لتحريض أتباعي عليّ. وكانوا يقتلون كلّ مَن يقف بوجههم، وذلك بشكل دمويّ دائمًا، ليكون بمثابة تحذير للآخرين. كما أنّهم استخدموا مخبري الشرطة ضدّي، فقدّموا بواسطتهم المعلومات إلى سكوتلانديارد وإلى هولمز، حتّى وجدتُني أخوض حربًا على ثلاث جبهات. أين نحن من مبدأ الشرف بين اللصوص! لعلّي بالغتُ في الثقة، ولا شكّ بأنّني لم أكن مستعدًّا. لكنّني للدفاع عن نفسي، سأقول هذا: لم يكونوا سادة نبلاء، كانوا أميركيّين. ولم يعيروا أدنى اهتمام لقاعدتَي الروح الرياضية والتمدّن، اللتين احترمتهما دائمًا.

سبق أن قلت إنّ المجرمين أغبياء، ويجب أن أضيف أنّهم أنانيّون جدًا. فسرعان ما أدرك شركائي اتّجاه هبوب الريح، فـ«اغتنَموها» على ما يقول التعبير الشائع كما أعتقد. وراح أقرب مستشاريّ يتخلّون عنّي الواحد تلو الآخر. لا يمكنني لومهم. أظنّني كنت لأقوم بالأمر عينه لو كنت مكانهم. بأيّة حال، مع بداية شهر نيسان وجدتُني، ويا للأمر الذي لا يصدَّق، رجلًا فارًّا. قوّتي الوحيدة أنّ ديفرو لا يعرف شكلي ولا يستطيع العثور عليّ، وإلّا لقتلني.

آنذاك كان لي فقط ثلاثة حلفاء، وقد ظهروا جميعهم في هذه الرواية.

لعلّ بيريغرين أو برسي أو بيري هو الأكثر تميّزًا بينهم. برغم أنّ ما سأقوله يكاد يستحيل تصديقه، إلّا أنّه كان الابن الأصغر لدوق لوموند، وتنتظره حياة الرغد واليسر، لولا ثورته العنيفة على أنظمة المدرسة الخاصّة في إدنبره حيث أرسِل في عامه السابع. كانت تلك المدرسة بإدارة رهبان يسوعيّين دأبوا على أن يقدّموا لطلّابهم مقادير متساوية من تعاليم الكتاب المقدّس وقضبان التأديب. وبعد أسبوع واحد من التحاقه بها، فرّ بيري من المدرسة نحو جنوب لندن. أطلق والداه اليائسان حملة تفتيش وطنيّة وقدّما جائزة ضخمة لمَن يدلي بمعلومات عن مكان وجوده. لكنّ فتى يصمّم على عدم العثور عليه، لا يمكن العثور عليه. توارى بيري بخفّة وسط المدينة، نائمًا تحت القناطر وأمام الأبواب بصحبة آلاف الأطفال الآخرين الذين تمرّسوا في العاصمة في فنّ البقاء. كان لفترة قصيرة – ويا للسخرية عضوًا في «عصابة شارع بايكر»، وهي عصابة فتية الشوارع الذين ساعدوا شرلوك هولمز في عمله. لكنّ أجورها كانت ضئيلة، كما أنّ بيري فضّل الجريمة بأيّة حال. أحبّه كثيرًا لكنّني أعترف بأنّ فيه أمرًا مزعجًا لعلّه نتيجة الاختلاط في داخل عائلة لوموند. حين التقيته كان عمره أحد عشر عامًا، وسبق له أن قتل شخصين على الأقلّ، بحسب معرفتي. بعدما بدأ يعمل في خدمتي راح يقتل بوتيرة أكبر – لم يكن من وسيلة للحؤول دون ذلك. ويجب أن أضيف بشيء من الأسف أنّ تلك الشهوة الغريبة إلى الدم كانت مفيدة لي أحيانًا. لم يلاحظ أحد بيري قطّ، فما كان أكثر من طفل أشقر، ممتلئ الجسم. ومع ولعه بالتنكّر والإخراج المسرحيّ، كان يستطيع دخول أيّة غرفة، وإقحام نفسه في أيّ وضع.

لقد وجد مهنته معي. لن أقول إنّني أصبحت أبًا ثانيًا له، فذلك أشدّ خطرًا لأنّ بيري يكره الشخصيات التي تجسّد السلطة، وكان مستعدًا لقتل أقربها إليه بكلّ سرور. لكنّنا كنّا قريبين، على طريقتنا الخاصّة.

أراني أقلّ حاجة إلى الكتابة حول الكولونيل سيباستيان موران. سبق أن وصفته، كما أنّ الدكتور واطسون سيزوّدك بأيّة معلومات إضافيّة قد تطلبها. تلقّى علومه في إيتون وأكسفورد، وهو جنديّ، ومقامر، وصيّاد فرائس كبيرة، وخصوصًا، هو قنّاص. كان موران مساعدي الأوّل لسنوات عديدة. لم نكن صديقين قطّ، فببساطة ليس ذلك من طباعه. كان فظًّا في السلوك، وتتحكّم به سورات غضب لا يمكن السيطرة عليها. العجيب هو أنّه بقي معي طوال تلك المدّة، والحقيقة أنّه لم يبقَ إلّا لأنّني كنت سخيًا في الدفع له. كما أنّه ما كان لينضمّ إلى ديفرو قطّ لأنّه يشعر بنفور قويّ من الأميركيّين، بل ومن كثير من الأجانب. لذا فقد كان ذلك الاحتمال غير وارد منذ البداية. وإذا ذكّرتك بأنّ سلاحه المفضّل كان بندقيّة الضغط، التي اخترعها الميكانيكيّ الألمانيّ ليوبولد فون هردر، فقد تستطيع استنتاج دوره في هذه الرواية.

وأصل في النهاية إلى جوناثان بيلغريم، ابن تلميذي القديم روجر. كنت ووالده قد انفصلنا، ليمضي هو إلى تقاعد مبكر في برايتون. فقد حقّق من عمله معي ثراء كبيرًا، كما أنّ زوجته كانت من البداية تخاف على حياته. لذلك لم يكن مفاجئًا لي أن يأتيني راجيًا الانفصال عنّي، غير أنّ ذلك أحزنني قليلًا. الأصدقاء نادرون في حياة كبار المجرمين، وقليلون جدًّا مَن يمكن الوثوق بهم. وهو كان صديقًا ورجل ثقة معًا. كنّا نتراسل بين الحين والآخر. وبعد ستّة عشر عامًا أرسل لي ابنه الذي كبر ليصبح شقيًا صعب المراس كما كان والده في الماضي. أجهل ما كان رأي أمّه بهذا التدريب الغريب، إلّا أنّ روجر شعر بأنّ جوناثان سيتحوّل إلى عالَم الجريمة، معي أو بدوني، وقرّر أنّ وجوده معي هو الاختيار الأفضل. كان فتى وسيمًا على نحو غير عاديّ ويتمتّع بنشاط وانفتاح ذهن لا يمكن المرء سوى الإعجاب بهما. ولا أزال حتّى اليوم نادمًا على سماحي له، بسبب الوضع الميئوس منه الذي وجدتُني فيه،

بالتسلّل إلى الحلقة الصغرى لديفرو. كلّ ما قرأتَه في هذه الرواية حتّى الآن، وكلّ ما فعلتُه، بدأ بجريمة قتله.

لم يشعر أيّ إنسان قطّ بالوحدة التي شعرت بها حين رأيت جثّة جوناثان في هايغايت، حيث اتّفقنا على اللقاء ليزوّدني بما تيسّر له جمعه من معلومات جديدة. أثارت اشمئزازي وغضبي طريقة موته، وتقييده ثمّ إعدامه. حين ركعتُ بالقرب منه والدموع تسيل من عينيّ، أدركت أنّ كلارنس ديفرو تفوّق عليّ، وأنّني بلغت أدنى حضيض يمكنني بلوغه، وانتهى أمري. لم يبقَ أمامي سوى الهروب من البلد، أو الانتحار. فلم يعد بوسعي أن أتحمّل.

إستسلمت لتلك الفكرة الحمقاء لخمس ثوانٍ ربّما. وسرعان ما حلّ محلّها غضب وعطش للثأر سيطرا عليّ تمامًا. في تلك اللحظة بالذات تكوّنت في رأسي خطّة جريئة جدًّا وغير متوقّعة لدرجة أنّني تيقّنتُ من نجاحها. يجب أن تتذكّر أيّها القارئ ظروفي آنذاك. كان إلى جانبي الكولونيل موران والفتى، وما عداهما ليس هناك أحد أستطيع طلب مساعدته. كنّا نحن الثلاثة بمواجهة أعداء يفوقوننا عدديًّا على نحو دراماتيكيّ. وشركائي القدامى كلّهم قد انقلبوا ضدّي. والأسوأ أنّني لم أملك وسيلة للعثور على كلارنس ديفرو، لأنّه مثلي لم يكشف النقاب عن وجهه قطّ. بواسطة بيلغريم، عرفتُ بأمر الأخوين مورتلايك وناديهما، «بوسطنيان». إلّا أنّني أدركت أنّ أحدًا من أفراد تلك العصابة لن يخون رئيسه من أجلي. كذلك أرشدني بيلغريم إلى سكوتشي لافيل الذي يقيم قريبًا من حيث عُثر على الجثّة لاحقًا، لكنّ لافيل كان رجلًا في غاية الحذر، وكان منزله شبيهًا بقلعة. ربّما كان ممكنًا قتله، لكنّني كنت بحاجة قبل ذلك إلى الوصول إليه، والحصول منه على المعلومات التي ستساعدني على النيل من بقيّة أفراد العصابة.

لنفترض إذًا أن أنجح في الاستفادة من سكوتلانديارد وكلّ ما لديها من موارد؟ هل كان ممكنًا أن أتمكّن من استغلالهم لأهزم عدوّي، وأن أعمل من الداخل، من غير أن يعرف كلا الفريقين حقيقة أمري؟ لطالما خطرت ببالي بسرعة البرق الحقائق الرياضيّة العظيمة، مثل الطريقة القطريّة أو نظريّة المعادلات التفاضليّة العاديّة. وهكذا خطرت ببالي فكرتي. وفحواها أنّ موتي

يجب أن يكون علنيًا ولافتًا وغير قابل للشكّ، لأعود بعد ذلك بهيئة أخرى. وحينذاك أستغلّ شرطة لندن لتقوم بعملي بالنيابة عنّي، وفي الوقت عينه أتخفّى بين أفرادها، فأغتنم أوّل فرصة أجدها في طريقي. طبعًا لا يمكنني الادّعاء بأنّني مفتّش، فسيكون من السهل جدًّا التحقّق من هويّتي. لكن، هب لو أنّني أتيتُ من مكان بعيد. في الحال تقريبًا اتّجهت أفكاري إلى وكالة بينكرتون في نيويورك. بدا منطقيًا تمامًا أن تلاحق تلك الوكالة ديفرو والآخرين إلى إنكلترا. وفي الوقت عينه أستفيد من عدم التعاون السائد بين الوكالتين. إذا عرّفتُ بنفسي حاملًا الوثائق والملفّات الصحيحة، فلن يشكّ بي أحد أو يتساءل حول حقّي في الوجود في إنكلترا.

في البداية، وضعتُ بعض الأوراق، ومن بينها عنوان «نادي بوسطنيان» في جيوب جوناثان بيلغريم، لكي تجدها الشرطة. بعد ذلك استعددتُ لخدعة موتي. كاد يكون مسلّيًا بالنسبة إليّ إدخال شرلوك هولمز في خطّتي، لكن مَن أفضل منه ليساعدني على تقديم انحناءتي الأخيرة على خشبة المسرح؟ من شبه المؤكّد أنّ هولمز ما كان يدرك أنّ كلارنس ديفرو ساعده في تحقيقاته. ثلاث مرّات، في كانون الثاني وشباط وآذار، تقاطعت طريقانا، وأعلم أنّه أعدّ مقالات كثيرة حول أعمالي، أراد أن يسلّمها لاحقًا إلى الشرطة. في نهاية شهر نيسان زرته في مقرّ إقامته في شارع بايكر. خشيت فقط أن يكون قد عرف كم ساءت الأمور بالنسبة إليّ، وكم تضاءلت قوّتي، لكنّه ولحسن الحظّ لم يكن يعلم ذلك. بل قبلني على ما تظاهرتُ به، عدوًّا خطرًا يسعى للثأر، مصمّمًا على إبعاده عن الساحة.

يجب أن أذكر أيضًا أنّني اتّخذتُ بعض التدابير الاحترازيّة الأساسيّة قبل أن أجازف بلقاء هولمز وجهًا لوجه. ويفاجئني أنّه لم يدرك ذلك لأنّه يعلم أهمّية المحافظة على السرّية بالنسبة إليّ. الشعر المستعار الأشيب، والكتفان المقوّستان، والحذاءان المصمّمان لجعلي أبدو أطول قليلًا... لم يكن هولمز وحده سيّد التنكّر، ويسرّني أنّ الوصف الذي أعطاه لواطسون عنّي، أي «طويل ونحيل جدًّا، ذو جبين منتفخ يبدو كتقوّس شاحب اللون»، كان خاطئًا تمامًا. ما كنت لأعلم آنذاك كيف ستجري الأمور، ولطالما كانت عادتي الاستعداد لكلّ احتمال.

لا حاجة بي إلى تكرار ما دار بيننا من حديث، فقد فعل واطسون ذلك قبلي. سأكتفي بالقول إنّه ومع نهاية محادثتنا، شعر هولمز بالخوف على حياته، وقد أتبعتُ ذلك بعدّة هجمات عليه، أُعِدّت كلّها لإخافته لا لقتله.

كانت ردّة فعل هولمز كما أملت تمامًا. فقد أرسل إلى المفتّش باترسون لائحة بشركائي القدامى، وهو لا يعلم أنّهم باتوا كلّهم يعملون لدى ديفرو، ثمّ هرب إلى البرّ الأوروبيّ. تبعته مع بيري والكولونيل موران، في انتظار الفرصة لإيصال المرحلة الأولى من خطّتي إلى نقطة الذروة. وقد أتيحت تلك الفرصة في مايرنغن، عند شلّالات رايشنباخ.

إفترضت أنّ هولمز قد يزور ذلك المكان المخيف، فالأمر في طبيعته. ما من سائح، أو حتّى رجل يشعر بأنّ حياته مهدّدة، يستطيع المرور في ذلك المكان من دون أن ينظر إلى الشلّال المتدفّق. سبقته إلى هناك، وسرت على الدرب الضيّق، وفي الحال علمتُ أنّني وجدتُ الموقع المطلوب. سيكون الأمر خطرًا جدًّا، لا شكّ بذلك. لكنّني أحبّ التفكير في أنّ عالِم الرياضيّات وحده يستطيع النجاة ممّا قد يبدو قفزًا انتحاريًّا إلى مجرى النهر السريع. مَن غير عالم الرياضيّات يستطيع أن يحتسب بدقّة كلّ الزوايا الضروريّة، وحجم ماء الشلّال، والسرعة الحقيقيّة للسقوط، واحتمالات عدم الغرق أو عدم التمزّق على الصخور؟

في اليوم التالي، حين خرج هولمز وواطسون من «إنغليشر هوف»، كان كلّ شيء في مكانه. إختبأ الكولونيل موران فوق الشلّالات، ليكون بمثابة حماية ضروريّة إذا ما وقع أيّ خلل. أمّا بيري، الذي ربّما بالغ بالانغماس في الدور، فتنكّر بزيّ فتى سويسريّ. وقفتُ منتظرًا على كتف الهضبة القريبة. حين وصل هولمز وواطسون، جاء بيري بالرسالة التي يُفترَض بأنّ صاحب الفندق كتبها، تستدعي واطسون للعودة فورًا. بقي هولمز وحيدًا. وآنذاك تقدّمتُ، أمّا بقيّة الرواية فيجوز القول إنّها من التاريخ.

تبادلنا الحديث. ورحنا نستعدّ للنهاية. إيّاك والتفكير لبرهة بأنّني كنتُ شديد الوثوق باحتمالات نجاحي. كان الماء يهدر بعنف وسط هاوية أحاطت بها الصخور المسنّنة. لو أنّني كنت أملك بديلًا، لفكّرتُ فيه بسرور.

لكن، يجب أن أُعتبَر ميتًا. ولأجل ذلك، كان طبيعيًا أن أدع هولمز يكتب رسالة الوداع. فوجئتُ قليلًا بحاجته إلى تدوين ما سيجري. لكنّني لم أعلم آنذاك أبدًا أنّ كلينا كان في الواقع يستعدّ لإشاعة خبر موته. وهو ما أجده، عند التفكير به حاليًا، غريبًا بعض الشيء. بأيّة حال، كنت بأمسّ الحاجة إلى شهادته، ونظرت إليه يترك الرسالة بالقرب من عصا الجبال التي كان يحملها. ثمّ تأهّبنا للعراك، وقبض كلّ منّا على الآخر كمصارعين في نادي الرياضة في لندن. كان ذلك بالنسبة إليّ الجزء الأشدّ بشاعة من المغامرة لأنّني لم أكن مولعًا بالاحتكاك بين الأجساد قطّ، كما أنّ رائحة تبغ شديدة فاحت من لهاث هولمز. وشعرتُ بارتياح شديد حين لجأ إلى مهاراته في قتال البارتيتسو ورمى بي من فوق الحافّة.

كادت تلك السقطة تقتلني. فتجربة الغوص إلى ما لا نهاية غريبة وفظيعة، وكأنّ المرء يسقط من السماء، ومع ذلك تحيط به المياه، وهو يكاد لا يستطيع التنفّس. كنت كالأعمى، وسدّ صخب الماء أذنيّ. وبرغم أنّني احتسبت بدقّة عدد الثواني التي أحتاج إليها لبلوغ القاع، فقد بدا لي أنّني معلّق في الفراغ إلى ما لا نهاية. لم أعِ بوضوح مشهد الصخور التي تقترب منّي بسرعة، والتي لامستُ إحداها بساق واحدة، ملامسة طفيفة لحسن الحظّ، وإلّا لدُقّت عظامها دقًّا. في النهاية، غصت في المياه المتجمّدة، فخرج كلّ ما في جسمي من الهواء دفعة واحدة، ورحت أتقلّب وأدور، كأنّني أولد من جديد في ما يشبه الحياة بعد الموت. أدركت في داخلي أنّني نجوت، لكنّني لم أستطع الظهور إلى السطح، تحسّبًا لاحتمال أن يكون هولمز يراقبني. وقد أعطيت تعليماتي إلى الكولونيل موران لإلهائه وتشتيت انتباهه بإلقاء حجارة صغيرة في اتّجاهه. وفي أثناء ذلك سبحت إلى الشاطئ، وزحفت مبتعدًا، مرتجفًا ومرهقًا، إلى مكان أختبئ فيه.

الأغرب، بل الأشدّ إثارة للضحك، أنّني وهولمز استخدمنا الحادث عينه لنتوارى عن أنظار العالم. أنا، للأسباب التي ذكرتُها، وهو...؟ حسنًا، لا جواب مرضيًا على ذلك. لكنّ من الواضح أنّ هولمز كان له برنامج خاصّ به، وأنّه رغب في الاختباء مدّة الأعوام الثلاثة التي باتت تُعرف بـ«الفجوة الكبيرة». وكنت

دائم القلق من أن يعود للظهور، لأنّني أكاد أكون الوحيد في العالم الذي يعلم أنّه نجا. حتّى أنّني شككتُ لبعض الوقت في أنّه هو نزيل الغرفة المحاذية لغرفتي في فندق هكسام، ومَن كنت أسمعه يسعل في الظلام. أين ذهب في خلال هذا الوقت وماذا فعل؟ لم أكن أعلم أو أبالي. الأمر المهمّ هو أنّه لم يتدخّل في خطّتي وشعرتُ بالارتياح لعدم رؤيته من جديد.

كلّ ما كان مطلوبًا هو جثّة لتحلّ محلّي، وتكون بمثابة دليل دامغ على ما حدث. ولقد أعددتُ جثّة. في ذلك الصباح بالذات، صادفت رجلًا من أبناء المنطقة يعود من قرية روزنلاوي. ظننتُه فلّاحًا أو راعي غنم، لكن تبيّن أنّه فرانز هيرزل، الطاهي في «إنغليشر هوف». كان بيني وبينه شبه بعيد في العمر والمظهر الجسديّ العامّ، وقد قتلته وأنا أشعر بالأسف. فأنا لم أستمتع قطّ بقتل إنسان، خصوصًا إذا كان بريئًا شأن هيرزل بلا شكّ. لكنّ ضروراتي كانت أكثر إلحاحًا من أن أستسلم لوخز الضمير. ألبستُه وبيري ملابس شبيهة تمامًا بملابسي، ووضعت معها ساعة جيب فضيّة. وخِطتُ بنفسي الجيب السريّ الذي يحتوي على الرسالة المرمّزة التي كتبتها في لندن. ثمّ ألقيت به في الماء وابتعدتُ مسرعًا من ذلك المكان.

لو أنّ أثيلني جونز فكّر في الأمر لبرهة، لوجد أنّ من غير المرجّح أبدًا أن يكتب كلارنس ديفرو رسالة رسميّة لدعوة البروفسور موريارتي إلى اجتماع. فالرسالة الشفهيّة أكثر أمانًا. ولماذا يتكبّد عناء اختراع تلك الرموز المعقّدة؟ كان عليه أيضًا أن يتساءل لماذا شعر موريارتي بأنّه مضطرّ إلى أن يحمل معه تلك الرسالة إلى سويسرا، ولماذا كلّف نفسه عناء خياطتها في سترته. كان ذلك كلّه منافيًا للمنطق، لكنّه الدليل الأوّل في سلسلة من الأدلّة التي وضعتها في طريق الشرطة البريطانيّة لكي أستدرجها إلى خطّتي.

منذ التقيت المفتّش جونز علمت أنّ العناية الإلهيّة، التي ظلّت لفترة طويلة جدًّا ضدّي، قد وقفت أخيرًا بجانبي. كان من المستحيل أن تختار سكوتلانديارد شخصًا أفضل منه للقيام بالمهمّة التي أفكّر فيها. كان جونز بارعًا جدًّا في نواحٍ عدّة، وبليد الذهن وسريع التصديق وساذجًا جدًّا في نواحٍ أخرى. حين روت لي زوجته قصّته، وهوسه الغريب بشرلوك هولمز، كدت ألّا أصدّق

حظّي. كان جونز مطواعًا كليًا حتّى النهاية، وذلك ما قاده إلى الهلاك. كان دمية بين يديّ، كدمية الشرطيّ التي اشتراها لابنته في طريق عودته إلى المنزل.

لنأخذ مثلًا اللقاء الأوّل بيننا في مركز الشرطة في مايرنغن. جمع كلّ الأدلّة التي تعمّدتُ أن أضعها في طريق أيّ محقّق قد يصل: ساعة بينكرتون (التي اشتريتُها في الواقع من متجر رهونات في شوزديتش)، واللكنة الأميركيّة المزيّفة، وصُدرتي، والجريدة التي اشتريتها من ساوثهامبتون ووضعتها بشكل بارز، والأختام على صندوق أمتعتي. وقد أخطأ تمامًا في تفسير ذلك، مثلما أخطأ في تفسير بقية الأدلّة. فقد جرحتُ نفسي في الحلاقة على الضوء الخفيف لأحد فنادق باريس، لا في خلال عبور المحيط الأطلسيّ. كما أنّ الملابس التي ارتديتها، سبق لي أن اشتريتُها خصّيصًا للمهمّة التنكّريّة، أي أنّها لم تكن لي، لذا كان تفسير دليلَي رائحة السجائر وكمّ السترة البالي في غير محلّه تمامًا. قام جونز باستنتاجاته، فتظاهرت بالإعجاب. لكي يثق بي، كان يجب أن أجعله يعتقد أنّي أثق به.

أخبرته عن الرسالة، وألححت عليه لكي يتفحّص جثّة الطاهي مرّة ثانية، حتّى وجدها. ولعلّ استخدامي مقتطفًا من رواية «دراسة باللون الأحمر» كان موقفًا مسرحيًّا مبالغًا به، لكنّني وجدته مسلّيًا آنذاك، وخلته قد يلهي جونز عن الأمور الأخرى المنافية للعقل التي ذكرتُها. أدهشتني سرعة جونز في فكّ رموز الرسالة، ولكنّني طبعًا كنت مستعدًّا لتقديم المساعدة، لو أنّه عجز عن تلك المهمّة. والواقع هو أنّ الرموز تمّ تركيبها بطريقة تسهّل فكّها. فالإدخال غير الضروريّ أبدًا لكلمة «موريارتي» جعل العمليّة سهلة وبسيطة.

وكذلك في مقهى رويال. كان الأمر وكأنّني عبّدتُ طريقًا من الحجارة أمامه ليسير عليه: الرسالة، اللقاء، منزل بلايدستون، وكلّ حجر يقود إلى الآخر. لم تكن مهمّتي سوى القيام بعمليّات الربط الضروريّة. وصل بيري، في ملابس ساعي برقيّات، ومتظاهرًا بأنّه موفد من كلارنس ديفرو. فمثّلنا مشهدًا سبق أن تمرّنّا عليه، ثمّ عاجل بالهروب من دون أن يسرع، وهو ما أتاح لجونز اللحاق به. للمناسبة كان اختيار السترة الزرقاء الزاهية أمرًا متعمّدًا لضمان ألّا يفقد جونز أثر بيري وسط الحشود. وللسبب عينه، جلس على سطح

الحافلة المتوجّهة إلى هايغايت، لا بداخلها. لم يدخل بيري منزل بلايدستون. بل أسرع في اللحظة الأخيرة متّجهًا إلى الناحية الخلفيّة، ونزع سترته الزرقاء ورقد فوقها مختبئًا خلف شجيرة قريبة. إفترض جونز الذي فقد أثره أنّه دخل عبر بوّابة الحديقة. لماذا قد يفعل غير ذلك؟

ما كان سكوتشي لافيل ليدعوني إلى دخول منزله قطّ، لكنّه لم يكن يملك خيارًا في اليوم التالي، بعدما علم بوجود محقّق من سكوتلانديارد. تجاوزنا الخادم كلايتون، والتقينا لافيل. وبرغم أنّ هدفَي كلينا، أي جونز وأنا، بدوا وَاحدًا، فالواقع أنّنا كنّا تمامًا على طرفَي نقيض. كان هو يحقّق في جرائم حدثت في الماضي القريب، أمّا أنا فأعِدّ لجريمة ستقع في المستقبل القريب. لأنّ وجودي في داخل منزل بلايدستون جعلني أدرس كلّ تدابير الحماية فيه.

– أتريدان حشر أنفيكما هنا؟ سألنا لافيل.

بالطبع حشرت أنفي، فأنا مَن أصررت على زيارة المطبخ، ومضيت من هناك إلى بوّابة الحديقة. كان يجب أن أرى المشبك الحديديّ. كما كنت محظوظًا لأنّني عالم رياضيّات، صاحب نظر ثاقب في تسجيل القياسات. رسمت صورة ذهنيّة عن موقع القفل الثاني، لأعرف أين أثقب حين أعود. كذلك هذه المرّة لم أخدعك أيّها القارئ. فقد ذكرتُ أنّني كنت أوّل من عاد لدخول المطبخ، وأنّني بقيت وحدي فيه لفترة وجيزة. ما لم أذكره هو أنّ ذلك منحني الوقت لأدسّ مخدّرًا قويًّا في الكاري المخصّص للعشاء. فبات كلّ شيء جاهزًا للمرحلة التالية من خطّتي.

عدت بعيد الحادية عشرة ومعي بيري الذي يحبّ هذا النوع من المغامرات. خلعنا القفل، وثقبنا البوّابة، ثمّ تسلّق بيري الجدار إلى الطابق الثاني. كان جونز محقًّا في ذلك. لم نثر ضجيجًا، لكنّنا كنّا شبه واثقين بأنّ أحدًا لن يزعجنا. أدخلني بيري من باب المطبخ، بعدما أخبرته أين يجد المفتاح. ثمّ بدأنا العمل.

لست فخورًا بما حدث تلك الليلة. أنا لست وحشًا لكنّ الظروف أرغمتني على القيام بأفعال وحشيّة. في البداية أسكتنا كلايتون، وغلام المطبخ، والطاهية، وعشيقة سكوتشي لافيل الأميركيّة. لماذا كان يجب أن

يموتوا؟ لمجرّد أنّهم لو استُجوبوا في اليوم التالي، لأقسموا جميعهم على أنّ ساعي البرقيّات لم يدخل المنزل قطّ. ولعدم وجود ما يخسرونه بقول ذلك، ربّما كانت الشرطة ستصدّقهم. ولو حدث هذا لانفضحت الخطّة كلّها. لم يكن بوسعي المجازفة. إرتكب بيري ثلاثة من الجرائم، وأخشى أنّه استمتع بذلك. أمّا أنا فقد خنقت هنرييتا، ثمّ حملت لافيل إلى الطابق الأسفل، وهو لا يزال يغطّ في نوم عميق. قيّدته إلى كرسيّ ثمّ أيقظته بالماء البارد، وبعد ذلك أخضعته لتعذيب شديد. كان ذلك عملًا غير جميل لكنّني لم أكن أدري آنذاك أين يمكن العثور على كلارنس ديفرو، ولا ما كان يخطّط له. يجب أن أفي لافيل حقّه، فقد كان شجاعًا، وقاوم لفترة. لكنّ أحدًا لا يستطيع تحمّل عذاب ركبة مكسورة حين يتمّ تحريكها. وعرفت منه بأمر السرقة التي ستجري في طريق تشانسري. كذلك أخبرني لافيل أنّ ديفرو موجود في مقرّ البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة، لكنّه فعل ذلك بشيء من الوقاحة، لأنّه ظنّ سيّده أبعد من أن أطاله، فأنا لا أستطيع اقتحام مقرّ البعثة الدبلوماسيّة، كما أنّ ديفرو لا يغادرها قطّ. أدركت أنّ عدوّي، بما يعانيه من رهاب الساحات، كان كحلزون حقيقيّ في قوقعته. كيف كان ممكنًا أن أستدرجه إلى الخارج؟

تركت بيري يستمتع بقطع عنق لافيل، ثمّ انصرفنا معًا. لكنّني قبل ذلك كتبتُ كلمتين في المفكّرة لكي يكتشفها جونز في اليوم التالي: «هورنر 13». وتحسّبًا لاحتمال ألّا يكون الدليل كافيًا، وضعت صابونة حلاقة في الدرج عينه. قد تظنّ أنّ من المستغرب أن يضع أحدهم شيئًا غير مألوف كهذا في مكتبه، لكنّني أملت أن يذكّر ذلك الدليل جونز بدكّان حلاقة. كذلك تركت الدعوة إلى حفلة مقرّ البعثة الدبلوماسيّة حيث يستطيع العثور عليها.

كانت الجرائم المروّعة في منزل بلايدستون كافية لتدفع سكوتلانديارد إلى العمل. وقرّرت الشرطة البريطانيّة بعنادها المعهود عقد اجتماع للتشاور في الأمر. سررت حين أخبرني جونز أنّني سأشارك في ذلك الاجتماع. كان قلقي الأوحد أن يقرّر جونز أو أحد زملائه الاتّصال بوكالة بينكرتون في نيويورك، فيفتضح أمري في الحال. لهذا السبب استفسرت عن غرفة التلغراف. كان إرسال برقيّة إلى الخارج يستغرق أيّامًا، وربّما يستغرق وصول الجواب المدّة

عينها. إلّا أنّ ذلك ولّد لديّ شعورًا بعدم الارتياح، ولم يترك لي وقتًا كافيًا لإنضاج خططي. لذلك، حين أصرّ المفتّش لسترايد على الاتّصال بالوكالة شخصيًّا، قرّرت التصرّف. وقبل أن أغادر المبنى، كنت أعرف تمامًا ما عليّ فعله.

طبعًا، كنت أنا من أمر بالهجوم على سكوتلانديارد في اليوم التالي. وبرغم أنّ كلّ ما قلته لاحقًا هَدَفَ إلى حمل جونز على الاعتقاد بأنّه هو الهدف المقصود من الانفجار، إلّا أنّ الهدف الحقيقيّ كان غرفة التلغراف – التي شاء حسن الصدف أن تكون قريبة من مكتبه – وذلك بهدف تأخير إرسال برقيّة لسترايد المقلقة لبعض الوقت. حمل بيري القنبلة إلى داخل المبنى، فيما كان الكولونيل موران ينتظره في عربة ذات عجلات أربع. وقبيل الانفجار بقليل قمت بتضليلٍ للفت الانتباه إليهما، وحتّى بالمجازفة بحياتي تحت عجلات حافلة. كان مهمًّا أن يرى جونز أنّهم أتوا بعربة ذات عجلات أربع. وقد تعمّدت اختيار هذا النوع من العربات، لأنّني علمت أنّه سيتسعمل كلّ الوسائل المتاحة له لملاحقتها. طلب بيري وموران من السائق نقلهما إلى مقرّ البعثة الدبلوماسيّة الأميركيّة. ولكن، كما جرى عند منزل بلايدستون، لم يدخلا المقرّ فعلًا، بل اكتفيا بأن يكونا قريبين منها.

فوجئت كثيرًا بحماسة جونز لتجاهل حرمة المقارّ الدبلوماسيّة، وللمجازفة بمهنته بدخول مقرّ البعثة متنكّرًا. لكنّنا آنذاك كنا قد بتنا صديقين مقرّبين وكان عاقد العزم على العثور على كلارنس ديفرو، وخصوصًا بعد سقوط قتلى في سكوتلانديارد، لدرجة استعداده للقيام بأيّ شيء. كان هو مَن فضح هويّة كولمان دوفريس. وقد تظاهرتُ بالدهشة الضروريّة، لكنّ الواقع أنّني عرفتُ ذلك بنفسي أيضًا.

إبتداءً من تلك اللحظة تولّى جونز التحقيق، ولم يكن أمامي سوى اللحاق به، وكأنّني أقوم بالنسبة إليه بدور واطسون بالنسبة إلى هولمز. داهمنا نادي «بوسطنيان» معًا، وكان مثيرًا جدًّا بالنسبة إليّ أن ألتقي ليلاند مورتلايك للمرّة الأولى. غير أنّ الفائدة الحقيقيّة للمداهمة هي أنّها سمحت لي بزرع دليل آخر. كان محقّقو سكوتلانديارد عاجزين عن أن يكتشفوا بمفردهم معنى «هورنر 13»، حتّى حين ذكّرتُهم بصابونة الحلاقة، وأشرت إلى أنّ الاسم

قد يعني متجر عقاقير أو مؤسّسة شبيهة بذلك. لا عجب في أنّ هولمز غالبًا ما كان يتفوّق عليهم! ولذلك أخذت إعلانًا من دكّان الحلاقة دسستُه بين المجلّات في غرفة بيلغريم، حين تظاهرت بالتدقيق فيها. عثر جونز على الإعلان، وفهم أنّ شيئًا ما كان يتمّ الإعداد له، بحسب قوله.

عليّ الاعتراف بأنّ اكتشافه لمؤامرة طريق تشانسري كان ضربة معلّم، تليق برجل التحرّي العظيم عينه. كذلك لا انتقاد لي على الفخّ الذي نصبه في حوض «بلاكوال بايزن». فلو أنّ ديفرو أتى بنفسه للتدقيق في المسروقات التي يُفترَض بأنّ جون كلاي أخذها من شركة الودائع، لانتهت المسألة بسهولة أكبر جدًّا. لكنّه لم يأتِ، وانسلّ إدغار مورتلايك من بين أصابعنا، وبقي ديفرو بعيدًا عن متناولنا. وأدركت أنّه بحاجة إلى مزيد من التحفيز، وإلى صفعة أخرى ليخرج من جحره ويسلّم نفسه إليّ.

هذا تمامًا ما فعله اعتقال ليلاند مورتلايك. كان محزنًا بعض الشيء، ولكن غير مفاجئ، أن يسارع جونز إلى الاستنتاج، حين اكتُشف السهم المسموم في مؤخّرة عنق ليلاند، بأنّ أنبوب نفخ قد استُخدم. طبعًا، سبق له أن كان شاهدًا على ميتة مشابهة، وصفها واطسون في رواية «علامة الأربعة». الواقع أنّني كنت أحمل السهم معي منذ البداية، وغرزته في لحم ضحيّتي، فيما كنت أبعده عن نادل بالَغَ في الحماسة ونحن نغادر النادي. كان رأس السهم مغطًّى بمادّة مخدّرة إضافة إلى سمّ الإستركنين، فلم يشعر بشيء. كنت أودّ أن يتعذّب أكثر، فهو في النهاية الرجل الذي أُرغِم جوناثان بيلغريم على تحمّل صحبته المقيتة. لكنّ عمليّة القتل هذه كانت استفزازًا لديفرو لا أكثر. ولا شكّ بأنّ هذا الاستفزاز نجح.

لم يكن بوسعي توقّع أن يردّ ديفرو بخطف ابنة جونز. حتّى أنا ما كنت لأنحدر إلى هذا الدرك المنخفض، لكنّنا وكما قلت كنّا نلعب وفقًا لقواعد مختلفة. ماذا كان يمكنني أن أفعل حين أتى جونز إلى فندقي حاملًا تلك الأخبار؟ أدركت في الحال أنّ مرافقته ستعرّضني إلى خطر جسيم، لكنّه بدا واضحًا في الوقت عينه أنّ اللعبة تقترب من لحظة الذروة. كان يجب أن أكون هناك. ومجدّدًا حالفني الحظّ، فقد صودف وجود بيري في غرفتي في

الفندق، لأنّنا كنّا مجتمعين حين وصل جونز. وهكذا استطعت أن أزوّده بآخر التطوّرات وأقوم وإيّاه بترتيبات لحماية نفسي.

كان كلّ من الكولونيل موران وبيري خارج منزل جونز ينتظران في عربة، حين غادرنا المنزل تلك الليلة. يمكنك أن تتذكّر أنّني حين خرجت إلى الشارع، صحت متظاهرًا بالغضب وكأنّني أخاطب الخاطفين. الواقع أنّني كنت أوجّه كلماتي إلى موران لإعلامه بوجهتنا فأمنحه الوقت ليبلغها قبلنا. لذلك، حين وصلنا إلى «نزهة الرجل الميت»، كان قد سبقنا إليها. رآنا نُضرب ونفقد الوعي، ثمّ تبعنا وبيري إلى سوق سميثفيلد للّحوم. لم يكن بيننا وبين الموت سوى ثوانٍ لكنّهما نجحا في العثور علينا في اللحظة المناسبة. وفي هذا الشأن، حين واجهتُ ديفرو كاد أمري يُفتضح. فهو حزر في الواقع أنّ جوناثان بيلغريم يعمل لحسابي، وأنّه ليس عميلًا في وكالة بينكرتون، كما شرع بإنكار أنّه كاتب الرسالة المرمّزة التي بها بدأ كلّ شيء. ولو لم أقاطعه لظهرت الحقيقة. ما انقضضتُ على ديفرو إلّا لذلك السبب فقط، أي لإسكاته، برغم ما نالني جرّاء ذلك من ضربات.

أكاد أنتهي من السرد. سأشرب قطرة براندي أخرى، ونصل إلى النهاية.

والآن... أين كنت؟

صببتُ جهودي كلّها لإخراج كلارنس ديفرو من مقرّ البعثة الدبلوماسيّة. وحين وصلنا لإجراء المقابلة مع روبرت لينكولن، كان كلّ من الكولونيل موران وبيري في مكانهما. الأوّل على سطح مبنى قريب، والثاني في الشارع، متنكّرًا هذه المرّة بزيّ بائع خضر. كان كِلاهما ومنذ البداية فعّالًا جدًّا. صحيح أنّ موران لا يهتمّ إلّا بالمال الذي أدفعه له، فيما بيري صاحب سمعة مشينة، وطفل ساديّ. برغم ذلك، ما كنت لأستطيع اختيار رفيقين أفضل منهما.

وجونز! أظنّه حزر في النهاية لا مَن أكون، بل مَن لست أكون. كان يدرك طوال الوقت أنّ ثمّة خطبًا ما. مشكلته أنّه لم يستطع معرفة ما هو. كانت زوجته محقّة في شأنه، فهو ليس بالذكاء الذي ظنّ نفسه عليه، وذلك ما سبّب سقوطه. المثير للسخرية أنّها كانت الأكثر حكمة بين الاثنين، لأنّها لم تثق بي منذ لقائنا الأوّل، حتّى أنّها في النهاية جاهرت بذلك. أشعر بالأسف

من أجلها ومن أجل ابنتها، لكن لم يكن هناك من حلّ آخر. كان يجب أن يموت جونز. وقد ضغطت على الزناد، لكنّني حتّى الآن أتمنّى لو أنّ الأمر انتهى بطريقة أخرى.

كان رجلًا صالحًا، ومحطّ إعجابي. وبرغم أنّني كنت في النهاية مضطرًا إلى قتله، فسأعتبره دائمًا صديقي.

الفصل الثاني والعشرون

بداية جديدة

أخرجت مسدّسي. رمقني جونز بنظرة رأيت فيها مشاعر الصدمة والحيرة وأخيرًا الاستسلام.

– أنا آسف، قلتُ. وأرديتُه برصاصة في رأسه.

قُتل في الحال، وتهاوى جسده جانبًا فيما سقطت عصاه على الأرض للمرّة الأخيرة، محدثة جلبة فوق حجارة الطريق. كان يجب أن أتصرّف بسرعة كبيرة، لأنّني علمتُ أنّ عددًا كبيرًا من رجال سكوتلانديارد قريبون منّا. ترجّلتُ من العربة وسرت خطوات قليلة إلى عربة السجناء التي توقّفت وسط الطريق. كان كلّ من سائقها ورفيقه قد ماتا، فيما ظلّ الشرطيّ الذي وقف في مؤخّرة العربة متمسّكًا بالباب وكأنّ واجبه أن يبقيه مغلقًا. أطلقت النار في ظهره ونظرتُ إليه وهو يسقط. وفي الوقت عينه أطلق الكولونيل موران رصاصة ثالثة، فدار الشرطيّ الثالث الواقف بجانب بيري فجأة على نفسه وهوى. رأيتُ بيري يعبس، فقد خسر شخصًا يقتله.

صعدت إلى عربة السجناء، مبعدًا أحد القتلى من طريقي. وتناهت إليّ بشكل مبهم حركة المشاة وهم يشيرون بأيديهم ويصرخون، لكنّ أحدًا منهم لم يقترب طبعًا. كان ذلك ليكون عملًا جنونيًا، وقد اعتمدت على خوفهم وذعرهم لأجد الوقت الكافي لأهرب. أسرع بيري إليّ، وهو يمسح سكّينه بخرقة، ثمّ صعد إلى جانبي.

– أيمكنني أن أقود؟ سألني.

– لاحقًا، أجبته.

ثمّ ضربتُ الجوادين بالسوط، بعدما هدأ. لا بدّ من أنّ الشرطة درّبتهما على شقّ طريقهما، وسط الاحتجاجات الصاخبة والحشود العدائيّة. قدتُهما أمتارًا قليلة عبر شارع فكتوريا، وبيري إلى جانبي، ثمّ شددتُ لجامهما لأرغمهما على الانعطاف فجأة. كان ذلك خطأ آخر ارتكبه أثيلني جونز، فقد نشر رجاله على الطريق الذي يقودنا إلى سكوتلانديارد، لكنّني لم أكن أنوي السير في ذلك الاتّجاه قطّ. بعد انعطافنا، ظهر الكولونيل موران في أحد الأبواب، أحمر الوجه، وقد أعاد بندقيّة الضغط إلى حقيبة الغولف التي حملها على كتفه. ثمّ صعد إلى موطئ القدم في مؤخّرة عربة السجناء كما اتّفقنا.

وجّهت إلى الحصانين ضربة سوط أخرى فاندفعت بنا العربة متجاوزين محطّة فكتوريا في اتّجاه تشيلسي. رأيت عند نهاية هذا الشارع حشودًا أكبر، بدت تدرك أنّ شيئًا ما قد حدث، إلّا أنّ أحدًا لم يعرف ما هو. كما أنّ أحدًا لم يحاول الوقوف في طريقنا. إهتزّت بنا العربة بعنف فوق إحدى حفر الطريق، وسمعتُ موران يطلق شتيمة. تساءلت عمّا إذا كنت سأجده لا يزال حيث هو حين نبلغ وجهتنا، وراقتني فكرة سقوطه عن العربة في إحدى الضواحي. وأيضًا تساءلت عمّا يفكّر فيه راكب العربة. لا بدّ من أنّه سمع أصوات إطلاق الرصاص، وشعر بانعطافة العربة. من المحتمل جدًّا أنّه عرف ما حدث، لكنّ أبواب العربة مقفلة، وليس في وسعه أن يفعل شيئًا.

مررنا عبر تشيلسي وصولًا إلى فولهام، أو غرب كنزنغتون، كما يصرّ ساكنوها على تسميتها. حين بلغنا المستشفى، سلّمت الأعنّة إلى بيري الذي قاد الحصانين وعلى وجهه ابتسامة عريضة. آنذاك، رحنا نتقدّم ببطء أكبر. أدركت أنّ ساعات ستمضي قبل أن يطلق قطيع مفتّشي سكوتلانديارد ما يشبه عمليّة بحث، فلم يكن من داعٍ للفت الانتباه إلينا. ناديت الكولونيل موران، فأتاني الجواب على شكل زمجرة. بدا أنّه لا يزال حيث هو.

قضينا ما يقارب الساعة لنصل إلى حديقة ريتشموند بارك، وندخل عبر بوّابة بيشوبس غايت التي اخترتها، لأنّها لم تكن معدّة للجمهور. أردت

مكانًا مفتوحًا، وبدت لي الحديقة مكانًا مثاليًا لما أفكّر فيه. مضينا بالعربة إلى أوسع الحقول، حيث أحاطت بنا المناظر الطبيعيّة. حجبت إحدى الهضاب النهر عن عيوننا، لكنّ القرية بدت بوضوح، وكذلك المدينة في البعيد. كان يومًا رائعًا، فقد سطعت شمس الربيع أخيرًا، ولم تتوشّح السماء إلّا ببعض الغيوم المتفرّقة. في النهاية توقّفنا، فترجّل الكولونيل موران، وسار نحو الجياد، وهو يمطّ ذراعيه.

– هل كان عليك الابتعاد كلّ هذه المسافة؟ سألني.

تجاهلت سؤاله، ومضيت إلى الخلف وفتحت الباب. عرف كلارنس ديفرو ما سيكون عليه مصيره. ولحظة دخول أشعّة الشمس العربة، تقوقع مبتعدًا، ليختبئ في زاوية مغطّيًا عينيه. لم أكلّمه، بل دخلت العربة، وجررتُه إلى الخارج. كنت متأكّدًا من أنّه لا يحمل سلاحًا، وأنّه وحالما يصبح في العراء، سيكون عاجزًا تمامًا، وحاله كحال سمكة على اليابسة. في النهاية، أشرت إلى بيري الذي قاد الجوادين إلى أجمة حيث تنتظرنا عربة ثانية، سبق أن أخفيتها هناك. وهناك فكّ الجوادين، ليعيد ربطهما إلى العربة الثانية. كانت رحلة طويلة تنتظرنا إلى الساحل الجنوبيّ.

وقفت هناك، وعدوّي متكوّم أرضًا فوق ركبتيه. عرفت أنّه يستطيع الشعور بالنسيم على خدّيه، وسماع تغريد العصافير، وأنّه يدرك تمامًا أين هو، حتّى ولو لم يفتح عينيه. كنت أحتفظ بالمسدّس الذي استعملته لقتل أثيلني جونز. كذلك كان بيري مسلّحًا. بدا مستبعدًا أن يزعجنا متنزّهون، فالحديقة شاسعة، ومساحتها تبلغ تحديدًا ألفًا ومئتي هكتار. كما أنّني تعمّدتُ اختيار منطقة نائية، ولم أنوِ أن أطيل البقاء هنا.

وقف موران بجانبي، يتفحّص سجيننا بمزيج الوحشيّة والازدراء المعهود في تعابيره. وكان بجبهته الصلعاء وشاربيه الضخمين، يشبه شخصية الشقي في تمثيليّة إيمائيّة، لكنّه لم يدرك حقيقة مظهره، أو لعلّه لم يبالِ بها. قلتُ في نفسي إنّ طبعه السيّئ الذي اكتشفته فيه حين التقينا، يزداد مع تقدّمه في السنّ سوءًا وعنفًا.

– ماذا الآن، يا بروفسور؟ سألني. يخيّل لي أنّك مسرور جدًّا بما فعلت.

– نجح الأمر كما توقّعت، قلتُ. ثمّة وقت ظننتُ فيه أنّ الوزير مطلق الصلاحية لن يسلّمنا سكرتيره. لماذا على أولئك الأشخاص أن يكونوا على هذا القدر من النخوة؟ لحسن الحظّ أنّ المفتّش الراحل جونز أعاق ذلك باستعراض عبقريّة أخير قام به. وسوف أشعر بالامتنان نحوه إلى الأبد.

– وهذا الرجل القذر الصغير القامة... أظنّك ستقتله؟

– طبعًا لا! أحقًّا تعتقد أنّني أقوم بمجازفة كهذه لو أنّ تلك نيّتي؟ أحتاج إليه حيًّا، دائمًا ما احتجتُ إليه حيًّا. وإلّا لكانت مهمّتي أسهل بكثير.

– لماذا؟

– ستنقضي بضعة أعوام قبل أن أستطيع العمل مجدّدًا في إنكلترا، يا كولونيل. عليّ أوّلًا أن أعيد بناء منظّمتي، وهذا سيستغرق بعض الوقت. ومع ذلك ستبقى لديّ مشكلة...

– شرلوك هولمز؟

– لا، يبدو أنّه غادر المسرح. ولكن برغم دهشتي الشخصيّة في الاعتراف بهذا، عليّ أن أتعلّم الحذر من الشرطة.

– باتوا يعرفون مَن أنت.

– تمامًا، ولن يتأخّروا في معرفة حقيقة ما حدث. حتّى لسترايد قد يستطيع الربط بين الخيوط. كما أنّهم رأوني كلّهم.

– جلستَ بينهم ورأوا وجهك، كما أنّك قتلتَ واحدًا منهم. لن يوفّروا جهدًا في البحث عنك.

– ولهذا السبب يجب أن أرحل عن هذا البلد. بعد ثلاثة أيّام ستغادر سفينة فانداليا مرفأ هافر متّجهة إلى نيويورك. وسأكون وبيري على متنها، والسيّد ديفرو سيرافقنا.

– وبعدئذٍ؟

نظرتُ إلى ديفرو، وقلت له:

– إفتح عينيك.

– لا!

كان الرجل عقلًا بارعًا في الجريمة، وأعظم الأشرار الذين خرجوا من أميركا، وكاد أن يقضي عليّ. لكنّه في تلك اللحظة، بدا كطفل وهو يضغط بيديه على وجهه ويتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، وهو يئنّ.

– إفتح عينيك، قلت له مجدّدًا. إذا كنت ترغب في البقاء حيًّا، عليك أن تفتحهما حالًا.

إمتثل ديفرو لطلبي ببطء شديد، لكنّه بقي جامدًا يحملق في العشب، ويخشى أن يرفع رأسه.

– أنظر إليّ!

تطلّب منه الأمر جهدًا هائلًا، لكنّه في النهاية أطاعني. وأدركت أنّه سيستمرّ بإطاعتي لما تبقّى من حياته. كان يبكي، وانهمرت الدموع من عينيه وسال أنفه. كانت بشرته بيضاء تمامًا. سبق أن قرأتُ بعض المقالات حول رهاب الساحات، وهي حالة طبيّة لم تحظَ بالاعتراف العلميّ إلّا منذ فترة وجيزة، لكنّني أُعجِبتُ برؤية عوارضها عن كثب. ففي تلك اللحظة، حتى لو أعطيت ديفرو مسدّسي، لست واثقًا من أنّه كان ليتمكّن من استعماله، لأنّ الخوف قد شلّ قواه. في هذا الوقت، عاد بيري من خلف الأشجار، يجرّ خلفه صندوق أمتعة ضخمًا، هو الصندوق الذي سيسافر ديفرو فيه.

– هل نُدخله الصندوق؟ سألني بيري.

– لا، بعد يا بيري.

ثمّ استدرتُ إلى ديفرو وسألته:

– لماذا أتيت إلى هنا؟ عرفت في أميركا الثروة والنجاح. كما أنّ أجهزة القانون الرسميّة والخاصّة عجزت عن الوصول إليك. كان لك عالمك، ولي عالمي. ما جعلك تظنّ أنّ جعلهما يتصادمان سيعود بغير الأذى؟ – حاول ديفرو أن يتكلّم، لكنّه لم يعد قادرًا على النطق – وتابعتُ أقول: وما كانت النتيجة؟ الكثير من الدماء المسفوكة، والكثير من الألم. لقد تسبّبت بموت أقرب أصدقائي، (كنت أفكّر في جوناثان بيلغريم، وأيضًا في أثيلني جونز). والأسوأ أنّك أرغمتني على الهبوط إلى مستواك، واستخدام أساليب أجدها

بصراحة كريهة. لهذا لا أشعر بشيء نحوك سوى الكراهية، وعليك أن تموت في أحد الأيّام، لكن ليس اليوم.

– ماذا تريد؟

– رغبتَ في السيطرة على منظّمتي. والآن، سأسيطر أنا على منظّمتك. أنت لا تدع لي خيارًا، فبسببك انتهى أمري هنا. لذلك أنا بحاجة إلى معرفة أسماء كلّ شركائك في أميركا، وكلّ مَن عملت معهم، من مجرمي الشوارع وأسيادهم. ستخبرني كلّ ما تعرفه عن السياسيّين الفاسدين، والمحامين، والقضاة، والصحافة، والشرطة، وعن وكالة بينكرتون أيضًا. باب إنكلترا مقفل في وجهي في الوقت الراهن، أمّا باب أميركا فبالطبع لا. العالم الجديد! أنوي إعادة تكوين نفسي هناك. أمامنا رحلة أيّام عدّة، وفي نهايتها ستكون قد أعطيتني كلّ المعلومات التي أحتاج إليها.

– أنت شيطان!

– لا، أنا مجرم. والمجزم يختلف عن الشيطان... أو لعلّ هذا ما كنت أظنّه إلى أن التقيتُك.

– الآن؟ سألني بيري.

– نعم، قلت لبيري وأنا أهزّ برأسي إيجابًا. مظهره يثير فيّ الغثيان.

إنقضّ بيري على ديفرو مبتهجًا، فقيّده وكمّمه ثمّ حشره في صندوق الأمتعة، وأقفل غطاءه. في هذا الوقت، عدتُ لمحادثة موران.

– أعتقد بأنّك سترافقنا، يا كولونيل. أدرك أنّك لا تكنّ تقديرًا كبيرًا للبلد الذي سنقصده، ولكنّني برغم ذلك، سأكون بحاجة إلى خدماتك.

– هل ستدفع؟

– طبعًا.

– إذا كنتُ سأعمل في الخارج، أريد أجرًا مضاعفًا.

– سيكون عملك ذا قيمة عالية بالنسبة إليّ، حتّى بأجر مضاعَف.

– سأنضمّ إليك بعد شهر أو اثنين، قال موران وهو يهزّ برأسه موافقًا. لكنّني قبل ذلك سأذهب إلى الهند، إلى غابات المنغروف في السانداربانس.

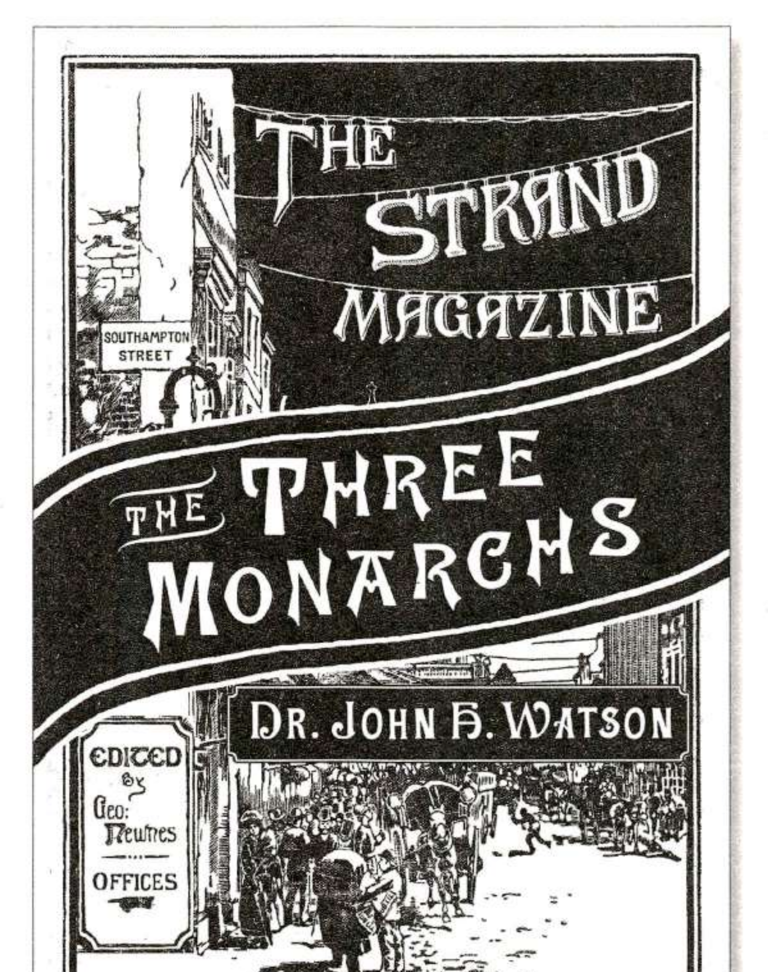
سمعتُ بأنّ فيها كثيرًا من النمور في مثل هذا الوقت من العام. هل ستترك لي رسالة في المكان المعهود؟ حالما أعود، سأنتظر منك خبرًا.

– ممتاز.

تصافحنا. ثمّ رفعنا نحن الثلاثة صندوق الأمتعة، المحكم الإقفال، ووضعناه في العربة. بعد ذلك صعدت وبيري إليها. تولّى الغلام القيادة لنهبط سفح الهضبة في اتّجاه نهر التايمز. كانت الشمس ساطعة، وتنشّقتُ رائحة المروج من حولي. لكنّني في تلك اللحظة لم أكن أفكّر في الجريمة، ولا في الانتصارات العديدة التي تنتظرني في أميركا من دون شكّ. لا. لسبب لا يمكن سبر أغواره، اتّجهت أفكاري إلى أمر مختلف تمامًا. كنت أفكّر في الحلول المختلفة القابلة للتطبيق لمعادلة كورتيفيغ ودوفريس، وهو نموذج رياضيّ، أنوي منذ وقت طويل تفحّصه، لكنّ الوقت لم يتسنّ لي لأفعل ذلك.

تابعت العربة الاهتزاز بنا فوق العشب، حتّى وصلنا إلى درب ترابيّة. كان بيري جالسًا بسعادة بالقرب منّي. أمّا ضيفنا فكان في الظلام، بداخل صندوقه. وظهر النهر كشريط أزرق بلّوريّ يخترق الحقول الوادعة الاخضرار. وفيما كانت المتغيّرات الرياضيّة المختلفة مثل x وt وσ تدور في رأسي، مضيتُ إلى النهر.

النهاية


THE STRAND MAGAZINE
SOUTHAMPTON STREET
THE THREE MONARCHS
DR. JOHN H. WATSON
EDITED By Geo: Newnes
OFFICES
AN·ILLUSTRATED·MONTHLY

الملكات الثلاث

الدكتور جون هـ. واطسون

لم أرغب قطّ في الكتابة كثيرًا حول شؤوني الخاصّة، لأنّني أدرك جيّدًا أنّ الجمهور لا يهتمّ إلّا بمعرفتي الطويلة والوثيقة بالسيّد شرلوك هولمز، وبما تسنّى لي الاطّلاع عليه من أساليبه في التحليل والاستنتاج. كما فكّرت كثيرًا في أنّني، ولولا تعارفنا الذي حدث بالصدفة فيما كنت أبحث عن مسكن زهيد في لندن، لواصلت عملي في الطبّ، ولربّما ما أمسكت قلمًا لأكتب كلمة واحدة.

ومع ذلك فإنّ بعض النواحي ممّا يمكن تسميته بحياتي الخاصّة قد ظهر بالضرورة في هذه الصفحات. فمثلًا عرف القرّاء قصّة الجرح الذي أصبت به في معركة مايواند الحاسمة، والمتاعب المتعدّدة التي سبّبها لي ذلك الجرح في عملي. وأعتقد أيضًا أنّني كنت على حقّ في أن أذكر شقيقي الأكبر، هنري، الذي خذل كلّ مَن حوله، وخذل نفسه خصوصًا، ثمّ أدمن الكحول ليموت باكرًا. ومن ناحية أكثر سعادة، فإنّ زواجي بالآنسة ماري مورستان، كما كان اسمها يوم عرفتُها، احتلّ مكانة مهمّة في إحدى رواياتي على الأقلّ، لأنّني ما كنت لألتقيها قطّ لو لم تقصد شرلوك هولمز طلبًا لخدماته. وقد أحببتها منذ اللحظة الأولى، كما لم أحاول قطّ إخفاء هذا الأمر عن قرّائي. ولماذا كان عليّ أن أفعل ذلك؟ فما عتّمنا أن تزوّجنا، وبرغم أنّ زواجنا لم يدم طويلًا، فقد بلغنا من التقارب أعظم ما يمكن أن يصل إليه رجل وامرأة.

كان منزلنا الأوّل يقع في شارع هادئ بالقرب من محطّة بادنغتون. لعلّها ليست الناحية الأكثر أناقة من المدينة، لكنّها لاءمتني لأعود إلى ممارسة الطبّ. كان منزلنا جميلًا وفيه غرفة معاينات مشرقة ورحبة، في الطابق الأرضيّ، يعلوها طابقان زيّنتهما زوجتي بتواضع وذوق رفيع. ومع ذلك، أعترف بأنّ وجودي وسط مظاهر الحياة المنزليّة، حيث كلّ شيء في مكانه، وحيث لا شيء تقريبًا يفيض عن الحاجة، قد سبّب لي في بداية الأمر شعورًا بالضيق يصعب تحديده. وحتّى الخادمة، وهي امرأة قصيرة القامة بدت مصمّمة على تجنّبي، أوحت لي بشعور غامض بالخطر. كان ذلك إحساسًا غريبًا. فمن جهة كنت أشعر بالسعادة التامّة، ولكنّني في الوقت عينه شعرتُ بالانزعاج، وبأنني أفتقد شيئًا من غير أن أعرف تحديدًا ما هو.

يحرجني أنّني لم أستطع أن أشخّص بسرعة سبب انزعاجي. فالشهور الكثيرة التي أمضيتها في العنوان 221 ب في شارع بايكر تركت طبعًا أثرها فيّ. كنت وبكلّ بساطة أشتاق إلى شقّتي القديمة. ولعلّي غالبًا ما تذمّرتُ من عادات هولمز الكريهة، ورفضه لأن يرمي أيّة وثيقة، حتّى غطّت أكوام الأوراق المختلفة كلّ مكان في المنزل، والفوضى غير المعقولة التي عاش وسطها: سيجاراته في دلو الفحم، وأنابيب اختبار وقوارير مبعثرة بين أطباق الفطور، ورصاصات مصفوفة على عتبة النافذة، وتبغ مخزون في خفّ فارسيّ. ولكنّني كنت مشتاقًا إلى ذلك. كم مرّة أويتُ إلى سريري وصوت كمان هولمز يتبعني على الدرج، أو نهضت على رائحة غليونه الصباحيّ الأوّل؟ ناهيك عن التنوّع الغريب للزوّار الذين أتوا إلينا: غراندوق بوهيميا، وامرأة ضاربة على الآلة الكاتبة، ومدرّس، وطبعًا مفتّش سكوتلانديارد الواقع في ورطة.

في السنة التي تلت زواجي، لم أرَ شرلوك هولمز إلّا قليلًا. ولعلّي تعمّدت الابتعاد لأنّني خشيت في سرّي أن تسيء عروسي فهم توقي إلى حياة خلّفتُها ورائي. أعترف بأنّي خشيت أيضًا أن يكون شرلوك هولمز نفسه قد تغيّر. كان شيء ما فيّ يخشى العثور على مستأجر جديد حلّ محلّي، برغم أنّ وضع هولمز الماليّ لم يكن ليرغمه على ذلك. أبقيتُ مخاوفي طيّ الكتمان، لكنّ عزيزتي

ماري كانت تعرفني على نحو أفضل ممّا ظننتُ. ففي إحدى الأمسيات توقّفت عن التطريز وقالت:

– عليك حقًّا أن تقوم بزيارة السيّد هولمز.

– ما الذي يجعلك تفكّرين فيه؟ سألتها.

– أنت تفكّر فيه! قالت ضاحكة. رأيتك تفكّر فيه منذ قليل. لا تنكر ذلك! فقد نظرتَ إلى الدرج حيث تحتفظ بمسدّسك العسكريّ، ولاحظتُ أنّك ابتسمت حين تذكّرت مغامرة ما عشتماها معًا.

– أنت مفتّشة تحرٍّ حقيقيّة يا عزيزتي. هولمز سيفخر بك.

– ولا شكّ عندي بأنّه سيسرّ برؤيتك. يجب أن تزوره غدًا.

لم أكن بحاجة إلى مزيد من التشجيع. بعد ظهر اليوم التالي، وبعدما عاينت المرضى الذين زاروني، مضيت إليه عازمًا على الوصول في الوقت المناسب لشرب الشاي. كان صيف العام 1889 حارًّا بصورة استثنائيّة، وأحسست بحرارة شمسه الحارقة وأنا أسير في شارع بايكر. مع اقترابي من منزلي القديم، فوجئت بسماع صوت الموسيقى. وما هي إلّا لحظات حتّى رأيت جمعًا صغيرًا من الناس متحلّقين حول كلب يقوم بوصلة راقصة أمام سيّده الذي رافقه نافخًا بالبوق. كان يمكن الوقوع على عروض تسلية كهذا في كلّ أنحاء العاصمة، سوى أنّ هذا العرض كان بعيدًا عن المحطّة. إضطررتُ للنزول عن الرصيف والالتفاف حول الجمع للوصول إلى الباب الأماميّ المألوف حيث قابلني حاجب النزل، وقادني إلى الطابق الأوّل.

كان شرلوك هولمز مسترخيًا في أريكة، وستائر النوافذ نصف المسدلة تلقي فوق جبينه ظلًّا يكاد يصل إلى عينيه. بدا عليه السرور برؤيتي، لأنّه رحّب بي وكأنّ شيئًا لم يتغيّر، وكأنّني لم أرحل قطّ. لكنّني رأيت وبشيء من الأسف أنّه لم يكن وحيدًا. فكرسيّ القديم القريب من المدفأة جلس فيه رجل ضخم البنية ومتعرّق الوجه، عرفته في الحال. كان ذاك المفتّش أثيلني جونز من سكوتلانديارد، رجل التحرّي الذي أثارت افتراضاته الخاطئة وما تلاها من أفعال غضبنا وتسليتنا في آنٍ واحد، حين كنّا نحقّق في جريمة قتل بارثولوميو

شولتو في «بونديتشيري لودج». حين رآني هبّ واقفًا ينوي الانصراف، لكنّ هولمز سارع إلى طمأنته، قائلًا لي:

– توقيت زيارتك ممتاز تمامًا يا عزيزي واطسون. لا شكّ بأنّك تتذكّر صديقنا المفتّش جونز. لقد وصل قبلك بقليل، وينوي استشارتي في مسألة بالغة الدقّة، كما قال لي.

– سيسرّني جدًّا أن أعود لاحقًا، إذا لم يكن الوقت الآن مناسبًا، قال جونز.

– لا، أبدًا. أعترف بأنّني بتّ أجد صعوبة متزايدة في تحفيز ذهني بدون صداقة مؤرّخي الخاصّ ومشورته الحسنة. خذ جريمة قتل تريبوف مثلًا، أو السلوك الغريب للدكتور مور أغار. لم أنجح في كلتا الحالين إلّا بمحض الصدفة. ألديك اعتراض يا واطسون على سماع ما يريد المفتّش قوله؟

– لا، أبدًا.

– إذًا اتّفقنا.

لكن قبل أن يستطيع جونز أن يبدأ، فُتح الباب ودخلت السيّدة هادسون والانهماك بادٍ عليها، حاملة صينيّة ملأى بالشاي والكعك، وبصحن صغير من الزبدة، وبحلوى بزور الخشخاش. لا بدّ من أنّ الحاجب قد أبلغها بوصولي، لأنّني لاحظتُ فنجانًا ثالثًا. لكنّ هولمز الذي نظر إلى ما على الصينيّة، توصّل إلى استنتاج مختلف تمامًا.

– أرى يا سيّدة هادسون أنّك لم تستطيعي مقاومة سحر مقدّم العروض في الشارع الذي اختار مدخل بيتنا لتقديم وصلته.

– هذا صحيح يا سيّد هولمز، أجابت السيّدة الطيّبة وهي تحمرّ خجلًا. سمعت الموسيقى، وتفرّجتُ قليلًا من نافذة في الطابق الأوّل. أردت أن أناديه ليرحل لكنّ الكلب كان مضحكًا جدًّا، والجمع كان مسرورًا جدًّا لدرجة أنّني عدلتُ عن ذلك. ثمّ عبست وأضافت: لكنّني لا أفهم كيف عرفت ما أفعله من نظرتك إلى صينيّة الشاي؟

– هذا ليس بذي أهمّية، أجاب هولمز ضاحكًا. الشاي يبدو رائعًا، وكما ترين، فإنّ صديقنا الطيّب واطسون قد أتى للاستمتاع به.

– يسرّني جدًّا أن أراك مجدّدًا يا دكتور واطسون، المنزل مختلف من دونك.

إنتظرت انصراف السيّدة هادسون لألتفت نحو صديقي وأقول له:

– أعذرني يا هولمز، لكنّني لا أرى كيف توصّلت إلى استنتاج كهذا من صحن كعك وحلوى ببزور الخشخاش.

– لا الكعك ولا الحلوى أطلعاني على شيء، أجاب هولمز. بل البقدونس الذي وضعته السيّدة هولمز فوق الزبدة.

– البقدونس؟

– وُضع البقدونس فوق الزبدة منذ دقيقة واحدة فقط. لكنّ الزبدة كانت خارج خزانة الأطعمة وفي الشمس. بإمكانك أن ترى أنّها ذابت في الطقس الدافئ.

نظرتُ إلى الزبدة، فكان ما قاله صحيحًا.

– لم يغُص البقدونس في الزبدة، وهذا ما يشير إلى المدّة التي انقطعت فيها السيّدة هادسون عن واجباتها. ما خلا وصول زائريّ الاثنين، فالأمر الوحيد الذي ألهاها كان الموسيقى، وتصفيق الجمع في الخارج.

– هذا مدهش! هتف جونز.

– هذا أمر بسيط، أجاب هولمز. الجزء الأساسيّ من عملي يرتكز إلى مجرّد ملاحظات كهذه. لكنّ لدينا قضيّة أهمّ. أخبرنا يا حضرة المفتّش عمّا جاء بك إلى هنا. في هذا الوقت يا واطسون، هلّا تصبّ لنا الشاي؟

سرّني أن ألبّي طلبه، وفيما بدأت ذلك، أخذ أثيلني جونز يسرد روايته، التي سأدوّنها كما يلي:

– إستُدعيت باكرًا صباح اليوم إلى منزل في هاموورث هيل، شمال لندن، وذلك لحادثة وفاة حدثت قضاءً وقدرًا، لا جريمة قتل، كما جرى إيضاحه لي منذ البداية. كان المنزل ملكًا لزوجين عجوزين، وهما السيّد والسيّدة أبرنيتي، ويعيشان فيه وحيدين لأنّهما لم يرزقا أولادًا. أيقظهما ليلًا صوت تحطّم خشب. فنزلا إلى الطابق السفليّ ليجدا شابًّا في ملابس سوداء يفتّش في ممتلكاتهما. كان الرجل لصًّا. ما من شكّ في ذلك، إذ لم ألبث أن اكتشفت

أنّه اقتحم منزلين مجاورين آخرين. حين رأى اللصّ هارولد أبرنيتي يقف بباب الغرفة بمبذله، اندفع نحوه وكاد يلحق به أذى كبيرًا لولا أنّ أبرنيتي كان يحمل معه مسدّسًا، دائمًا ما يحتفظ به في متناول يده، تحسّبًا لاحتمال كهذا بالتحديد. أطلق من مسدّسه رصاصة واحدة قتلت الرجل في الحال.

أخبرني هذا كلّه السيّد أبرنيتي، الذي بدا لي رجلًا عجوزًا غير مؤذٍ أبدًا. أمّا زوجته التي تصغره بسنوات قليلة فقد جلست في أريكة تنتحب طوال الوقت الذي قضيته هناك. علمت أنّهما ورثا المنزل من مالكته السابقة، السيّدة ماتيلدا بريغز، التي قدّمته إليهما بمحض إرادتها لتشكر لهما خدمتهما الطويلة. يعيش الزوجان في ذلك المنزل منذ ستّ سنوات بهدوء، ومن دون حوادث تُذكر. وهما متقاعدان وعضوان ورعان في الكنيسة المحليّة. من الصعب أن يتخيّل المرء زوجين أكثر مدعاة للاحترام.

هذا بالنسبة إلى المالكين. دعني الآن أصف لك الضحيّة: أقدّر أنّ له من العمر نحو ثلاثين عامًا، باهت البشرة، وغائر العينين. كان يرتدي بزّة وينتعل حذاءين جلديّين ملطّخين بالوحل. بدا الحذاءان مهمّين جدًّا بالنسبة إليّ، فالمطر قد هطل قبل يومين من السرقة. وحين دخلتُ حديقة أبرنيتي الصغيرة خلف المنزل، اكتشفت بسرعة آثار قدمَي القتيل. لا شكّ في أنّه أتى من جانب المنزل، ودخل الباب الخلفيّ. كذلك اكتشفتُ العتلة التي استعملها، في الحقيبة التي حملها والتي احتوت أيضًا غنائم السرقة.

– وماذا سرق ذلك الشابّ من العجوزين المسالمين أبرنيتي؟ سأل هولمز.

– سيّد هولمز، لقد أصبت! هذا هو تمامًا سبب قدومي إلى هنا.

حمل جونز معه حقيبة جلديّة كبيرة، افترضتُ أنّها للقتيل. وفتحها، وبغير أن يسعى إلى إحداث أيّ تأثير مسرحيّ، أخرج ثلاثة تماثيل من البورسلين ووضعها أمامنا الواحد بجانب الآخر. كانت تماثيل متطابقة ورخيصة ومبتذلة لملكتنا فكتوريا أمبراطورة الهند. طول كلّ منها نحو اثنين وعشرين سنتمترًا، كما كانت فاقعة الألوان، وأظهرت الملكة بثوب احتفاليّ وعلى رأسها تاج ماسيّ صغير، وبرقع مخرّم، وبوشاح يغطّي صدرها. أخذ هولمز التماثيل بيديه الواحد تلو الآخر، وتفحّصها، ثمّ تمتم قائلًا:

– هذه تذكارات لليوبيل الذهبيّ. ليس من مكان في لندن لا يبيعها، وأعتقد أنّها بخسة الثمن. أُخذت هذه التماثيل من ثلاثة منازل مختلفة. الأوّل لعائلة كثيرة الانهماك وقليلة التنظيم ولها على الأقلّ طفل واحد. والثاني لفنّان أو لصائغ حضر وزوجته احتفالات اليوبيل. أمّا الثالث فلا بدّ من أنّه أتى من منزل الزوجين أبرنيتي.

– أنت على حقّ تمامًا يا سيّد هولمز! هتف جونز. الزوجان أبرنيتي يعيشان في المنزل رقم 6، بنهاية صفّ قصير من المنازل المتّصلة. وقادني تحقيقي إلى أن أكتشف أنّ اثنين من جيرانهما، وأعني عائلة دانستابل من المنزل رقم 5، وامرأة اسمها السيّدة وبستر في المنزل رقم 1، قد تعرّضا للسرقة في الليلة عينها. السيّدة وبستر أرملة صانع ساعات. فيما المنزل المجاور تقطنه عائلة دانستابل، ولها ولدان صغيران. وهم الآن مسافرون. لكنّ التماثيل كلّها متطابقة، فكيف عرفت لمن كلّ منها؟

– الأمر في غاية البساطة، أجاب هولمز. لاحِظ أنّ التمثال الأوّل لم يُنفض عنه الغبار منذ فترة، ويحمل البصمات الصغيرة والدبقة التي لا يمكن أن تكون إلّا لطفل، استخدم تمثال ملكتنا بمثابة دمية. أمّا التمثال الثاني فقد كُسر وأعيد تصليحه بمهارة، من قِبل مالكه كما أفترض، والذي ما كان ليقوم بأمر كهذا لولا أنّ يوم اليوبيل يحمل معنى خاصًّا بالنسبة إليه. من المحتمل جدًّا أنّه شارك فيه برفقة زوجته، التي أصبحت أرملته. ألم يُسرق أيّ شيء آخر، حضرة المفتّش؟

– هذا هو تمامًا سبب وجودي هنا، سيّد هولمز. حين زرت المنزل في هامبورث هيل، ظننتُني في البداية سأحقّق في عمليّة سرقة بسيطة، تحوّلت إلى مأساة. لكنّني بدلًا من ذلك وجدت لغزًا لا يمكن سبر أغواره. لماذا قد يخاطر أيّ شابّ بحرّيّته وبحياته في النهاية، من أجل ثلاثة تماثيل صغيرة، كان بإمكانه شراؤها لقاء شيلينغات قليلة في أيّ مكان في لندن؟ يجب أن أعرف الإجابة. وبما أنّني تذكّرت معرفتي بك، سمحت لنفسي بالقدوم إلى هنا على أمل أن تستطيع مساعدتي.

صمت هولمز، وتساءلت عمّا سيجيب مفتّش سكوتلانديارد به. كان من طبعه المتقلّب أن قضيّة لا أهمّية واضحة لها قد تشعل اهتمامه، فيما قد

يتركه لغز كالألغاز التي يكتبها إدغار ألان بو نفسه مسترخيًا في كرسيّه وغير عابئ. في النهاية تكلّم، فقال:

– تُظهر مشكلتك بعض النواحي المثيرة للاهتمام. ومع ذلك يبدو لأوّل وهلة أنّه لم تُرتكب أيّة جريمة. فهذا الرجل، أي أبرنيتي، كان يدافع عن نفسه وعن زوجته. وأيضًا لا شكّ في أنّه واجه شابًا يائسًا وخطرًا. للمناسبة، أين الجثّة؟

– أمرت بنقلها إلى المشرحة في مستشفى القدّيس طوماس.

– هذا مؤسف، فلا شكّ بأنّك أزلت أدلّة كثيرة معها. عندي سؤال آخر، حضرة المفتّش جونز. أيّة علاقة جمعت الجيران الثلاثة، أي عائلة أبرنيتي، وعائلة دانستابل، والسيّدة وبستر؟

– يبدو أنّ علاقة ممتازة تجمعهم، يا سيّد هولمز، برغم أنّني لم أستطع، كما شرحت لك، أن أكلّم السيّد دانستابل. إنّه موظّف بورصة، وهو الآن مسافر.

– هذا ما توقّعته.

– إذًا هل أفهم من اهتمامك في المسألة أنّك مستعدّ لمساعدتي في تحقيقي؟

من جديد لم يقل هولمز شيئًا لكنّني رأيتُه يرمق صينيّة الشاي بنظرة، ولمحت في عينيه الالتماعة التي أعرفها جيّدًا.

– هامبورث هيل غير بعيدة جدًّا من هنا، قال. لكنّني لا أرغب في الصعود إليها في مثل هذا الطقس الحارّ. أفضّل أن أدع المسألة بين يديك القادرتين حضرة المفتّش. لكنّ مسألة البقدونس في الزبدة، برغم عدم أهمّيتها، يبدو أنّ لها تأثيرًا في القضيّة.

ظننته يمزح، ويهزأ بزائره السيّئ الحظّ، إلّا أنّه بدا في غاية الجدّية. وتابع يقول:

– سأتحرّى الأمر. فات الأوان على القيام بأيّ شيء اليوم، لكنّنا سنلتقي غدًا. لنقل، عند العاشرة؟

– في هامبورث هيل؟

– في المشرحة. وأنت يا واطسون، بما أنّك سمعت الرواية، عليك أن ترافقنا. أنا أصرّ على ذلك، وواثق بأنّ مرضاك يستطيعون البقاء ساعات قليلة من دونك.

– كيف يمكنني أن أرفض لك طلبًا يا هولمز؟ سألته. والحقيقة هي أنّ المسألة قد أثارت فضولي. كانت تماثيل الملكة الثلاث أمامي، وكنت متشوّقًا لمعرفة السرّ الذي قد تخفيه.

هكذا، التقينا في اليوم التالي في المشرحة الباردة ذات البلاط الأبيض، حيث مُدّدت أمامنا جثّة اللصّ السيّئ الحظّ. كان مظهره كما وصفه المفتّش جونز تمامًا. وقد أصابته الرصاصة فوق القلب تمامًا، ولم أشكّ في أنّ وفاته كانت فوريّة. إلّا أنّ تلك الملاحظات لم تُثر اهتمام هولمز، الذي ألقى نظرة خاطفة على الجرح قبل أن يلتفت إلى المفتّش الصامت، وإحدى يديه تحت ذقنه.

– يهمّني أن أعرف ما الذي استطعت تفسيره من الجثّة، قال.

– لا شيء أكثر ممّا سبق أن قلته، أجاب جونز. إنّه شابّ، في الثلاثين من عمره ربّما. ويبدو إنكليزيًّا...

– لا شيء أكثر؟

– أخشى أن لا، هل هناك ما فاتني رؤيته؟

– فقط أنّه خرج مؤخّرًا من السجن. وبرأيي أنّ ذلك حدث في الأيّام القليلة المنصرمة، بعدما قضى عقوبة طويلة. وكان يشرب نبيذ الشيري قبل موته. هذه لطخة دم هنا. أمّا هذه فليست دمًا بالتأكيد. أمر غريب جدًّا.

– كيف عرفت بأنّه كان في السجن؟

– ظننتُ هذا سيكون واضحًا لك. لا بدّ من أنّك رأيت شحوب الرجال الذين يُحرمون ضوء الشمس لفترة طويلة. كما قُصّ شعره قصيرًا جدًّا. وما هي هذه الألياف تحت أظافره؟ أشمّ رائحة قار الصنوبر، ولا شكّ بأنّه كان يعمل في جمع مُشاقة الكتّان في السجن. حذاءاه جديدان، لكنّ موضتهما قديمة. ربّما أُخذا منه وقت اعتقاله وأُعيدا إليه حين غادر السجن؟ ها! ثمّة طيّة في جوربه الأيسر. أجدها ذات دلالة كبيرة جدًّا.

– لا أرى أيّ دلالة على الإطلاق.

– هذا لأنّك لا تبحث يا عزيزي المفتّش جونز. أنت تهمل كلّ ما يبدو غير ذي صلة بتحقيقك، من دون أن تدرك أنّ الحقيقة يمكن العثور عليها في أصغر التفاصيل وأتفهها. لكن لا شيء أكثر نقوم به هنا. لنذهب إلى هامبوورث هيل.

جلس المفتّش جونز حزينًا وصامتًا في خلال رحلتنا بالعربة إلى شمال لندن. وصلنا في النهاية إلى طريق هادئ فيه صفّ من ستّة منازل تتشابه كلّها، مبنيّة على الطراز الكلاسيكيّ، أي بالحجارة والجصّ الأبيض، وذات مداخل متراجعة عن الطريق، ويحيط بالباب الأماميّ لكلّ منزل عمودان. كان الزوجان أبرنيتي يعيشان في المنزل الأبعد، كما أخبرنا جونز. بدت لي فورًا رثاثة حال منزلهما، فالطلاء قد تقشّر عن الجدران الأماميّة، وظهرت الشقوق في الجصّ، كما اتّسخت نوافذه وكانت بحاجة إلى تصليح.

– ألا تجده غريبًا يا واطسون، لاحظ هولمز، أن يهتمّ اللصّ بمنزل كهذا؟

– لقد قرأت أفكاري! يبدو واضحًا جدًّا لي أنّ سكّان المنزل ليسوا أثرياء.

– لا تنسَ أنّ الوقت كان ليلًا، تمتم جونز قائلًا. كان يستند إلى العربة، ممتقع الوجه، وكأنّ مشقّة العودة إلى هنا أنهكته. وأضاف: هذا شارع ثريّ في ضاحية راقية، ولعلّ المنزل بدا تحت جنح الظلام مغريًا، شأنه شأن المنازل المجاورة. إضافة إلى ذلك، فاللصّ قد اقتحم أيضًا المنزلين 1 و5.

– أظنّك قلت إنّ السيّدة وبستر تقيم في المنزل رقم 1. علينا أن نبدأ بزيارتها.

– لا بزيارة الزوجين أبرنيتي؟

– ستكون متعة اللقاء بهما أكبر إذا ما طال انتظارنا لها.

هكذا، قمنا بزيارة منزل الأرملة العجوز كورديليا وبستر. كانت امرأة قصيرة القامة وبدينة، استقبلتنا بحماسة، ولم تكفّ لحظة واحدة عن الحراك منذ أن فتحت الباب وقادتنا إلى غرفة استقبالها المريحة. بدا واضحًا أنّها، ومنذ وفاة زوجها، عاشت نوعًا من حياة الوحدة، وأنّ السرقة، وحتّى الوفاة التي حدثت في منزل قريب، قد قدّمتا لها قدرًا كبيرًا من الإثارة.

– لم أستطع في البداية أن أصدّق أنّ شيئًا ما قد فُقد، شرحت قائلة. فلم أسمع شيئًا في خلال الليل، وحين زارني الشرطيّ في اليوم التالي، كنت متأكّدة من أنّه مخطئ بلا شكّ.

– كان الباب الخلفيّ مخلوعًا، شرح جونز. وقد عثرتُ على آثار أقدام في الحديقة الخلفيّة، مطابقة لتلك التي شاهدتُها في منزل أبرنيتي من قبل.

– إفترضتُ في البدء أنّه سعى إلى سرقة مجوهراتي، تابعت السيّدة وبستر. في غرفة نومي خزنة، لكنّني وجدتُ أنّ شيئًا لم يُمسّ. وحده التمثال الصغير للملكة فكتوريا فُقد من مكانه فوق البيانو.

– أنا متأكّد من أنّك أسفت على خسارته.

– طبعًا يا سيّد هولمز. ذهبت وزوجي إلى كاتدرائيّة القدّيس بولس يوم اليوبيل، وتفرّجنا على وصول موكب صاحبة الجلالة. يا لها من مثال بالنسبة إلينا كلّنا! وعليّ الاعتراف بأنّني أحتمل خسارتي الشخصيّة بسهولة أكبر لمعرفتي أنّ كلتينا أصيبت بألم الترمّل.

– هل مات زوجك منذ فترة قصيرة؟

– في العام الماضي، بداء السلّ. كانت السيّدة أبرنيتي في غاية اللطف معي. وفي الأيّام التي تلت الجنازة، دأبت على المجيء إلى هنا. كنت في حالة حزن شديد – لا شكّ بأنّك تستطيع تخيّل ذلك –. وقد اعتنت بي، فطهت لي الطعام، ولازمتني... ولم تتذمّر من شيء. وهذا هو تمامًا ما فعلته وزوجها مع السيّدة بريغز العجوز. أقسم على انّك لن تجد في العالم شخصين يفوقانهما اهتمامًا بالآخرين.

– السيّدة بريغز كانت، كما علمت، جارتك السابقة.

– صحيح. هي مَن استخدمت الزوجين أبرنيتي. فكانت السيّدة أبرنيتي ممرّضتها والسيّد أبرنيتي خادمها. هكذا قدم الزوجان للعيش هناك. كنت والسيّدة بريغز مقرّبتين جدًّا، وقد أخبرتني مرارًا كم تشعر بالامتنان نحوهما. لم تكن ماتيلدا بريغز ثريّة. كان زوجها محاميًا وعضوًا بارزًا في نقابة المحامين. مات عن عمر الثالثة والثمانين أو الرابعة والثمانين، تاركًا إياها لتواجه الحياة بمفردها.

– ألم يكن لهما أبناء؟

– لم يرزقا أولادًا. كان لها شقيقة، ولهذه الأخيرة ابن لكنّه قُتل في أفغانستان. كان جنديًا.

– وكم كان عمر ابن شقيقتها؟

– لم يكن قد تجاوز عامه العشرين حين مات. لم ألتقه قطّ، وما كانت ماتيلدا المسكينة تتحدّث عنه بدون أن يغمرها الحزن الشديد. فالفتى بمثابة عائلتها الوحيدة.لم تكن تتحمّل أن تضع صورته بالقرب منها. بنهاية حياتها، لم يكن لديها مَن تورثه المنزل، لذلك أعطته إلى الزوجين أبرنيتي، لتشكر لهما خدمتهما الطويلة لها. كان ذلك سخاء كبيرًا منها.

– هل فاجأك الأمر؟

– لا، إطلاقًا. ذكرت لي أنّهما ناقشا الأمر معها، وأوضحت لي أنّها قرّرت ذلك. وقد تركت بقيّة مالها للكنيسة، لكنّها أعطتهما المنزل.

– كنتِ غاية في الوضوح والمساعدة يا سيّدة وبستر، قال هولمز. ثمّ مدّ يده فأعطاه جونز التمثال الذي حمله معه. وسألها: هل أنت متأكّدة تمامًا من أنّه التمثال الصحيح؟ فالتماثيل الثلاثة هي في النهاية متطابقة.

– لا، لا. هذا التمثال لي بكلّ تأكيد. سقط منّي فيما كنت أنظّف المنزل، فتحطّم. لكنّ زوجي تكبّد جهدًا كبيرًا في تصليحه لأنّه يعلم كم أنني مولعة به.

– كان بوسعه أن يشتري لك تمثالًا آخر.

– ما كان ليكون التمثال ذاته. وقد استمتع زوجي بتصليحه لي.

لم يبق أمامنا سوى تفحّص الباب الخلفيّ الذي دخل السارق عبره إلى المنزل، وهذا ما فعلناه. دلّنا جونز إلى آثار الأقدام التي وجدها، والتي كانت ظاهرة بوضوح في حوض الزهور. تفحّصها جونز ثمّ حوّل انتباهه إلى القفل المخلوع.

– لا شكّ بأنّ هذا أصدر ضجيجًا كبيرًا، قال.

ثمّ التفت إلى السيّدة وبستر التي كانت تقف قريبة منه، تنتظر، بل ترجو مزيدًا من الأسئلة. وسألها:

– أحقًّا لم تسمعي شيئًا؟

– نومي عميق جدًّا، اعترفت السيّدة. في بعض الليالي، آخذ شيئًا من صبغة الأفيون. ومنذ أشهر قليلة نصحتني السيّدة أبرنيتي بالنوم على وسائد من شعر الجمال. وقد كانت على حقّ تمامًا، فمنذ ذلك الحين لم أعد أعانِي مشاكل في النوم.

استأذنّاها بالانصراف، وسرنا معًا إلى نهاية صفّ المنازل، متجاوزين منزل عائلة دانستابل التي لا تزال مسافرة.

– مؤسف ألّا نستطيع استجوابهم، قلت لهولمز.

– أشكّ في أن يكون لديهم الكثير ليقولوه لنا يا واطسون. وأعتقد أنّ هذا الأمر ينطبق على الزوجين أبرنيتي. لكنّنا سنرى. هذا هو الباب الأماميّ... الذي يحتاج إلى طلاء جديد. المنزل كلّه يبدو مهملًا. لقد كان هبة لهما، ويجب القول إنّها كانت هبة سخيّة جدًّا. هلّا ترنّ الجرس يا واطسون؟ آه... أظنّ أحدهم يقترب.

فتح الباب هارولد أبرنيتي، وهو رجل في نحو عامه الستّين، طويل القامة بطيء الحركة ذو كتفين منحنيتين، ووجه عميق التجاعيد، وشعر أشيب طويل. ذكّرني بمتعهّدي الجنازات، بملامحه التي تنمّ عن الحزن القاتم. كان يرتدي سترة صباحيّة غامقة اللون، وقد انسلّت بعض خيوطها.

– حضرة المفتّش جونز! هتف بعدما عرف رفيقنا. هل لديك أيّة أخبار؟ يسرّني أن أراك. مَن هما هذان السيّدان اللذان يرافقانك؟

– أقدّم إليك السيّد شرلوك هولمز، رجل التحرّي الشهير، أجاب جونز. وهذا رفيقه الدكتور واطسون.

– سيّد هولمز! أنا أعرف اسمك طبعًا. أعترف يا سيّدي بأنّني مدهوش لأنّ مسألة بهذه التفاهة تثير اهتمام شخص مثلك.

– موت رجل ليس مسألة تافهة أبدًا، أجاب هولمز.

– هذا صحيح. عنيتُ سرقة التماثيل. لكنّني أخطأتُ. هلّا تتفضّلون بالدخول؟

كان المنزل يشبه تمامًا منزل السيّدة وبستر، إلّا أنّه كان يوحي بالوطأة والظلمة. وبرغم كونه لا يزال مأهولًا، بدا وكأنّه مهجور. كانت السيّدة أبرنيتي

تنتظرنا في الردهة. وهي امرأة قصيرة القامة جدًّا، تكاد الأريكة التي جلست فيها تبتلعها، وراحت تمسح عينيها بمنديل، فيما ظلّت شبه عاجزة عن الكلام.

– إنّها مسألة رهيبة جدًّا يا سيّد هولمز، قال أبرنيتي. سبق أن شرحت كلّ شيء للمفتّش، لكنّني مستعدّ طبعًا أن أساعدك بكلّ ما في وسعي.

– هذا خطأي، قالت السيّدة أبرنيتي باكية. لقد قتل هارولد ذلك الشابّ من أجلي.

– زوجتي هي التي أيقظتني، تابع أبرنيتي يقول. سمعت صوت باب يُخلع، فأرسلتني إلى الطابق الأسفل لأتحقّق من الأمر. أخذت المسدّس معي، برغم أنّني لم أنوِ استعماله قطّ. حين رآني الرجل وأسرع نحوي... لم أكن أعرف ما أفعل. أطلقت رصاصة ورأيته يسقط. أتمنّى من كلّ قلبي لو أنّني أصبته بجرح، ولم أضع حدًّا لشبابه.

– ماذا فعلتَ بعدما سقط؟

– أسرعت إلى زوجتي وأخبرتها أنّني بخير. ثمّ ارتديتُ ملابسي. كنت أنوي العثور على أقرب ضابط شرطة، لكنّني لاحظت الحقيبة التي حملها الشابّ معه. وبرغم علمي أنّ عليّ عدم العبث بالأدلّة، ألقيت نظرة بداخلها. وآنذاك رأيت تماثيل البورسلين الثلاثة فيها، الواحد بقرب الآخر. عرفتُ أنّ أحدها لنا، كنت قد ابتعته لزوجتي بمثابة تذكار لليوبيل الذهبيّ، ورأيت في الحال أنّه ليس في مكانه على المنضدة الجانبيّة. يمكنك أن تتخيّل دهشتي الكبيرة برؤية التمثالين الآخرين. ثمّ تذكّرتُ أنّني رأيت أحدهما في غرفة استقبال السيّدة وبستر.

– كان على البيانو، قالت السيّدة أبرنيتي.

– أدركت حينذاك أنّنا لم نكن الضحيّتين الوحيدتين للسرقة التي حدثت تلك الليلة. وهو ما لبث المفتّش جونز أن أكّده حين باشر تحقيقاته.

– لا يمكنكم أن تلقوا اللوم على زوجي، فهو لم يرتكب أيّ خطأ، كما لم ينوِ أن يؤذي أحدًا.

– لا حاجة لأن تقلقي يا سيّدة أبرنيتي، قال لها هولمز مطمئنًا. لقد قابلت جارتك السيّدة وبستر، وهي لا تصفك إلّا بأنبل الكلمات.

– إنّها امرأة صالحة، قالت أبرنيتي. ولا تزال تعيش صدمة خسارة زوجها في آب الماضي. لكنّنا جميعنا نتقدّم في العمر. ويجب توقّع هذه الأمور.

– لقد أخبرتنا عن ماتيلدا بريغز.

هزّ أبرنيتي برأسه. وقال:

– إذًا فأنت تعرف كم نحن مدينان لها. إستخدمتنا السيّدة بريغز سنوات عدّة، وإميليا... والتفت إلى زوجته ليتابع: كانت ممرّضتها في خلال مرضها الطويل. وبدافع الامتنان، ومع عدم وجود أنسباء مباشرين لها، أورثتنا منزلها.

– أعتقد أنّه كان لها ابن شقيقة.

– كان رقيبًا أوّل في فرقة النجاديّين الثانية والتسعين. وقد قُتل في معركة قندهار في جنوب أفغانستان.

– لا بدّ من أنّها كانت صدمة كبيرة بالنسبة إليها.

– لقد استاءت طبعًا، لكنّهما لم يكونا متقاربين قطّ.

– وبقيّة المال؟

– وهبته للكنيسة المحليّة لمساعدة الفقراء، قالت السيّدة أبرنيتي. كانت السيّدة بريغز تقيّة جدًّا، وعضوًا في جمعيّة الأمومة الملكيّة الخيريّة، وجمعيّة الاعتدال، وجمعيّة مساعدة الشابّات، وجمعيّات كثيرة غيرها.

هزّ هولمز برأسه إيجابًا، ثمّ نهض معلنًا نهاية المقابلة. فاجأني أنّه لم يطرح أيّة أسئلة إضافيّة، وأنّه اختار هذه المرّة ألّا يتفحّص الباب الخلفيّ أو الحديقة. لكنّه كان قد قال سابقًا إنّه لا يتوقّع معرفة الكثير من هذا اللقاء. وفقط عند الباب، التفت إلى العجوزين وقال:

– عندي سؤال أخير. أين جيرانكما؟ موظّف البورصة وعائلته؟

– في توركاي، أجابت السيّدة أبرنيتي، بزيارة إلى والدة السيّدة دانستابل.

إبتسم هولمز، وقال:

– سيّدة أبرنيتي، لقد قلت لي ما أريد معرفته تمامًا، وجوابك كان تمامًا الجواب الذي توقّعته. أهنّئك وأتمنّى لك يومًا سعيدًا.

سرنا مسافة قصيرة نزولًا عبر الهضبة، ونحن صامتون. لكنّ مفتّش سكوتلانديارد لم يستطع في نهاية الأمر تحمّل الصمت، فانفجر سائلًا:

– أتملك حلًّا لهذا اللغز يا سيّد هولمز؟ ثلاثة تماثيل صغيرة لا قيمة لها تقريبًا، تُسرق من ثلاثة منازل متجاورة. ما الغاية من هذه السرقة؟ يبدو لي أنّك لم تطرح أسئلة لم يسبق لي أن طرحتها، ولم ترَ شيئًا لم يسبق لي أن لاحظتُه. أخشى أنّني ضيّعتُ وقتك بإحضارك إلى هنا.

– على العكس من ذلك، حضرة المفتّش جونز. عليّ تقصّي بعض الأمور، لكن، ما خلا ذلك، لا يمكن هذه القضيّة أن تكون أكثر وضوحًا ممّا هي عليه. هلّا نلتقي في شقّتي في شارع بايكر صباح الغد؟ هل يناسبك أن نلتقي عند العاشرة؟

– بالتأكيد.

– إذًا فلنفترق حاليًّا. واطسون، هلّا ترافقني إلى المحطّة؟ أجد أنّ الهواء أبرد قليلًا هنا. طاب يومك، حضرة المفتّش جونز. كانت هذه فعلًا قضيّة فريدة من نوعها، وأشكر لك أنّك لفتّ انتباهي إليها.

كان ذلك كلّ ما قاله، وعاد جونز إلى العربة المنتظِرة، والحيرة التامّة تعلو وجهه. أعترف بأنّني لم أكن أوسع علمًا، لكنّني عرفت بأنّ عليّ ألّا أطرح أسئلة لا أجوبة عنها بعد. عرفت أيضًا بأنّني سأتغيّب عن عيادتي لليوم الثالث على التوالي، لأنّ من غير الممكن تصوّرأن أفوّت على نفسي حلّ لغز معقّد كالذي قدّمته لي التماثيل الثلاثة.

في اليوم التالي، عدت إلى شارع بايكر في تمام الساعة العاشرة، فالتقيت المفتّش جونز عند الباب. صعدنا الدرج معًا، فاستقبلنا جونز الذي كان يرتدي مبذله، ويشارف على الانتهاء من تناول فطوره. حين رآنا قال:

– حسنًا، حضرة المفتّش جونز! نعرف الآن اسم القتيل. إنّه مايكل سنودن، وقد أطلِق سراحه من سجن بنتونفيل منذ ثلاثة أيّام فقط.

– وبمَ أدين؟

– بالابتزاز، والاعتداء، والسرقة. أخشى أنّ السيّد سنودن عاش حياة ماجنة وقصيرة. لكن على الأقلّ، لم يصل به الأمر إلى حدّ القتل قطّ، وفي ذلك بعض التعزية.

– لكن، ما الذي جاء برجل كهذا إلى هامبوورث هيل؟

– أتى للمطالبة بما هو حقّ له.

– تماثيل البورسلين؟

إبتسم هولمز وأشعل غليونه، وألقى بعود الثقاب المستهلك في المدفأة، ثم أضاف:

– أتى للمطالبة بالمنزل الذي تركته له خالته، السيّدة بريغز.

– هل تقول إنّه كان ابن شقيقتها؟ سيّد هولمز، كيف يمكنك أن تعرف هذا؟! صاح المفتّش.

– لا حاجة بي إلى أن أعرف هذا، حضرة المفتّش جونز. لقد استنتجتُه. حين تشير الأدلّة كلّها إلى اتّجاه واحد ممكن، يمكنك آنئذٍ التيقّن من أنّك وكلّما سرتَ قُدُمًا فلا بدّ من أن تصل إلى الحقيقة. مايكل سنودن لم يكن جنديًا قطّ، ولم يمت في أفغانستان. وقد اتّضح ذلك لي ممّا قالته السيّدة وبستر. قالت إنّ ماتيلدا بريغز كانت مستاءة جدًّا لموت ابن شقيقتها، لدرجة أنّها لم تتحمّل وضع صورة له في منزلها قطّ. لكنّ ذلك لم يبدُ لي قابلًا للتصديق ولو حتّى قليلًا. فلو مات في الجيش، وهو يخدم بلده، فلا شكّ بأنّها كانت لتفعل العكس تمامًا، وتفتخر بتكريم ذكراه. لكن أن يكون لامرأة ترتاد الكنيسة، وعضو في جمعيّة الاعتدال الخيريّة، ابن شقيقة فاسق ومجرم...

– ستتظاهر بأنّه مات في الخارج! هتفتُ قائلًا.

– بصفته جنديًا، أو ما شاكل ذلك. تمامًا يا واطسون! لهذا السبب رفضت أن تضع صورته في منزلها.

– ومع ذلك، فقد أورثت الزوجين أبرنيتي منزلها، قال جونز مصرًّا.

– هذا ما يزعمانه. لكنّ السيّدة وبستر، وهي للمناسبة شاهدة ممتازة وملمّة بالتفاصيل على نحو مدهش، أدلت بملاحظة لافتة جدًّا للاهتمام. فقد قالت إنّ الزوجين أبرنيتي هما مَن ناقشا أمر الوصيّة مع مخدومتهما، السيّدة بريغز، لا العكس! في الحال أدركت ما ربّما حدث. تلك المرأة العجوز والمريضة، والمتروكة لحالها مع خادم يدبّر مكيدة، وزوجته التي هي أيضًا ممرّضتها، قد أُقنِعت بتغيير وصيّتها في مصلحتهما. فقد أرادا المنزل وأخذاه، وحرما ابن الشقيقة حصّته.

غير أنّها كانت سيّدة صاحبة ضمير. وفي اللحظة الأخيرة، غيّرت رأيها، وراسلت ابن شقيقتها فأخبرته بما حدث وعبّرت عن رغبتها في أن يرثها. لقد كلّمتُ آمر السجن صدفة. وقد أكّد لي بأنّ سنودن تلقّى فعلًا رسالة منذ أشهر قليلة. وكما يقول المثل الشعبيّ، الدم لا ينقلب إلى ماء، ولعلّ خالته كانت تعتقد بأنّه قابل لإصلاح نفسه، حتّى في هذه المرحلة المتأخّرة. لم يكن بوسع مايكل سنودن فعل الكثير فهو في السجن يقضي عقوبة طويلة. لكنّه وحالما خرج إلى الحرّية، أتى إلى منزل خالته، وواجه مغتصبَي حقّه.

– وقد قتلاه! قلتُ وقد أدركتُ فجأة كلّ شيء.

– لا شكّ عندي بأنّهما حاولا محاورته بالعقل. وقد قدّما له كأسًا من نبيذ الشيري. ولكن حين تعنّت في رأيه، ولا شكّ بأنّه هدّدهما، أخذ السيّد أبرنيتي مسدّسه وقتله. أسقط سنودن الشيري، فلطّخ قميصه، لكنّ الدماء أخفت طبعًا قسمًا كبيرًا من اللطخة.

أصغى جونز إلى ذلك كلّه، وقسماته توحي بالأسى، وقال:

– كلّ شيء يبدو واضحًا لي يا سيّد هولمز. لكنّني لم أفهم بعد كيف حللتَ اللغز.

– تماثيل الملكات الثلاث هي التي فضحت اللعبة. كان السيّد أبرنيتي بحاجة إلى سبب لقتل شابّ زعم بأنّه مجهول تمامًا بالنسبة إليه. من السهل القول إنّه كان لصًّا. لكن لمَ قد يختار لصّ منزلًا بحال يُرثى لها كمنزله، والذي من الواضح أنّه لا يحتوي شيئًا ثمينًا؟ تلك كانت معضلته.

– كان الحلّ الذي وجده عبقريًّا. وهو أن يسرق منزلين قريبين آخرين، بطريقة تحمل الشرطة على الافتراض بأنّ الدافع هو السرقة. لماذا اختار المنزلين رقم 1 ورقم 5؟ كان يعلم أنّ عائلة دانستابل في توركاي، وهو ما أخبرتنا به السيّدة أبرنيتي نفسها. كما كان يدرك بأنّ السيّدة وبستر، بما تتناوله من صبغة الأفيون، ووسائد شعر الجمال التي تنام عليها، تغطّ في نوم عميق، ومن غير المحتمل أن تستيقظ.

– لكن، لماذا التماثيل الثلاثة؟

– لم يملك الخيار. فلم يكن في منزله ما يستحقّ السرقة، كما أنّه لا يمتلك المهارات اللازمة لفتح خزنة السيّدة وبستر. إلّا أنّه علم أنّ المنازل الثلاثة تضمّ

تذكار اليوبيل عينه، وهذا ما أحدث تضليلًا مثاليًا. قد تتذكّر أنّ مدبّرة منزلي، السيّدة هادسون، ألهاها كلب يرقص فأهملت الشاي. الأمر عينه ينطبق هنا. إفترض السيّد أبرنيتي، وكان محقًّا في افتراضه، أنّ أمر تلك التماثيل التافهة سيشغل بالك كثيرًا، لدرجة أنّك لن تشكّ أبدًا في الحقيقة الكامنة خلف السرقة. من سوء حظّه أنّك اخترت في هذه المناسبة أن تحمل هذه المسألة إليّ.

– أعتقد أنّه تعمّد ترك الآثار.

– فعلًا. وقد تساءلتُ عن سبب وجود سارق حريص جدًّا على إظهار طريقة دخوله. لقد كان الفاعل هو السيّد أبرنيتي طبعًا، بعد أن انتعل حذاءَي مايكل سنودن، وقد حرص على ترك آثار قدميه في أحواض الزهور. إلّا أنّه أخطأ بإحداث طيّة في جورب القتيل وهو يسحب أحد الحذاءين. وقد لاحظتُ ذلك في المشرحة.

– سيّد هولمز... لا أجد الكلمات المناسبة لـ...

قال جونز ذلك وهو يقف، وبدا لي أنّه بذل جهدًا ليفعل ذلك، فتذكّرتُ أنّ هذا الضعف عينه قد ظهر عليه حين كنّا في هاموورث هيل. ثمّ أضاف:

– أعذرني إن انصرفتُ، عليّ اعتقال شخص.

– بل شخصين، حضرة المفتّش. من الواضح أنّ السيّدة أبرنيتي شريكة في هذه الجريمة.

– فعلًا، قال جونز وهو ينظر إلى هولمز مرّة أخيرة، ثمّ تمتم قائلًا: أساليبك غير عاديّة. سأتعلّم منها. يجب أن أتعلّم منها. لقد أغفلت الكثير، فلم أرَ إلّا القليل القليل... لن أسمح بحدوث ذلك مجدّدًا.

بعد فترة قصيرة، علمت أنّ مرضًا حلّ بأثيلني جونز، وأنّه أخذ إجازة من عمله في الشرطة. ورأى هولمز أنّ قضيّة أبرنيتي المخيفة ربّما لعبت دورًا في تردّي صحّته. لذلك قرّرتُ، ومن باب الاحترام للرجل المسكين ألّا أنشر روايتي، بل أن أضعها مع أوراق أخرى في خزنة «شركة كوكس وشركائه» للودائع في تشايرينغ كروس، مانحًا إيّاه السرّية عينها التي أمنحها أيًّا من مرضاي، على أن تُنشر يومًا ما في المستقبل، حين تُنسى الأحداث التي رويتُها، بما يسمح بعدم المسّ بشهرة المفتّش أثيلني جونز.